
المركز القومى للترجمة
فاديت الصغيرة
1190
الإبداع القصصى
تأليف: جورج صاند
ترجمة: دينا مندور
مراجعة: أمل الصبان

فاديت الصغيرة

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: ١١٩٠
- فاديت الصغيرة
- جورج صاند
- دينا مندور
- أمل الصبان
- الطبعة الأولى: ٢٠٠٨

هذه ترجمة رواية:

La Petite Fadette

de: George Sand

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤– ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

فاديت الصغيرة

تأليف: جورج صاند
ترجمة: دينا مندور
مراجعة: أمل الصبان



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

صاند، جورج
فاديت الصغيرة (رواية) تأليف: جورج صاند، ترجمة: دينا مندور، مراجعة: أمل الصبان، القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٨م.
٢٧٤ص؛ ٢٠سم
١- الرواية الفرنسية
أ- مندور، دينا (مترجم)
ب- الصبان، أمل (مراجع)
ج- العنوان

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٣٥٧٠
الترقيم الدولى: 7 - 790 - 437 - 977
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

فاديت الصغيرة

كان "الأب باربودى لاكوس" موفقًا فى إدارة شئونه حتى أصبح عضوًا فى المجلس المحلى للبلدة، وكان يمتلك حقلين يوفران له غذاء العائلة إلى جانب بعض الأرباح؛ فالعلف الذى كان يجمعه من المراعى التى يمتلكها، وينقله فى عربات مملوءة عن آخرها هو من أجود الأنواع فى البلدة عدا البعض منه، والذى كان ينمو على شاطئ المجرى المائى، ويعوق نموه بعض العشب الجاف.

يعيش "الأب باربو" فى منزل جميل مغطى بطبقة من الطين الجاف، يتميز بطقس معتدل؛ لأنه يطل على الشاطئ وبه حديقة بالإيجار وحقل كروم بست يوميات. أما مستودع المحاصيل فتقع خلفه روضة جميلة نسميها بستانًا؛ حيث تكثر الفاكهة، وتفيض من خوخ وكريز وكمثرى حتى أشجار الجوز التى تحيط بالبستان؛ فهى الأقدم والأكبر مقارنة بمثيلاتها فى المناطق المجاورة.

يتميز "الأب باربو" بعزيمة قوية، وهو شخص غير لئيم على الإطلاق، ويعتنى كثيرًا بعائلته دون أن يجور على جيرانه وقد رزقه الله بثلاثة أطفال، وحين رأت "الأم باربو" أن لديها ما يكفى لخمسة، وأنه يتعين عليها أن تسرع بالإنجاب قبل أن يداهمها الكبر تجرأت

وأنجبت له طفلين دفعة واحدة: صبيَّان متشابهان لدرجة يصعب معها التمييز بينهما، وهو ما يطلق عليه توأم متماثل.

لم تنس "الأم ساجيت" التى استقبلت التوأم فى ردائها لحظة وصوله إلى الحياة أن ترسم بإبرتها الصغيرة صليبًا صغيرًا على ذراع الأكبر فيهما؛ لأنها – على حد قولها– إذا ميزته بشريط أو عقد على الرقبة فقد يضيع؛ فيفقد أكبرهما حقه فى التمييز، وأضافت أنه حينما يكبر قليلاً لابد من تمييزه بعلامة لا تمحى، سمى أكبرهما (سيلفان) الذى تحول بعد بعض الوقت إلى (سيلفنى) لتمييزه عن أخيه الأكبر، والذى كان إشبين "سيلفان" عند التعميد، أما أصغر التوأم فسمى "لاندرى"، وهو الاسم الذى أطلق عليه عند تعميده؛ لأن الناس كانوا ينادون عمه – الذى كان إشبينه – منذ صغر سنه "لاندريش".

عند عودة "الأب باربو" من السوق اندهش حين وجد طفلين فى السرير الصغير، وقال:

- أوه... إنه سرير ضيق للغاية.. باكر سأجهز آخر أكبر حجمًا.

كان يمتلك موهبة النجارة؛ فهو الذى صنع نصف ما يملكه من أثاث لم يبد دهشته بأى طريقة أخرى، وتوجه إلى زوجته ليطمئن عليها، وجدها تشرب كوبًا من النبيذ الساخن، داعبها قائلاً: لقد أبليت بلاء حسنًا يا عزيزتى، وهو ما يجب أن يعطينى دفعة للأمام؛ فها

هما طفلان إضافيان لم نكن فى حاجة إليهما مطلقًا علينا أن نغذيهما، وهذا يعنى أنه لا ينبغى لى أن أستريح من زراعة الأرض وتربية الماشية، لا تقلقى. سنتولى الأمر، ولكن بالله عليك فى المرة القادمة لا تمنحينى ثلاثة أطفال دفعة واحدة؛ لأن ذلك سيفوق طاقتى.

أجهشت "الأم باربو" بالبكاء؛ فقد آلمها كثيرًا حديث زوجها... هدأها قائلاً:

- اهدئى اهدئى، أرجوك لا تبكى يا زوجتى العزيزة فأنا لم أقصد لومك، بل إننى أشكرك؛ فطفلانا الصغيران جميلان وسليمان، وأنا سعيد بهما للغاية.

تفوهت الزوجه المهمومة: يا إلهى .. أعلم يا عزيزى أنك لا تلومنى، ولكنى قلقة وحزينة؛ لأننى سمعت أن تربية التوأم تجلب الحظ والشقاء فى الوقت ذاته وفى أغلب الأحوال يجب أن يفنى أحدهما ليعيش الآخر سعيدًا.

أردف "الأب باربو": حقًا !! أهى الحقيقة ؟؟ بالنسبة إلىَّ فإنها المرة الأولى التى أرى فيها توأمًا؛ فهى حالة نادرة بالتأكيد، ولكن ها هى "الأم ساجيت" التى تملك خبرة كبيرة، وبوسعها أن تنصحنا كيف يكون الأمر.

هنا قالت "الأم ساجيت": ثقا بكلامى؛ هذا التوأم سيعيش بصحة جيدة، ولن يمرض أكثر من الأطفال الآخرين؛ فمنذ خمسين عامًا وأنا

أعمل داية، وأرى ميلاد وحياة، بل وفاة كل أطفال المنطقة، وليست المرة الأولى التى أستقبل فيها توأمًا؛ أولاً التشابه بينهما لا يؤثر على صحتهما؛ فبعض التوائم قد لا تتشابه مطلقًا ويولد أحدهما ضعيفًا والآخر قويًا؛ فيعيش طفل ويموت الآخر، لكن تأملا توأمكما؛ فكل منهما جميل ومكتمل كما لو كان طفلاً وحيدًا. فلم يؤذ أحدهما الآخر حين كانا فى رحم أمهما، وجاءا للدنيا بسلام دون أن تعانى أمهما، ودون أن يعانيا هما أنفسهما؛ إنه توأم رائع ولا يطلب أكثر من الحياة، هدئى من روعك يا سيدتى، سيسعدك كثيرًا متابعتهما وهما يكبران، وإذا أعطاهما الله العمر فلن يستطيع أحد أن يميزهما سوى أنت والمقربون الذين يرونهما كل يوم، فأنا لم أر فى حياتى توأمًا متماثلاً لهذه الدرجة مثل كتكوتين صغيرين خرجا لتوهما من البيضة!! إنهما رقيقان ومتشابهان حتى لا يستطيع أحد التمييز بينهما سوى أمهما.

هنا قاطعها "الأب باربو" وهو يفرك رأسه: ولكنى سمعت أن التوأم يرتبط كل منهما بالآخر أكثر مما ينبغى، بحيث لا يستطيعان الحياة إذا افترقا، وفى هذه الحالة يظل أحدهما على الأقل يأكله الحزن حتى الموت.

تنهدت "الأم ساجيت" وهى تؤكد: إنها الحقيقه بعينها، ولكن أنصتا لما يمكن أن تقوله لكما سيدة ذات خبرة مثلى؛ لا تنسوا ما أقول لأنه فى الوقت الذى سيترككما فيه ابناكما قد لا أكون فى هذا

العالم كى أنصحكما، انتبها فمن اللحظة التى يبدأ فيها ابناكما فى معرفة أحدهما الآخر عليكما ألا تتركاهما معًا طوال الوقت، اصطحبا أحدهما للعمل بينما يبقى الآخر فى المنزل، وفيما يجمع الأكبر الحطب يذهب الأصغر للصيد ويرعى أحدهما الغنم بينما يجمع الثانى البيض من الحظيرة، وإذا أعطيتما أحدهما كوبًا من العصير ليحتسيه لا تعطيا الآخر سوى الماء والعكس صحيح, لا توبخاهما أو تقوِّماهما معًا أبدًا ولا تُلبِساهما نفس الثياب وحين يطلب أحدهما قبعة أحضرا للآخر طاقية وإذا ارتديا من اللون نفسه فلتكن الدرجة على الأقل مختلفة وأخيرًا امنعاهما بكل الوسائل الممكنة من أن يمتزجا ببعض أكثر أو أن يعتادا على بعض لدرجة تمنعهما من أن ينفصلا يومًا ما، أخشى ألا تضعا كلامى هذا كحلقة فى أذنيكما فإن لم تفعلا فستندمان كثيرًا.

كانت "الأم ساجيت" محقة تمامًا فيما تقول وصدقها الزوجان ووعداها بأن يطبقا ما قالته ومنحاها عطية كبيرة قبل أن تغادر ووفقًا لما قالته بدءا فى البحث سريعًا عن مرضعة لتغذى أحد الأطفال كى لا يرضعا من اللبن ذاته.

ولكن لم يكن فى المنطقة من تقوم بهذه المهمة "فالأم باربو" التى لم تكن تنتظر طفلين مرة واحدة والتى أرضعت بنفسها باقى الأطفال لم تأخذ احتياطها مقدمًا فكان على "الأب باربو" أن يجد

مرضعة فى الضواحى وخلال هذه الفترة لم تستطع الأم أن تترك طفليها جوعانين فأرضعتهما معًا من لبنها.

ولم تقرر المرضعات فى المنطقة سريعًا، فرجل ميسور مثل "الأب باربو" يجب أن يساوم عند الاتفاق. فمن المعروف أن عائلة "باربو" تستطيع أن تدفع أكثر وأن الأم لم تعد صغيرة السن لتتحمل تغذية طفلين وحدها دون أن تخور, ولهذا كانت كل مرضعة ممن قابلهن "الأب باربو" تطلب منه ثمانية عشر جنيهًا للشهر الواحد كما لو كان برجوازيًا ثريًا.

أما هو فكان لا يريد أن يعطى أكثر من ١٢ أو ١٥ جنيهًا معتبرًا أن ١٨ جنيهًا مبلغًا كبيرًا ليدفعه فلاح مثله. وطاف فى كل مكان واشتبك أحيانًا مع البعض دون أن يصل إلى نتيجة، فالمسألة من وجهة نظره لم تكن مرهقة للغاية؛ فطفلان صغيران لن يتعبا الأم كثيرًا وبخاصة أنهما هادئان ولا يصيحان كثيرًا ولا يسببان اضطرابًا فى المنزل أكثر مما يسببه طفل واحد، فحين ينام أحدهما ينام الآخر أيضًا, وقد جهَّز الأب سريرهما وعندما كانا يبكيان معًا كانوا يهدهدونهما ويهدئونهما معًا.

أخيرًا توصل "الأب باربو" إلى اتفاق مع مرضعة مقابل ١٥ جنيهًا شهريًا على الرغم من أنه لم يكن مستعدًا لدفع أكثر من مائة فى العام وهنا قالت له زوجته:

- آه... عذرًا يا زوجى العزيز... أنا لا أفهم لماذا نتكلف مائة وثمانين أو مائتى جنيه سنويًا كما لو كنا سادة أغنياء وكأننى طاعنة فى السن بحيث لا أستطيع تغذية طفلىّ فلدى ما يكفى من لبن لغذائهما ويزيد، فقد أرضعتهما الآن لشهر كامل.. انظر إليهما، أليسا على خير حال، كما أن المرضعة التى اتفقت معها ليست فى نصف قوتى وصحتى؛ بالفعل أوصتنا "الأم ساجيت" ألا نرضعهما من اللبن ذاته لتجنب ارتباطهما الشديد ببعضهما وقالت ذلك حقًا ولكن ألم توصنا كذلك أن نمنحهما نفس القدر من الرعاية لأن الأطفال التوائم لا يتمتعون بنفس القوة التى يتمتع بها الأطفال العاديون، حقيقة أنا أفضل أن يحيا أحدهما الآخر كثيرًا وإذا لزم الأمر أن يضحى أحدهما من أجل الآخر, ثم أيهما سوف نعطيه للمرضعة؟ فالحق أننى سأشعر بألم شديد لفراق أى منهما ومع حبى الشديد لأطفالى جميعًا فإننى ودون قصد منى أشعر بأن هذا التوأم ألطف وأرق من حملت بين ذراعىَّ ولا أدرى ما السبب فى خوفى من فقدهما. أستحلفك يا زوجى العزيز ألا تفكر مجددًا فى تلك المرضعة وسنلتزم فيما عدا ذلك بنصائح "ساجيت" الأخرى كافة.

بالله عليك كيف يمكن لطفلين رضيعين أن يرتبطا ببعضهما ارتباطًا قويًا وهما لن يستطيعا تمييز أيديهما من أرجلهما إلا بالكاد عند الفطام.

ورد وهو يتأملها ورآها نضرة وقوية وهى حالة نادرة بين من لهن نفس ظروفها:

- ما تقولينه صحيح ولكن مع مراعاة أنه مع نموهما ستذبل صحتك يا عزيزتى.

أجابته: لا تخف فأنا أشعر أننى فى أحسن حال وأتمتع بشهية فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها وإذا شعرت بالضعف أعدك أننى لن أخفى عليك، ووقتها سيكون لدينا فرصة ليعيش أحد التوأم البائس خارج منزلنا.

اقتنع الأب بكلام زوجته لا سيما أنه لا يحب الإنفاق فى ما لا يفيد. وأرضعت الأم طفليها دون أن تشكو أو تعانى لدرجة أنها وبعد عامين من فطامهما أنجبت طفلة جميلة أسموها "تانيت" وأرضعتها أيضًا بنفسها ولكن كان ذلك أكثر مما ينبغى فوجدت صعوبة فى أن تكمل المشوار وحدها فكانت الابنة الكبرى من وقت لآخر تخفف عنها بأن ترضع هى أختها الصغرى.

وعلى هذه الحال عاشت الأسرة وترعرعت معًا تحت الشمس فعاش الأعمام الصغار والخالات الصغيرات مع أبناء الإخوة وبنات الأخوات دون أن يتعايروا بأيهم أكثر خفة أو أكثر تعقلاً من الآخر.

الفصل الثانى

عاش التوأم فى بهجة دون أن يمرضا كثيرًا كغيرهما من الأطفال واتصفا برقة الطبع والتهذيب الشديد، ولم يعانيا كذلك من أسنانهما أو من تطور نموهما كما يعانى من فى مثل سنهما.

كانا أشقرين وظلا هكذا طوال حياتهما وكانا يتمتعان بمظهر متناسق وعينين زرقاوين واسعتين وكتفين متهدلين وقامة مستقيمة وفارعة، فكانا أطول وأجرأ من رفقاء عمرهما وحينما يمر الجيران أمام ضاحية "الكوس" يتوقفون مندهشين لتشابههما ويرددون "يا لهما من زوجين رائعين من الصبية".

وهو ما تسبب فى اعتياد التوأم منذ صغرهما على أن ينظر إليهما بتفحص، وأن تطرح عليهما بعض الاستفسارات دون أن يخجلا أو يظهرا كحمقى طوال فترات نموهما، فكانا يتصرفان بتلقائية مع كل الناس وبدلاً من الاختباء خلف الأشجار كما يفعل باقى الأطفال حالما يلمحون شخصًا غريبًا كانا يواجهان القادم الجديد بترحاب شديد ويجيبان على ما يُسألان عنه دون أن يخفضا رأسيهما أو أن يتمنعا وللوهلة الأولى كان يصعب التمييز بينهما حتى يُهيَّأ للناظر أنهما مثل بيضتين, ولكن بعد تأملهما ما يقرب من ربع ساعة يتبين أن "لاندرى" أطول وأقوى بنيانًا وشعره أكثر كثافة وأنفه أكثر

استقامة، أما عيناه فأكثر حيوية وجبهته أكثر اتساعًا ومظهره أكثر حزمًا كما تزين وجنته اليسرى غمازة أكثر عمقًا من تلك التى على وجنة أخيه اليمنى.

أصبح الجيران يميزون بينهما جيدًا ولكن بعد دقيقة من التأمل، ومع ذلك وفى أوقات معينة مع حلول الليل أو من مسافة قريبة يخطئ الجميع تقريبًا فى التمييز بينهما، أكثر من ذلك فالتوأم يعرفان أن لهما نفس الصوت، فكان كل منهما يرد عند النداء على الآخر دون أن يشعرا أحدا بهذا الخلط، وحتى "الأب باربو" كان يختلط عليه الأمر أحيانًا، وكما أخبرتهم "الأم ساجيت" كانت الأم وحدها هى التى لا تقع فى ذلك اللبس أبدًا لا فى جوف الليل ولا عند رؤيتهما أو سماعهما عن بعد.

فى الواقع كان الاثنان متساويين، فبينما يتميز "لاندرى" بالبهجة والشجاعة أكثر من أخيه الأكبر نجد الأخير ودودًا ونبيهًا بشكل لا نستطيع معه أن نحبه بدرجة أقل من أخيه الأصغر، وفكر الأبوان جيدًا طوال ثلاثة شهور أن يمنعاهما من أن يعتادا على بعضهما البعض أكثر مما ينبغى. وتعد فترة ثلاثة شهور وقتًا طويلاً فى الريف لمراقبة شىء مخالف للعادة، ولكن من ناحية فإن هذا المنع لم يكن ذا تأثير كبير، ومن ناحية أخرى فإن راعى الكنيسة قال لهم إن "الأم ساجيت" مخرفة وأن قوانين الطبيعة التى وضعها الرب لا يمكن أن يقف ضدها بشر حتى إنهما نسيا تدريجيًا كل ما وعدا

بتنفيذه؛ فالمرة الأولى التى خلعا عن توأمهما ملابسهما الطفولية ليصطحباهما إلى القداس - مرتديين السراويل- ألبساهما من نوع الصوف ذاته، لأنه كان فى الأصل تنورة خاصة بوالدتهما واستخدمتها فى صنع ردائيهما بنفس التفصيلة، لأن خياط المدينة الذى حاكهما لم يكن يعرف غيرها.

وفى سن معينة أصبح لهما ذوق الألوان نفسه، فحين أرادت الخالة "روزيت" تقديم هدية لهما "رابطة عنق" بمناسبة العام الجديد اختارا اللون البنفسجى ذاته من بائع الخردوات المتجول الذى يتنقل ببضاعته من باب إلى باب على ظهر حصانه، وسألتهما الخالة إذا كان اختيارهما بقصد أن يرتديا دائمًا مثل بعض فلم يتردد التوأم كثيرًا فى الإجابة؛ فقال "سيلفنى" إنها كانت الأجمل لونًا ورسمًا بين كل ما وجده مع البائع، ثم أكد "لاندرى" بالتبعية أن باقى ربطات العنق كانت بشعة.

سألهما البائع وهو يبتسم: ما رأيكما فى لون حصانى؟

أجاب "لاندرى": كريه للغاية، مثل عقعق عجوز.

وأضاف "سيلفنى": مقزز مثل عقعق بلا ريش.

وقال البائع عن حق موجهًا كلامه إلى الخالة: كما ترين هذان الطفلان لهما الرأى نفسه، فإذا رأى أحدهما ما هو أصفر على أنه أحمر رأى الآخر بالمثل الأصفر أحمر ولا يجب أبدًا أن نعارضهما،

فمن المعروف أنه حالما نحاول منع التوأم من أن يكونا كبصمتين لنفس الصورة يتحولان إلى أحمقين ولا يعرفان أبدًا ما يقولانه.

قال البائع ذلك لأن ربطات العنق البنفسجية كانت ذات صبغة رديئة وأنه جزل لبيع اثنين منهما مرة واحدة.

طوال الأيام اللاحقة سارت الأمور على المنوال نفسه، فكانا يرتديان زيًا متماثلاً بحيث يخلط الكثيرون بينهما وسواء كان ذلك بدافع مكر الصغار أو بسبب قوانين الطبيعة التى رأى راعى الكنيسة استحالة الوقوف ضدها، فعندما ينكسر كعب حذاء أحدهما يكسر الثانى هو الآخر كعب حذائه لنفس القدم وعندما تتمزق سترة أو قبعة أحدهما يقلد الآخر وبلا تردد التمزيق ذاته لنفس القطعة فنتصور أن الحادثة نفسها وقعت لهما هما الاثنين ثم يطلقان نفس الضحكة أو يتخذان نفس المظهر الوديع بمراءاة حين يسألان عما جرى .

وسواء كان ذلك نعمة أو نقمة فقد ازداد ارتباطهما ببعض بمرور الوقت، وحين تعقل التوأم قليلاً كانا يقولان لبعضهما إنهما لا يتسليان مع الأطفال الآخرين فيما يكون أحدهما غير موجود. وذات مرة حاول الأب اصطحاب أحدهما معه طوال النهار بينما بقى الآخر فى المنزل مع الأم فما زادهما ذلك إلا عبوسًا وبلادة فى أداء العمل حتى بديا مريضين وعندما التقيا مساءً مشيا معًا فى الطرقات مشبكين أيديهما دون أن يرغبا فى العودة إلى المنزل، فهما سعيدان لوجودهما

معًا، كما يريدان أن يعبرا عن استيائهما من والديهما لما سبَّباه لهما من ألم، ولم يحاول أحد بعد ذلك تكرار المحاولة لأنه يجب القول إن الأب والأم والأعمام والخالات وحتى الإخوة والأخوات كان لديهم لهذا التوأم حنان شديد يصل أحيانًا إلى حد الضعف، وكان الأبوان فخورين بتوأمهما فكانا يتلقيان الكثير من الإطراء عليهما، فهما فى الحقيقة ليسا سمجين أو غبيين أو ماكرين.

من وقت إلى آخر كان "الأب باربو" يقلق قليلاً مما قد يصل إليه هذا الاعتياد على وجودهما معًا طوال الوقت عندما يصبحان فى عمر الرجال وحين يتذكر كلام "ساجيت" كان يحاول مضايقتهما بأن يجعلهما يغاران، أحدهما من الآخر فإذا اقترفا غلطة صغيرة كان يشد أذن "سيلفنى" ويقول موجهًا كلامه إلى "لاندرى" هذه المرة سأسامحك أنت لأنك عادة تكون الأكثر تعقلاً، ومع ذلك كان هذا الكلام يعزى "سيلفنى" فى احمرار أذنيه حين يرى أنه قد افتدى أخاه بينما يبكى "لاندرى" وكأنه هو الذى وُجِّه إليه التوبيخ.

وأحيانًا يعطى الأهل أحدهما شيئًا يكون للاثنين رغبة فيه، فإذا كان شيئًا لذيذًا للأكل، تقاسمه الطفلان وإذا كان هذا الشىء لعبة للتسلية أو دمية لعبا بها معًا أو تبادلاها واحدًا تلو الآخر دون التوقف عند "هذه لك" أو "لى" وعندما يوجه الأهل إطراء لأحدهما على سلوكه مظهرين عدم الاكتراث بما يفعله الآخر كان هذا الأخير يشعر

بالسعادة والفخر لرؤية التشجيع والمداعبة لأخيه، بل يشترك هو الآخر فى الإطراء على أخيه ومداعبته.

أخيرًا بدت محاولة الفصل بين روحيهما أو جسديهما بمثابة جهد ضائع وسواء كان ذلك لأن أبويهما لم يرغبا إطلاقًا أن يضايقا طفليهما الغاليين أو لأن ذلك فى مصلحتيهما فقد تركا الأمور تسير كما أرادها الله وأدركا أن تكرار تلك المواقف الساخرة الصغيرة أصبح مثل لعبة لن ينخدع بها التوأم مجددًا.

كان الطفلان فطنين للغاية، فأحيانًا كى يتركا وشأنهما يتظاهران بأنهما يتنازعان أو يتصارعان، ولم يكن ذلك بالطبع إلا بدافع التسلية من جانبهما فيحرصان فى أثناء دورانهما على بعض ألا يسببا لبعضهما أقل ضرر وإذا أظهر بعض المارة الفضوليين دهشتهم عند رؤيتهما مختلفين كانا يختبئان وهما يضحكان سخرية منهم ويُسمَع صوتهما وهما يهذيان ويدندنان كشحرورين صغيرين على فرع شجرة.

وعلى الرغم من هذا التشابه والميل الشديد لبعضهما فإن الله الذى لم يخلق تشابهًا مطلقًا لا فى السماوات ولا فى الأرض أراد ألا يكون لهما المقادير ذاتها، فقد تبين أنهما مخلوقان منفصلان فى فكرتهما عن الرب ومختلفان فى مزاجهما الخاص.

في الحقيقة لا يمكن معرفة الشيء إلا عند تجربته ولكن تلك التجربة جاءت بعد مناوراتهما الأولى، زاد عدد عائلة "الأب باربو" بفضل ابنتيه الكبيرتين اللتين لم تتوقفا عن جلب أطفال جميلة إلى العالم. أما ابنه الأكبر "مارتان" وهو فتى جميل وشجاع فكان في الخدمة العسكرية وكان أصهاره يعملون بجد ولكن لم يكن العمل يزداد بصورة كبيرة، وفي تلك السنوات شهدت البلاد ظروفًا عصيبة سواء بسبب التلفيات التي نتجت عن تقلب الأحوال الجوية أو بسبب اضطراب التجارة، الذي تسبب في خسائر كبيرة لأهل الريف مما اضطر "الأب باربو" – الذي لم يكن ميسورًا بما يكفي ليحتفظ بكل أفراد عائلته معه – إلى التفكير في أن يقوم طفلاه التوأم بالعمل بالأجرة عند الآخرين، فكان الأب "كيلو" الذي يقطن ضيعة "البريش" قد عرض عليه أن يستأجر أحدهما ليرعى ثيرانه لأنه يملك حقولاً واسعة عليه أن يحرثها وكان أبناؤه إما أكبر أو أصغر من أن يؤدوا هذا العمل. وتألمت "الأم باربو" كثيرًا وشعرت بالخوف حين حدَّثها زوجها في الأمر للمرة الأولى، فهي لم تتوقع أن يحدث ذلك يومًا مع توأمها على الرغم من أن القلق لم يفارقها طوال حياتها تجاه حدوث ذلك، ولكن لكونها شديدة الطاعة لزوجها فلم تعرف ماذا تقول له؛ وكان الأب أيضًا من جانبه يتألم كثيرًا وبدأ يجهز للأمر من بعيد، وفي البداية بكى التوأم كثيرًا وقضيا ثلاثة أيام بين الغابة والضواحي فكان لا يراهما أحد إلا في موعد الوجبات وكانا لا يتفوهان بكلمة

لوالديهما، وعند سؤالهما عما إذا كانا يفكران فى تقبل الأمر كانا لا ينبسان بكلمة ولكنهما يفكران كثيرًا حين يكونان معًا.

فى اليوم الأول لم يعرفا إلا البكاء هما الاثنان وظلا يمسكان بذراعى بعضهما كأنهما يخشيان من أن يفصلهما أحد بالقوة ولكن الأب لم يفعل ذلك مطلقًا، فقد كان لديه حكمة الفلاح والتى يشكل نصفها الصبر ونصفها الآخر الثقة فى تأثير الوقت وفى اليوم الثانى رأى التوأم أن الأهل لا يمارسون عليهما أى ضغط وتركوهما يتعقلان وحدهما ومع ذلك خشيا إرادة أبيهما أكثر من أى تهديدات أو عقوبات.

قال "لاندرى": يجب علينا أن نجهز أنفسنا للأمر وأن نعرف من منا سيذهب، فأبوانا تركا لنا الاختيار كما قال "الأب كيلو" إنه لا يستطيع أن يأخذنا معًا.

أجابه "سيلفنى": وما الفرق بين أن أذهب أو أن أبقى ما دمنا فى الحالتين سنفترق؟ فأنا لا أخشى فقط من العيش فى مكان جديد فإذا كنت سأذهب هناك معك فسأتغلب بسهولة على البعد عن منزلنا.

رد "لاندرى": إن الأمر ليس بهذه السهولة، فمن سيبقى منا مع والدينا سيكون لديه ما يعزيه وسيتعذب أقل ممن لن يرى توأمه ولا أباه ولا أمه ولا حديقته ولا حيواناته ولا كل ما تعود على أن يسعد به.

قال "لاندرى" هذا بطريقة حازمة ولكن "سيلفنى" أخذ فى البكاء مرة أخرى فهو لم يكن حازمًا مثل أخيه، وفكرة أن يخسر كل شيء ويترك كل شيء مرة واحدة سببت له من الألم ما لم يستطع معه التوقف عن البكاء.

بكى "لاندرى" هو الآخر ولكن ليس بنفس القدر ولا بنفس الطريقة لأنه دائمًا ما يأخذ على عاتقه النصيب الأكبر من الألم، لذا أراد أن يعرف ما يستطيع أخوه أن يتحمله كى يفتديه ويتحمل هو ما تبقى، فقد فهم جيدًا أن "سيلفنى" كان أكثر خوفًا منه إزاء الإقامة فى مكان غريب والعيش مع أسرة أخرى غير أسرته.

توجه إليه قائلاً: اسمع يا أخى، إذا استطعنا أن نقرر أننا سننفصل فمن الأفضل أن أذهب أنا، فأنت تعى جيدًا أننى أكثر منك تحملاً، وحين تهاجمنا الحمى - وغالبًا ما تأتينا فى الوقت نفسه - تشتد عليك أكثر منى، وهم يقولون إننا قد نموت إذا ترك أحدنا الآخر وأنا لا أعتقد أننى سأموت إذا حدث ذلك ولكننى لا أستطيع الإجابة فيما يخصك، ومن أجل هذا فإنى أحب أن أتركك مع أمنا التى ستواسيك وتعتنى بك، وبالفعل إذا كان هناك فرق فى المعاملة بيننا وهو ما لا يظهر غالبًا بالطبع فإننى أعرف أنه أنت الأحب والأكثر قربًا وتأثيرًا، ابق أنت إذن وسأغادر أنا ولن يكون أحدنا بعيدًا عن الآخر، فأرض "الأب كيلو" تلاصق أرضنا وسيرى أحدنا الآخر كل يوم، كما أننى أحب المشقة وهى التى تلهينى، وبما أننى أجرى أسرع

منك فسآتى لألاقيك حالما أنتهى من نهار العمل، أما أنت فليس لديك بالشىء الكثير لتفعله فستأتى متنزهًا لترانى فى عملى وهكذا سيكون قلقى عليك أقل مما لو كنت أنت من يعيش فى الخارج وأنا فى المنزل. لهذا أطلب منك أن تبقى.

الفصل الثالث

لم يرغب "سيلفنى" أن يستمع إلى شىء من هذا، والحق أن قلبه أكثر رقة من "لاندرى" بالنسبة لأبيه وأمه وأخته الصغيرة "نانيت" ولذا فقد أشفق أن يحمل أخوه الأمر كله على عاتقه.

وبعد مناقشة الأمر طويلاً لجأ التوأم إلى القرعة عن طريق شد العشب من الأرض فوقعت القرعة على "لاندرى" وضاق "سيلفنى" بالنتيجة وأراد تكرار الكَرَّة باستخدام العملة وكانت النتيجة ثلاث مرات لصالحه وكان "لاندرى" هو الذى يجب أن يرحل.

قال "لاندرى": ها قد تأكدت أن القدر أراد ذلك، وعلينا ألا نقف فى وجه القدر

فى اليوم الثالث كان "سيلفنى" لا يزال يبكى بينما توقف "لاندرى" عن البكاء، فقد سببت له فكرة الرحيل للوهلة الأولى ألمًا ربما يفوق ألم أخيه لأنه كان يستشعر أكثر شجاعته كما لم يغب عن وعيه إمكانية مقاومة والديه؛ ولفرط التفكير فى آلامه استطاع التغلب عليها بسرعة أكبر واختار سبيل العقل، أما "سيلفنى" فمن فرط أسفه لم يكن لديه الشجاعة أن يستمع لصوت العقل، وكانت النتيجة هى عزم "لاندرى" الأكيد على الرحيل وعدم تأهب "سيلفنى" لرؤية أخيه وهو يغادر المنزل.

علاوة على ذلك فإن "لاندرى" كان لديه من الاعتزاز بنفسه ما يفوق أخاه وكثيرًا ما قيل لهما إن كلاًّ منهما لن يكون سوى نصف رجل إذا لم يعتادا الفراق، إلا أن "لاندرى" – الذى بدأ يشعر بالزهو لسنواته الأربع عشرة – كان يميل إلى إظهار أنه لم يعد طفلاً. كان دائمًا هو السبَّاق إلى إقناع أخيه وتدريبه منذ المرة الأولى التى بحثا فيها عن عش فى قمة الشجرة وحتى يومهما هذا، لذا فمن الطبيعى أن ينجح هذه المرة أيضًا فى تهدئته وإقناعه، وفى المساء عند عودة "لاندرى" إلى المنزل أوضح لوالده أنه وأخاه سيتحملان الواجب الذى يقع على عاتقهما وأنهما أجريا قرعة وأنه هو الذى سيقوم برعاية ثيران "البريش".

أجلس "الأب باربو" ولديه على ركبتيه رغم كونهما كبيرين ومتعافيين وحدثهما قائلاً:

– ولدىّ، ها أنتما فى سن التعقل، والدليل على ذلك هو مثولكما للأمر الواقع وكم أنا سعيد بذلك، تذكَّرا جيدًا أنه حين يُسعِد الأبناء والديهما فى الأرض فإنهم يسعدون الله فى سماواته الذى يعوضهم يومًا ما، لا أريد أن أعرف من منكما الذى امتثل أولاً فإن الله يعرفه وسيبارك له لأنه تكلم جيدًا كما سيبارك الآخر لأنه أنصت جيدًا.

وبعد ذلك قاد ابنيه إلى والدتهما لتثنى عليهما ولكنها كانت متألمة بشدة وأجهشت ببكاء حار فلم تتفوه بكلمة واكتفت بتقبيلهما.

كان "الأب باربو" على قدر من الذكاء بحيث يعرف جيدًا أيًّا من ولديه يملك القدر الأكبر من الشجاعة وأيهما لديه القدر الأكبر من التعلق بالآخر، ولم يرد مطلقًا أن يضعف من استعداد "سيلفنى" لأنه يعرف أن "لاندرى" حسم أمره وأن الشىء الوحيد الذى يمكن أن يجعله يتردد هو حزن أخيه.

لذا فقد أوقظ "لاندرى" قبل الشروق آخذًا فى اعتباره ألا يهز أخاه الذى يرقد بجانبه.

قال له والده بصوت هامس: هيا يا صغيرى، علينا أن نرحل إلى "البريش" قبل أن تراك والدتك، فأنت تعرف كم هى حزينة ومن الأفضل أن نجنبها ألم الوداع، سأقلك إلى سيدك الجديد وسأحمل حقائبك.

سأل "لاندرى": وأخى، ألن أودعه؟ لن يسامحنى إذا تركته دون أن أنبهه.

- إذا استيقظ أخوك ورآك تغادر سوف يبكى وسيوقظ والدتك التى ستبكى بدورها من ألم فراقك، هيا يا "لاندرى"، فأنت صبى ذو قلب كبير وبالطبع لا تحب أن تسبب الأذى لوالدتك، قم بواجبك على أكمل وجه يا صغيرى؛ ارحل دون أن يظهر عليك شىء، وفى

المساء على الأكثر سأحضر لك أخاك وغدًا الأحد سوف تأتى لرؤية أمك نهارًا.

أطاع "لاندرى" أباه متحاملاً على نفسه وعبر باب المنزل دون أن يلتفت وراءه، ولم تكن "الأم باربو" مستغرقة فى النوم أو هادئة للدرجة التى تمنعها من أن تسمع ما قاله زوجها لـــ"لاندرى" واستشعرت الأم المسكينة منطق زوجها فلم تتحرك واكتفت بإزاحة الستائر قليلاً لترى "لاندرى" وهو يخرج من المنزل وكانت مغمومة لدرجة دفعتها أن تقفز من السرير فقط لتقبله ولكنها توقفت أمام سرير التوأم حيث كان "سيلفنى" لا يزال نائمًا ملء جفونه، فالطفل المسكين ظل يبكى طوال ثلاثة أيام وليالٍ حتي حل عليه التعب كما أصيب ببعض الحمى، فهو يتقلب على وسادته مطلقًا زفرات وتأوهات دون أن يستيقظ.

وبينما كانت "الأم باربو" تنظر إلى "سيلفنى" وتتجه إليه لم تمنع نفسها عن التفكير فى أنه لو كان "سيلفنى" هو الذى رحل لشعرت بالمزيد من الألم، فهو أكثر رقة من أخيه، وقد يرجع ذلك إلى أن أخاه أكثر منه صلابة أو إلى قانون إلهى متعلق بطبيعة البشر، ففى العلاقات الإنسانية أو علاقات الصداقة أو العلاقات العاطفية دائمًا ما يعطى أحد الطرفين قلبه أكثر من الآخر، وكان لدى "الأب باربو" قدر من تفضيل لـــ"لاندرى" لأن هذا الأخير يقدر العمل وقيمة الشجاعة

حق قدرهما أكثر من تقديره للعواطف والمشاعر بينما كان لدى الأم قدر من التفضيل لأكثرهما رقة وتدليلاً لها وهو "سيلفنى".

وها هى تتابع ابنها المسكين وهو فى شدة الذبول والشحوب وهى تقول لنفسها: إنها لرحمة كبيرة أن يظل هو معها وأن "لاندرى" لديه ما يكفى لتحمل الألم، فارتباطه بأخيه التوأم وبوالدته لم يكن للدرجة التى قد تضعه فى خطر المرض، فهو صبى يتمتع بإحساس كبير بالواجب لكن فى الوقت نفسه رأت أنه إن لم يكن قلبه قاسيًا قليلاً لما استطاع أن يغادر دون أن يتردد ودون أن يدير رأسه ودون أن يذرف دمعة بائسة ولما امتلك القدرة ليمشى خطوتين دون أن يرتمى على ركبتيه ويطلب من الله أن يمنحه الشجاعة ويقترب من سريرى - حيث كنت أتظاهر بالنوم - ليلقى فقط علىَّ نظرة وليُقّبل طرف ستائرى، ولكن ابنى "لاندرى" فتى حقيقى لا يطلب إلا أن يعيش ويتحرك ويعمل ويغير مكانه، أما الآخر فقلبه مثل قلب فتاة فى غاية الرقة والحنان حتى لا يستطيع المرء إلا أن يحبه مثل عينيه.

هكذا حادثت "الأم باربو" نفسها وهى متجهة إلى سريرها حيث لم تستطع أن تعاود النوم مطلقًا بينما اصطحب "الأب باربو" "لاندرى" عبر المزارع والمراعى المجاورة لـ"البريش" وحين أصبحا على ارتفاع قليل حيث لا يمكن رؤية مبانى "الكوس" وحيث بدأ الهبوط توقف "لاندرى" واستدار ينظر فى اتجاه المنزل وقد أثقله قلبه فجلس على التبن دون أن يستطيع أن يخطو خطوة واحدة بعد ذلك وتظاهر

والده بعدم ملاحظة ما حدث واستمر فى السير وبعد دقيقة واحدة ناداه برفق قائلاً: ها هو النهار يقترب يا "لاندرى" العزيز. لنسرع إذا أردنا أن نصل قبل شروق الشمس.

وقف "لاندرى" ولما كان قد أقسم على ألا يبكى مطلقًا أمام والده سيطر على دموعه التى ملأت عينيه ثقيلة مثل حبات بازلاء وتظاهر بأن سكينه قد وقع من جيبه ووصل إلى "البريش" دون أن يظهر ألمه الذى لم يكن هينًا رغم ذلك!

الفصل الرابع

لما رأى "الأب كيلو" أنهم أرسلوا من بين التوأم من هو أقوى وأكثر اجتهادًا رحب به كثيرًا عند استقباله، فهو يعرف جيدًا أن قرار الصبى بالانتقال للعيش عنده لم يكن دون حزن لذا ولأنه رجل شجاع وجار صالح وصديق مخلص لـ"الأب باربو" بذل قصارى جهده ليمتدح الصبى الصغير ويشجعه وأعطاه سريعًا الحساء وإبريق النبيذ ليثبّت قلبه، فقد كان من السهل تبيُّن الحزن يلم به. ثم اصطحبه معه ليربط الثيران وعلّمه الطريقة التى سيأخذها بها إلى الحقل، فى الحقيقة لم يكن "لاندرى" مبتدئًا فى هذا الأمر، فوالده يملك زوجين جميلين من الثيران واعتاد هو على ضبطهما وسوقهما بخبرة واضحة، وعلى الفور رأى الصبى ثيران "الأب كيلو" التى كانت الأفضل تنظيمًا والأفضل تغذية والأقوى بنيانًا بين كل سلالات البلدة وشعر بالزهو يداعبه وهو يسوق ماشية بهذا الاكتمال، كما كان سعيدًا لإثباته أنه ليس بالأحمق أو البليد وأنه ليس هناك شىء جديد ليتعلمه، لم ينس والده أن يثمنه ويعلى من قدره، وعندما حانت لحظة الذهاب إلى الحقل جاء كل أبناء "الأب كيلو" صبيانًا وبنات كبارًا وصغارًا لتقبيل الصبى وأحضرت له أصغرهن شريطًا عليه فرع زهرى ليضعه على قبعته لأنه أول يوم له فى العمل ولأنه مثل يوم العيد عند العائلة التى استقبلته، وقبل أن يتركه والده وجه إليه التعليمات فى

حضور سيده الجديد فأوصاه بالرضا بكل شيء وبالاعتناء بالماشية تمامًا كما لو كانت ماشيته.

ومن جانبه وعد "لاندرى" أن يبذل قصارى جهده فى الفلاحة. ففى اليوم نفسه حرث مساحة لا بأس بها بالإضافة إلى مهام أخرى مفيدة قام بها طوال اليوم، وعند عودته كان يشعر بشهية كبيرة للأكل؛ فهى المرة الأولى التى يقوم فيها بعمل شاق كهذا وعادة ما يكون الجهد البدنى العلاج الأمثل للحزن.

لكن هذا الوضع كان أصعب من أن يمر ببساطة على "سيلفنى" المسكين فى "البيسونيير"[*] لأنه يجب القول بأن المنزل والضيعة الخاصة بـ"الأب باربو" الواقعين فى منطقة "الكوس" قد أطلق عليهما هذا الاسم منذ ولادة التوأمين وبعد ذلك وضعت خادمة كانت تعمل فى المنزل فتاتين توأم ولم تعيشا، ولأن الفلاحين عادة ما يطلقون الكثير من الهراء والألقاب أطلقوا على المنزل والضيعة اسم "البيسونيير" أى "مكان التوائم"؛ وحيثما يظهر "سيلفنى" و"لاندرى" يلتف حولهم الأطفال ويصيحون "ها هما توأما البيسونيير!!"

لذا فقد خيم حزن عميق على منزل "الأب باربو" وضيعته فى هذا اليوم وعندما استيقظ "سيلفنى" ولم يجد أخاه بجانبه لم يستطع استيعاب حقيقة الأمر ولكنه لم يتصور أن يغادر "لاندرى" هكذا دون

---

[*] البيسونيير: أى مكان التوائم. (المترجمة)

أن يودعه؛ وكان غاضبًا منه، ووسط حزنه قال محدثًا والدته: ماذا أفعل معه الآن؟ وكيف يمكننى أن أضايقه كما ضايقنى؟ لبيت كل طلباته، ولما وصانى بعدم البكاء أمامك يا أمى الرقيقة تمالكت نفسى رغم أننى كدت أفقد عقلى، لقد وعدنى ألا يرحل دون أن يسمعنى كلمات تشجعنى ودون أن نتناول الإفطار معًا على قمة الـ"شينيفى" حيث اعتدنا أن نتحدث ونمرح، وكنت أريد أن أرتب له حقيبته وأعطيه سكينى الذى هو أفضل من سكينه؛ أنت إذن من رتب حقائبه بالأمس ودون أن تخبرينى وكنت تعلمين أنه سوف يغادر دون أن يودعنى؟

- أجابته "الأم باربو": لقد نفذت رغبة والدك.

وقالت كل ما استطاعت لتواسيه ولكنه رفض الاستماع إلى أى شىء إلا حين رآها تبكى هى الأخرى فأخذ يقبلها ويطلب منها العفو لأنه زاد من ألمها، كما طلب منها أن تبقى معه لتعوّضه عما فقده، ولكنها سريعًا ما تركته لتتفرغ لتنظيف الحظيرة وترتيب الغسيل، أما هو فقد أخذ يجرى فى اتجاه "البريش" دون أن يفكر إلى أين يذهب وترك نفسه للفطرة مثل طائر يبحث عن وليفته دون أن يهتم بالطريق.

وعلى أطراف "البريش" قابل والده الذى كان عائدًا فاصطحبه عائدًا به إلى "الكوس" وهو يقول:

- سنذهب هذا المساء ولكن يجب ألا تعطل أخاك وهو يعمل فهذا لن يعجب سيده كذلك، أما والدتك فتتألم الآن وأعتمد عليك أنت لتواسيها.

الفصل الخامس

عاد "سيلفنى" وظل متعلقًا بتنورة والدته كطفل صغير ولم يتركها أبدًا طوال النهار وظل يحدثها عن "لاندرى" ولا يستطيع أن يمنع نفسه من التفكير فيه مارًا بكل الأماكن والمخابئ التى اعتادا المرور بها معًا، وفى المساء ذهب إلى "البريش" مع والده الذى قبل اصطحابه وكان "سيلفنى" كالمجنون فى رغبته ليقبّل أخاه ولم يتناول عشاءه، فهو يتحرق شوقًا ليذهب وحين وصل إلى هناك حسب "سيلفنى" أن "لاندرى" سيأتى ليقف أمامه تمامًا، وتخيله يجرى لكن "لاندرى" رغم ما به من شوق لم يتحرك خطوة، فقد خشى أن يسخر منه شباب وصبية "البريش" إذا رأوا هذا التعلق بينه وبين توأمه والذى يصل إلى درجة مرضية ورآه "سيلفنى" على الطاولة يشرب ويأكل كما لو كان قد قضى طوال حياته مع عائلة " كيلو".

حين رآه "لاندرى" وهو يدخل وعلى الرغم من أن قلبه قفز من الفرحة – لو لم يكن قد تمالك نفسه لأوقع الطاولة والدكة ليقبله أسرع – فإنه لم يجرؤ لأن سيده وزوجته كانا ينظران إليه بفضول، فهما يجدان متعة فى معرفة شىء جديد عن هذه العلاقة الحميمة والتى تعد ظاهرة من ظواهر الطبيعة كما قال مدرس مدرسة الحى.

وحين ألقى "سيلفنى" بنفسه فوق أخيه مقبلاً إياه وهو يبكى مرتميًا بين أحضانه مثل عصفور يدفع بنفسه داخل العش بجانب أخيه ليدفئه شعر "لاندرى" بالحرج لمتابعة الحاضرين لهما ولكنه لم يمنع نفسه من الشعور بالسعادة لرؤية أخيه، ومع ذلك أراد أن يبدو أكثر تعقلاً من أخيه فكان يشير إليه من وقت لآخر بأن يضبط نفسه وهو ما أغضب "سيلفنى" كثيرًا وأدهشه.

كان "الأب باربو" مسهبًا فى الحديث وهو يحتسى شرابًا مع "الأب كيلو" وخرج التوأم معًا إذ أراد "لاندرى" أن يحتضن أخاه ويداعبه كما اعتادا دون أن يراهما أحد إلا أن الصبية كانوا يراقبونهما من بعيد، وأما الصغيرة "سولانى" وهى أصغر بنات "الأب كيلو" والتى تتصف بالمكر والفضول تتبعتهما بخطوات خفيفة وتصنعت السذاجة كلما انتبها إلى وجودها ولم تكُفّ عن متابعتهما لأنها كانت تعتقد أنها سترى شيئًا فريدًا مع أنها لا تعلم تحديدًا ما الشىء الغريب الذى قد تجده فى علاقة الارتباط بين أخوين توأمين!

كان "سيلفنى" مندهشًا من المظهر الهادئ الذى يبدو على أخيه إلا أنه لم يفكر مطلقًا فى لومه على ذلك، فكم كان سعيدًا لأنه معه، وفى اليوم الثانى شعر "لاندرى" أنه حر طليق فقد أعطاه "الأب كيلو" إجازة من كل الأعمال المكلف بها فغادر المنزل مبكرًا بحيث ظن أنه سيفاجئ أخاه فى فراشه ولكن على الرغم من كون "سيلفنى" الأكثر كسلاً فإنه استيقظ فى اللحظة التى عبر فيها "لاندرى" باب البستان

وركض حافى القدمين إليه كما لو أن شيئًا نبأه بأن توأمه يقترب منه وكان ذلك اليوم بالنسبة لـ"لاندرى" يومًا من السعادة التامة أبهجه كثيرًا، أن يرى عائلته ومنزله ثانية، فمنذ علم أنه لن يعود إليه كل يوم وهو يعتبر يوم الإجازة بمثابة مكافأة له ونسى "سيلفنى" كل ألمه حتى منتصف النهار وفى أثناء وجبة الغذاء قال لنفسه إنه سوف يتناول العشاء مع أخيه ولكن بعد العشاء تذكر أنها ستكون الوجبة الأخيرة لهما معًا فى هذا اليوم، فبدأ يشعر بالضيق والقلق. ظل يعتنى بأخيه ويدلّله من كل قلبه فيعطيه أفضل ما يجده لتناوله من لبابة العيش وقلب السلاطة، ثم بدأ يشعر بالقلق حين رأى ملابس "لاندرى" وحذاءه كما لو كان سيرحل بعيدًا وشعر بالشفقة تجاه أخيه دون أن يشك أنه هو الأجدر بالشفقة لأنه الأكثر حزنًا...

الفصل السادس

مضى الأسبوع على نفس المنوال إذ يذهب "سيلفنى" لرؤية "لاندرى" كل يوم و"لاندرى" يتوقف معه دقيقة أو اثنتين عندما يأتى من جانب "البيسونيير". وبدا "لاندرى" متحملاً لمسئولية قراره، أما "سيلفنى" فلم يتحسن على الإطلاق فكان يعد الأيام والساعات وروحه تتأوه من الألم يومًا بعد يوم.

لم يكن فى العالم كله سوى "لاندرى" الذى يمكن أن يعيد أخاه إلى رشده، لذا لجأت إليه أمه لمطالبته بأن يهدأ لأن شجن الطفل المسكين كان يزداد يومًا بعد يوم، فلم يعد يلعب أو يعمل إلا مجبرًا وكان ينزه أخته الصغيرة لكن دون أن يتحدث إليها أو يفكر كيف يسليها، فكان ينظر إليها فقط ليحميها من السقوط أو من التعرض لأذى وحينما لا تلاحقه الأعين يمشى وحده ويختفى فلا يعرف أحد أين يجده إذ كان يدخل فى كل الشقوق وبين كتل الأشجار وفى المجارى المحفورة وسط التلال حيث اعتاد أن يلعب ويتحادث مع "لاندرى" وكان يجلس فوق جذوع الأشجار التى اعتادا الجلوس عليها، يضع قدميه فى بؤر المياه التى كانا يتعثران فيها مثل بطتين ويشعر بالسعادة إذ يجد بعض قطع الحطب الصغيرة التى قطعها "لاندرى" بمحطبه أو بعض الحصى التى كان يستخدمها "لاندرى"

كرمية أو كحجارة للنار فكان يجمعها ويخبئها فى ثقب شجرة أو أسفل قطعة خشبية مستديرة بغية أن يأتى ليأخذها ويطالعها من وقت إلى آخر كما لو كانت أشياء ثمينة، ودائما ما كان يسترجع ويقلب فى رأسه ليجد كل التذكارات الصغيرة لسعادته المنقضية ولكن دون أن يُظهِر من ذلك شيئًا لمن حوله. أما بالنسبة إليه فكان ما يفعله ويشعر به لهو كل شيء. لم يهتم مطلقًا بالمستقبل، لم يمتلك الشجاعة ليفكر أن ما تبقى من الأيام القادمة سيكون مثل الأيام التى قضاها، لم يكن يفكر إلا فى الماضى ويستغرق فى أحلام يقظة مستمرة.

أحيانًا ما يتخيل أنه يرى أخاه ويسمعه ويحادث نفسه متصورًا أنه يجيبه أو يغفو فى مكانه ويحلم به وحين يستيقظ يبكى إذ يجد نفسه وحده دون أن يسيطر على دموعه أو يمنعها حيث يتمنى لو أن شدة التعب تنهى حزنه وعذابه.

ذات مرة حين شرد بمحاذاة حدود منطقة الـ(شامبو) وجد على المجرى المائى الذى يخرج من الغابة عند سقوط الأمطار- والذى كان فى هذا الوقت جافًا تمامًا تقريبًا - واحدة من هذه الطواحين الصغيرة التى يصنعها الأطفال من الأغصان الصغيرة والتى كانت مركبة بعناية بحيث تلف مع اتجاه سريان المياه وأحيانًا ما تلبث فى مكانها لأوقاتٍ طويلة حتى يكسرها أطفال آخرون أو تجرفها تيارات المياه، أما التى وجدها "سيلفنى" سليمة وكاملة فكانت فى موضعها منذ ما يزيد عن شهرين ولما كان المكان مهجورًا فلم

يرها أحد أو يتلفها وتعرف "سيلفنى" عليها لأنها من صنع أخيه وحين ركبها كانا ينويان أن يأتيا لرؤيتها إلا أنهما لم يفكرا فيها بعد ذلك ومنذ ذلك الحين صنعا طواحين أخرى فى أماكن أخرى.

شعر "سيلفنى" بسعادة بالغة حين وجدها فحملها وأعادها إلى الخلف حيث أخذ المجرى المائى ينزوى ليراها وهى تدور ويتذكر سعادة "لاندرى" عندما رآها تدور للمرة الأولى فى هذا المكان. ثم تركها ليسعد بالعودة إليها مع "لاندرى" الأحد التالى ليريه كيف أن طاحونته قاومت لأنها صلبة وجيدة الصنع.

ولكنه لم يستطع صبرًا فعاد إليها وحده فى اليوم التالى ووجد حافة المجرى المائى مهدمة بفعل أقدام البقر التى جاءت لتشرب حيث يقوم أحدهم برعيها صباحًا فى المنطقة وتقدم قليلاً فرأى أن الماشية قد سارت فوق الطاحونة وهشّمتها تمامًا بحيث لم يجد من آثارها إلا القليل فخفق قلبه وظن أن أخاه قد تعرض لأذى فى هذا اليوم فجرى إلى "البريش" ليتأكد أنه بخير ولكنه كان قد لاحظ من قبل أن "لاندرى" لا يحب أن يأتى إليه "سيلفنى" فى أثناء النهار خشية أن يغضب سيده إذا عطله لذا اكتفى بالنظر إليه من بعيد وهو يعمل دون أن يراه فهو يشعر بالخزى لو أفضى بالفكرة التى جاءت به إلى المكان فعاد دون أن ينبس ببنت شفة ودون أن يتحدث عنها مع أحد إلا بعد مضى وقت طويل.

أصبح "سيلفنى" شاحبًا لا ينام جيدًا ولا يأكل تقريبًا أبدًا وتألمت أمه كثيرًا ولم تدر ماذا تفعل لتواسيه فحاولت أن تصطحبه معها إلى السوق أو ترسله إلى أسواق الماشية مع أبيه وأعمامه ولكنه لم يكن ليهتم بشيء أو ليتسلى بشيء. ومن جانبه حاول "الأب باربو" – دون أن يخبره – إقناع "الأب كيلو" بأن يستأجر التوأم معًا لخدمته ولكن "الأب كيلو" أجابه بما لا يخلو من منطق قائلاً:

– إذا افترضنا أننى استأجرتهما الآن معًا فهذا الوضع لا يمكن أن يستمر لأن العمل عند من هم مثلنا لا يحتاج إلا لفرد واحد ففى آخر العام يتعين عليك أن ترسل أحدهما للعمل فى مكان آخر، ألا ترى معى أنه لو كان "سيلفنى" يعمل فى مكان حيث يجبر على العمل لما فكر كثيرًا وكان ليفعل مثل الآخر الذى اتخذ قراره بشجاعة، سيستسلم للأمر عاجلاً أو آجلاً وليس بالضرورة أن تؤجره فى مكان تريده وإذا سلمنا بأن أطفالك بحاجة إلى أن يبتعد أحدهما عن الآخر ولا يريان أحدهما الآخر إلا كل أسبوع أو كل شهر مرة واحدة، فمن الأفضل أن تبدأ فى تعويدهما على ألا يلتصقا ببعضهما. كن أكثر تعقلاً يا صديقى العجوز ولا تلق بالاً كثيرًا لضعف طفل صغير مدلل من أمه وإخوته. فالجزء الأصعب تم بالفعل وصدقنى أنه سيعتاد على الباقى إذا حافظت أنت على موقفك.

أدرك "الأب باربو" أنه كلما رأى "سيلفنى" أخاه ازداد شوقه لرؤيته ثانية وقد عاهد نفسه أنه فى عيد "القديس جون" التالى سيحاول

إلحاقه بعمل خارج المنزل مثل أخيه ليراه بدرجة أقل فيتطبع فى النهاية على العيش مثل الآخرين ولا يترك نفسه يغرق فى ارتباط قد يتحول إلى حمى أو إلى ذبول، بيد أنه آثر عدم الحديث فى هذا الأمر مع "الأم باربو" لأنها مع الكلمة الأولى كانت تترك لدموعها العنان وتقول إن "سيلفنى" يمكن أن يهلك نفسه وحينئذ كان "الأب باربو" يحتضنها بقوة.

بالنسبة لـ"لاندرى" فقد نصحه أبوه وسيده وحتى أمه كثيرًا ألا يتوقف عن مساعدة أخيه المسكين على التعقل، أما "سيلفنى" فلم ينجح فى المقاومة مطلقًا، كان يعد بكل شىء دون أن يقتنع، فقد آلمه شىء لم يستطع أن يتكلم عنه لأنه لم يعرف كيف يقوله إذ شعر فى صميم قلبه بغيرة شديدة من وضع "لاندرى" الجديد، فالحق أنه كان يسعد أكثر من أى وقت مضى وهو يرى سادة "لاندرى" الجدد يعاملونه بمودة واحترام كما لو كان ابن العائلة، ولكن من ناحية أخرى كان يشعر بالغيرة والغيظ حين يرى "لاندرى" يرد بالمزيد على مودتهم له.

فعند كلمة واحدة أو نداء من "الأب كيلو" - مهما كان النداء هادئًا ورقيقًا - لا يستطيع "لاندرى" إلا أن يجرى إليه تاركًا خلفه أباه وأمه وأخاه إذ كان حريصًا على أداء واجبه دائمًا أكثر من التفاته إلى مشاعره وارتباطه بهم وكان أسرع فى طاعته لسيده بصورة تفوق

قدرة "سيلفنى" على الطاعة عندما يتعلق الأمر بالبقاء بعض الوقت مع شخص يكن له حُبًّا بهذا الإخلاص.

لذا فقد سيطر على عقل "سيلفنى" المسكين قلق جعله يعتقد لاحقًا أنه وحده من يحب أخاه الذى لا يبادله المشاعر بنفس القدر وأن الأمر كان دائمًا بهذا الشكل، ولكن "سيلفنى" لم يدرك ذلك من قبل وأن مشاعر "لاندرى" قد فترت تجاهه حين تعرف على أشخاص آخرين يروقون له أكثر فكان من الطبيعى أن يلاقوا هوى فى نفسه أكثر من "سيلفنى".

الفصل السابع

لم يكن "لاندرى" ليخمن غيرة أخيه لأن طبيعته لم تكن تعرف الغيرة من أى شىء فى الحياة، فحين كان يأتى "سيلفنى" ليراه فى "البريش" كان يصحبه ليسليه ليرى الثيران الكبيرة والبقرات التى تنتمى إلى سلالات جيدة والمحاصيل الوفيرة لأرض "الأب كيلو" المؤجرة لأن "لاندرى" كان يقدر كل الأعمال المتعلقة بالأرض وتربية الحيوانات حق قدرها كما كان يقدر الخير الوفير الكامن فيما يحويه الريف من أشياء إذ يسعده أن يرى أن البقرات التى يصطحبها للمرعى نظيفة وسمينة وتسر الناظرين ولا يحتمل أن يؤدى مهامه إلا بإعطائها الاهتمام والعناية الكافية كما لا يحتمل أن تهمل النباتات التى من الممكن أن تنمو وتزدهر إذا تم الاعتناء بها، وهذا جزء مما منحنا الله من عطايا الطبيعة، أما "سيلفنى" فيطالع كل ذلك بعدم اكتراث ويندهش كثيرًا إذ يجد أخاه يولع بأشياء تبدو له بلا قيمة فقد كان نافرًا من كل شىء وقال لـــ"لاندرى":

- أراك مغرمًا كثيرًا بتلك البقرات السمينة ولم تعد تفكر فى ثيراننا الصغيرة النشيطة الرقيقة التى كانت تخضع لك أكثر من خضوعها لوالدنا عند ربطها ولم تسألنى عن أخبار بقرتنا التى تعطى

أفضل الحليب والتى تطالعنى بنظرة حزينة حين أضع لها الطعام وكأنها تعلم أننى وحدى الآن وكأنها تريد لو تسألنى أين "لاندرى"؟

استطرد "لاندرى" قائلاً: نعم فهى بقرة جيدة ولكن انظر إلى تلك البقرات. سأريك الآن حليبها لن ترى فى حياتك كلها هذا القدر من الحليب ينتج دفعةً واحدة.

أضاف "سيلفنى": ممكن ولكن هل هو بروعة لبن وقشطة "برونيتِ"، أراهن بكل تأكيد أن هذا غير ممكن لأن مراعى "البيسونيير" أفضل بكثير من مراعى المنطقة هنا.

قال "لاندرى": غير صحيح فأنا متأكد أن والدنا سيبادل عن طيب خاطر لو عرضنا عليه مساحات الحشيش الواسعة الخاصة بـــ"الأب كيلو" بمنطقته العشبية الملاصقة للمياه.

رد "سيلفنى" رافعًا كتفيه: فى منطقتنا العشبية أشجار وارفة أكثر من تلك التى لديكم والحشيش – رغم ندرته– جيد وحينما نجمعه تظل رائحة الصمغ تصاحبنا طوال الطريق.

كانا يتجادلان على لا شىء، فـ"لاندرى" يرى أنه لا يوجد أفضل مما لديه، أما "سيلفنى" فلا يفكر فيما لديه بينما يهتم أكثر بما لدى الآخرين ويحتقر كل ما فى "البريش"، و لكن وراء هذا الكلام الفارغ هناك طفل يسعد بالحياة وبالعمل من ناحية دون أن يكترث

بأين وكيف, ومن ناحية أخرى طفل لا يفهم مطلقًا أن أخاه وهو بجانبه يأخذ قسطًا من الراحة والطمأنينة.

وعندما يصطحبه "لاندرى" إلى حديقة سيده كان يحدثه طوال الوقت فإذا توقف ليقطع فرعًا ميتًا من على غصن ملقح أو ليقتلع عشبًا يعرقل المزروعات من الحبوب كان هذا يغضب "سيلفنى" كثيرًا لأنه يعنى – من وجهة نظره– أن "لاندرى" لا ينسى أبدًا التفكير فى تعليمات شخص آخر ومنفعته بدلاً من أن يكون مثله مراقبًا لأقل زفرة أو كلمة تصدر عن أخيه. ولكن "سيلفنى" لم يظهر شيئًا من كل ذلك فهو يستحى من أن يبدو سريع الشعور بالصدمة ولكن قال له وهو يودعه:

– هيا فقد احتملتنى بما يكفى اليوم فربما أثقلت عليك ومن المؤكد أنك عانيت برؤيتى اليوم هنا.

لم يفهم "لاندرى" هذا اللوم وإن آلمه كثيرًا كلام أخيه الذى لا يريد ولا يستطيع أن يعبر عن نفسه.

فإذا كان الطفل المسكين يغار من أقل الأشياء التى تشغل "لاندرى"، فغيرته أشد بكثير حين يتعلق الأمر بالأشخاص الذين يتعلق بهم "لاندرى" كثيرًا فهو لا يحتمل أن يصاحب "لاندرى" أو أن يداعب الصبية فى "البريش" وعندما يراه يبدى اهتمامه بالصغيرة "سولانج"

أو يدللها أو يلاعبها ينتقده لأنه نسى أخته "نانيت" والتى كانت -على حد قوله- أرق ألف مرة وأكثر نظافة ولطفًا من هذه الطفلة القبيحة.

ولكن لما كان يستحيل للمرء أن يتحلى بالعدل حين تأكل قلبه نيران الغيرة فعندما كان يأتى "لاندرى" إلى "البيسونيير" كان يهتم كثيرًا - فى رأى "سيلفنى"- بأخته الصغيرة فلامه لأنه لم يهتم إلا بها وأنه لا يحمل تجاهه سوى الشعور بالملل والضجر.

فى النهاية أصبح حب "سيلفنى" قاسيًا ومتشددًا ومزاجه كئيبًا حتى عانى منه "لاندرى" وأصبح لا يسعده أن يراه كثيرًا، فقد أتعبه أن يكون محل لوم طوال الوقت لأنه تقبل قدره ورضى به وبدا الأمر كما لو أن "سيلفنى" سيصبح أقل تعاسة إذا أصبح أخوه تعيسًا مثله وفهم "لاندرى" وود لو يفهم أخوه أن الارتباط بينهما إن زاد إلى هذا الحد تحول إلى أذى.

لم يكن " سيلفنى" يريد أن يستمع إلى شىء من هذا، بل يرى أن مجرد قوله يعد قسوة شديدة من أخيه فكان يبدى استياءه له من وقت إلى آخر ويقضى أسابيع كاملة دون أن يذهب إلى "البريش" رغم رغبته الجارفة فى أن يذهب ولكنه يقاوم ذلك مصدرًا كبرياءه فى شىء لا يستدعى أن يقحم فيه كبرياءه على الإطلاق.

ومن كلام إلى كلام ومن شجار إلى شجار وصل الأمر بـــ"سيلفنى" إلى أن يسىء الظن دائما بكل ما يقوله "لاندرى" بحكمة

وأمانة بهدف أن يعيده إلى صوابه وسيطر على "سيلفنى" المسكين الغيظ حتى كان فى كثير من الأوقات يشعر بالكراهية تجاه الشخص الذى طالما أحبه لدرجة أنه فى يوم من أيام الآحاد ترك المنزل حتى لا يقضى النهار مع أخيه، الذى لم يتغيب مرة واحدة عن الزيارة على الرغم من ذلك.

هذا السلوك البغيض أحزن "لاندرى" كثيرًا، فهو يحب البهجة والصخب ومع مرور الأيام أصبح أكثر قوة وتحررًا وكان دائمًا الفائز فى كل الألعاب التى يشارك فيها أقرانه إذ كان نافذ القامة والنظرة ولذا كان ما يفعله من أجل أخيه لهو نوع من التضحية حين يترك الصبية المرحين فى "البريش" كل يوم أحد ليقضى اليوم فى "البيسونيير" حيث لا يجوز له أبدًا أن يدعو "سيلفنى" ليلعبا فى ساحة "الكوس"، ولا أن يتنزها هنا أو هناك، فقد ظل "سيلفنى" طفلاً فى هيئته وفى طريقة تفكيره أكثر من أخيه بكثير ولم يكن يفهم سوى شيء واحد وهو أن يحب أخاه وحده وبالمثل على أخيه ألا يحب أحدًا غيره، فهو يريد أن يذهب وحده مع أخيه فى أماكنهما المأثورة– كما يسميها هو– فى المخابئ حيث اعتادا أن يتسليا بألعاب لم تعد تناسب عمرهما، كأن يصنعا عربة نقل بضائع صغيرة من فروع الصفصاف أو طواحين هواء لعبة أو عش عصافير وكذلك بعض المنازل من الحصى أو حقول واسعة من مناديل الجيب التى يتظاهر الأطفال بحرثها بطرق عدة مقلدين بطريقتهم الطفولية ما يرونه من حرث

الأرض وبذر البذور وتمشيط الحقل والحصاد وهم يعلِّمون بعضهم البعض فى ساعة زمن كل الأساليب والزراعات والمحاصيل التى تعطيها الأرض طوال السنة.

تلك الألعاب لم تعد تستهوى "لاندرى" لأنه أضحى يمارس تلك الأعمال أو يشارك فى تنفيذها بشكلها الحقيقى والكبير، فهو يفضل أن يقود عربة نقل حقيقية يجرها ستة ثيران على أن يربط عربة صغيرة من أغصان الشجر فى ذيل كلب صغير وكذا تمنى أن يذهب ليلعب مع الصبية الأشداء فى منطقته بالعصىِّ الطوال ويرى نفسه وقد أضحى قادرًا على أن يرفع كرة ثقيلة ويقذف بها فتتدحرج ما يقرب من ثلاثين خطوة وحين وافق "سيلفنى" على أن يصاحبه لم يلعب ولكنه جلس جنبًا دون أن ينطق بكلمة متأهبًا دائمًا للشعور بالضجر أو بالألم إذا ظهر على "لاندرى" الحماس أو الاستمتاع باللعبة.

وفى "البريش" تعلَّم "لاندرى" الرقص وعلى الرغم من أن ذلك جاء متأخرًا -لأن "سيلفنى" لم يكن يحب الرقص - فمارسه بمهارة أولئك الذين تعلموه مع تعلمهم المشى فأصبح راقصًا قديرًا لرقصة البوريه(*) فى "البريش" وعلى الرغم من أنه لم يكن بعد ليشعر بسعادة عند تقبيله الفتيات كما هى العادة عند الرقص فإنه فرح لأن ذلك يخرجه - ظاهريًا فقط - من مرحلة الطفولة كما ود لو أنهن قبَّلنه

(*) البوريه: رقصة شعبية ريفية. (المترجمة)

كما يقبّلن الرجال الكبار لكنهن لم يفعلن ذلك مطلقًا، على العكس فإن أكبرهن سناً كن يمسكنه من رقبته وهن يضحكن وهو ما كان يضايقه قليلاً.

رآه "سيلفنى" مرة وهو يرقص وكان ذلك سببًا فى مشاجرات عنيفة بينهما إذ سيطر عليه غضب عارم لرؤيته يقبّل واحدة من فتيات "الأب كيلو" لدرجة أنه بكى من فرط شعوره بالغيرة كما وصف سلوك "لاندرى" بأنه غير محترم وبعيد عن التدين.

لذلك فكل مرة كان "سيلفنى" يضحّى فيها بلهوه ولعبه من أجل ارتباط أخيه به كان يقضى يوم الأحد فى كدر وضيق ومع ذلك لم يُفوّت مرة دون أن يذهب مقدرًا رغبة أخيه دون أن يندم أو يشعر بالضجر من فكرة أن يمنح السعادة لأخيه.

ذات مرة افتعل "سيلفنى" مشادة خلال الأسبوع وحين ذهب "لاندرى" إلى "البيسونيير" يوم الأحد وجد أن أخاه قد ترك المنزل كى لا يتصالح معه فألمَّ به حزن عميق وللمرة الأولى منذ أن ترك عائلته بكى بدموع ثقيلة فذهب ليتوارى عن أعين والديه كعادته إذ يستحى أن يظهر حزنه أمامهما خشية أن يزيد همومهما.

فإذا كان لأحدهما أن يشعر بالغيرة، فإن "لاندرى" أحق بذلك أكثر من "سيلفنى" بكثير. فأمهما تحب "سيلفنى" أكثر, وأبوهما – رغم تفضيله "لاندرى"– يظهر من المراعاة والمجاملة لـ"سيلفنى" أكثر من

أخيه، فهذا الطفل المسكين هو الأضعف والأقل تعقلاً وهو أيضًا أكثر تدليلاً ودائمًا ما يخشى الجميع أن يؤلموه وقد حظى بالقدر الأهون من الألم لأنه ظل وسط العائلة أما توأمه فقد تحمل البعاد والألم بدلاً منه.

للمرة الأولى فكر "لاندرى" الطيب ووجد أن أخاه ظالم فى حكمه، فحتى هذه اللحظة كان قلبه الطيب يمنعه من أن يدينه أو يتهمه. فقد أدان نفسه لأنه يحظى بالقدر الموفور من الصحة ومن الحماس فى العمل وفى السعادة ولأنه لا يعرف كيف يقول كلامًا لطيفًا ولا أن يعطى كثيرًا من الاهتمام الرقيق مثل أخيه ولكن فى هذه المرة لم يقترف أى ذنب فى حق أخيه لأنه كى يتمكن من المجىء فى هذا اليوم تخلى عن مباراة لصيد السرطانات مقاومًا رغبته الشديدة فى ذلك وهو شىء كبير لمن فى مثل عمره وبعد أن بكى توقف ليسمع أحدًا ما يبكى غير بعيد عنه ويحادث نفسه كما هى عادة نساء الريف حين يقاسين من حزن شديد وتبين "لاندرى" سريعًا أنها أمه فجرى إليها.

قالت وهى تبكى: وا أسفاه يا إلهى؛ لماذا يصيبنى هذا الطفل بكل هذا الهم؟ سيقتلنى بالتأكيد.

تعجب "لاندرى" ملقيًا بنفسه على رقبتها: أهو أنا يا أماه من زاد همك؟ إذا كنت أنا فعاقبينى كما تشاءين ولا تبكى أبدًا. أنا لا

أعرف ماذا أغضبك منى ولكننى أطلب منك العفو على الرغم من ذلك.

فى هذه اللحظة أيقنت الأم أن قلب "لاندرى" لم يكن بالقسوة التى تخيلتها فقبلته بقوة ودون أن تميز ما تفوهت به تحديدًا لأنها متألمة للغاية أخبرته أنه "سيلفنى" وليس هو الذى تشتكى منه، أما هو فكانت تساورها أحيانًا فكرة خاطئة عنه ولكنها صحَّحتها، بيد أن "سيلفنى" يبدو لها مجنونًا وتشعر بقلق كبير عليه لأنه غادر دون أن يأكل شيئًا قبل طلوع النهار وها هى الشمس بدأت فى الغروب دون أن يعود وقد شاهده أحدهم فى منتصف النهار على حافة نهر "الريفييرا" وأخيرًا فإنها تخشى أن يكون قد ألقى بنفسه فيه لينهى حياته.

الفصل الثامن

انتقلت فكرة رغبة "سيلفنى" فى إنهاء حياته من عقل الأم إلى عقل "لاندرى" بيسر كذبابة تخترق عش عنكبوت فكرس نفسه للبحث الدءوب عن أخيه محملاً بحزن عميق وهو يجرى هنا وهناك وقال محدثًا نفسه: "قد تكون أمى محقة إذ لامتنى لأن قلبى قاس إلا أن "سيلفنى" لا بد وأنه أكثر قسوة ليسبب كل هذا الألم لأمى ولى". وجرى فى كل الاتجاهات دون أن يجده وناداه ولم يجب "سيلفنى" وسأل عنه كل من قابله ولم يعطه أحد أخبارًا، وفى النهاية وجد نفسه بمحاذاة مراعى المنطقة العشبية فدخلها لأنه تذكر أن بداخلها مكان يحبه "سيلفنى" كثيرًا وهو عبارة عن مسيل مائى كبير شقه النهر فى وسط الأراضى مقتلعًا فى طريقه شجرتين أو ثلاثًا من شجر الصفصاف والتى ظلت كما هى فى وسط الماء وجذورها فى الهواءِ حيث لم يرد "الأب باربو" إخراجها وتركها على حالتها لأنه مع سقوطها كانت لا تزال تحتفظ بالطمى الملتصق بجذورها على شكل كرات كبيرة وهو ما يمكن أن يكون مفيدًا إذا عرفنا أن تيار المياه يسبب فى كل موسم شتاء الكثير من الخسائر فى مراعيه العشبية حيث تلتهم المياه منها جزءًا فى كل عام فيعوض هذا الطمى ما فقدته المراعى.

اقترب "لاندرى" من المسيل المائى وهكذا كان قد اعتاد هو وأخوه على تسمية هذا الجزء من المراعى ولم يضيّع الوقت فى الدوران حوله كى يصل إلى الركن الذى صنعا فيه سلَّمًا صغيرًا من العشب الأخضر المرتكز على صخور وعلى جذور كبيرة خرجت من التربة وتكلست فقفز من أعلى نقطة استطاع الوصول إليها ليصل بسرعة إلى نهاية المسيل فقد كان بمحاذاة حافة المياه الكثير من أفرع الأشجار الجافة والعشب الذى يزيد طوله عن قامته حتى إنه إذا كان أخوه فى هذا المكان فلن يستطيع أن يراه إلا إذا وصل إلى داخلها بالفعل.

دخل إليها "لاندرى" وهو فى حالة قلق عارم، فقد سيطر على عقله ما قالته أمه وهو أن "سيلفنى" يريد أن ينهى حياته و مر فوق أوراق الشجر وكسر كل الأعشاب مناديًا على "سيلفنى" وعلى كلبه الذى تبعه بلا شك لأن أحدًا لم يره طوال اليوم فى المنزل تمامًا مثل سيده الصغير.

ولكن "لاندرى" بحث جيدًا ونادى كثيرًا على "سيلفنى" ولكنه ظل وحيدًا وسط المرعى ولما كان "لاندرى" دائمًا صبيًا ينفذ الأشياء على أكمل وجه ويتوجه دائمًا لكل ما يمكن أن يمثل هدفًا له فقد تفقد كل الضفاف عسى أن يجد آثار أقدام أو آثار تهدم حديثة فى أجزاء

معينة من الأرض لم يعتد رؤيتها من قبل. كان البحث مضنيًا ومربكًا في الوقت نفسه فقد مضى شهر كامل على آخر مرة رأى فيها هذا المكان وقد كان يعرفه جيدًا كما يعرف كف يده ولكن هذا لا يمنع وجود تغييرات بسيطة طرأت عليه فكان العشب ممتدًا وبمحاذاة الضفة وطوال منتصف المسيل المائى (الشق) وكانت النباتات العشبية التى تنمو فى المياه كثيفة ومتلاصقة بحيث لا نستطيع تبين موقع قدم كى يبحث فيه عن أثر خطوة أخيه وفى أثناء بحثه جيئة وذهابًا وجد "لاندرى" موطئ جسد كلب ومكانًا به أعشاب مدهوسه كأن "فينو" أو كلبًا آخر فى نفس حجمه كان يرقد عليها متكورًا.

دفعه ذلك إلى أن يفكر مليًا فراح يتفقد ثانية حافة النهر وهُيئ له أنه لمح تهدمًا حديثًا عند حافة النهر كأن أحدًا قد سببه وهو يقفز أو ينزلق، وعلى الرغم من أنه لم يكن واضحًا لأنه من الممكن أن يكون قد سببه أيضًا أحد فئران الحقول الكبيرة التى تخرب وتكسر وتقرض على نفس المنوال فى أماكن أخرى فقد سبب له شعورًا كبيرًا بخيبة الأمل فخانته قدماه وسقط على ركبتيه كأنه يتضرع إلى الله.

ظل على حاله بعض الوقت فلم يكن يملك لا القدرة ولا الشجاعة ليذهب ويفضى لأحدهم بما يجيش فى صدره وكان ينظر إلى النهر وعيناه مثقلتان بالدمع وكأنه يحاسبه على ما فعله بأخيه وأمامه النهر ينساب بهدوء مختلجًا على أفرع الأشجار التى تتدلى فى

مياهه يسقى الضفاف بطولها ويكمل طريقه فى الأراضى محدثًا جلبة خفيفة كأن أحدهم يضحك بصوت خفيض.

استسلم "لاندرى" المسكين لفكرته البائسة التى أفقدته عقله وجعلته – بدرجة ما وإن كانت غير واضحة- يقنط من رحمة الله.

قال "لاندرى" فى نفسه: "ذلك النهر الماكر الذى لا يتفوه بكلمة وإذا ما بكيت أمامه سنة كاملة لن يعيد إلىَّ أخى وها هى النقطة التى تعد أعمق جزء فيه وقد أوقع فيها عددًا كبيرًا من الأشجار منذ الوقت الذى دمر فيه المراعى وإذا دخله أحد لن يستطيع أن يخرج منه أبدًا. إلهى هل يمكن أن يكون توأمى المسكين هنا فى أعماق المياه يرقد على بعد خطوتين منى دون أن أراه أو أجده بين أفرع الشجر أو بين منابع المياه حتى إذا حاولت أن أنزل إليها!"

هنا أخذ "لاندرى" يبكى أخاه ويوجه له اللوم فقد كان يشعر بحزن لم يعانِ مثله فى حياته.

أخيرًا جاءته فكرة أن يذهب ليستشير أرملة تدعى "الأم فادية"، التى تقيم فى نهاية المرعى، على جانب الطريق الذى ينحدر من المعبر.

تلك السيدة التى لا تملك من الأرض أو أى أملاك أخرى سوى حديقتها الصغيرة وبيتها الصغير لا تبحث على الرغم من ذلك عن الرزق فهى بسبب ما تملكه من خبرة ومعرفه بكل الآلام

والخسائر التى تسببها الحياة يأتى إليها الناس من كل حدب وصوب لاستشارتها.

فهى تفكر فى "السر" أى كما يقال تستطيع أن تشفى الجروح والالتواءات والتشوهات الأخرى عن طريق السر كذلك فإنها تعتمد أحيانًا على الوهم فتراها تشفى آلامًا لم تكن موجودة أصلاً مثل إزالة تصلب المعدة واضطراب جدار البطن وأما أنا فلم أؤمن بهذه الأحداث ولم أصدق كثيرًا ما يقولونه عنها من قدرة على تمرير اللبن من بقرة بصحة جيدة إلى أخرى معتلة وعجوز ولم تتغذ بصورة جيدة.

لكن فيما يتعلق بالعلاجات التى تعرفها وتشفى بها برد الجسم أى ما نسميه "دام" أو بالنسبة للقطع اللاصقة التى تضعها على الشقوق أو الحروق وكذلك الشراب الذى تعده لمقاومة الحمى فالمؤكد أنها تكسب أموالاً من ورائها أو أنها شفت كذلك عددًا من المرضى كان من الممكن أن يموت إذا استعان بعلاج الأطباء، على الأقل هى تقول ذلك وبالنسبة لهولاء الذين أنقذتهم فإنهم يميلون كثيرًا إلى الاعتقاد بأنهم يخاطرون بالاستعانة بدواء الأطباء.

وكما هى العادة فى الريف لا يمكن لإنسان أن يمتلك قدرًا كبيرًا من المعرفة دون أن يوصف بأنه ساحر أو مشعوذ ويعتقد كثيرون فى أن "الأم فادية" تعرف أكثر مما تريد أن تقول وبعضهم

يصفها بأنها تستطيع أن تستعيد الأشياء المفقودة وحتى الأشخاص وأخيرًا يقال إن لديها من الفكر والتعقل ما يساعدك على الخروج من الألم فى كثير من الأمور الممكنة وكذلك من الممكن أن تساعدك فى أمور أخرى غير ممكنة.

ولأن الأطفال يستمعون عن طيب خاطر لكل أنواع الحكايات استمع "لاندرى" إلى الرواية فى "البريش" حيث الناس أكثر سذاجة وبساطة من "الكوس" وأن "للأم فادية" طريقة فى البحث عن الأشخاص المفقودين بأن تلقى بعض الحبوب على الماء وتردد بعض الكلمات فتجد جسد شخص غارقًا إذ تطفو الحبوب وتنساب بطول المياه وحيث تتوقف عن الجريان يكون الجسد البائس واعتقد الكثيرون أن للخبز المقدس نفس الفضيلة و لم يعد هناك طواحين قط يحتفظ فيها دائمًا بهذا الخبز المقدس لتأدية هذا الغرض وتحريك الحبوب على المياه ولكن "لاندرى" لم يكن لديه أى خبز و"الأم فادية" تقيم بجانب المرعى والحزن الشديد يبعد الإنسان عن التعقل.

قطع "لاندرى" الطريق حتى مكان إقامة "الأم فادية" جريًا ليحكى لها عن ألمه ويتوسل إليها لتأتى معه إلى المسيل المائى لتحاول بسرها أن تساعده في أن يجد أخاه حيًا أو ميتًا لكن "الأم فادية" والتى لا تحب أبدًا أن ترى أحدًا لا يأخذ فى الاعتبار شهرتها والتى -عادةً- لا تميل إلى استخدام مواهبها دون فائدة سخرت منه وطردته بعنف شديد، فهى لم تكن سعيدة لأن فى الماضى كان الناس

فى "البيسونبير" يلجأون لـ"الأم ساجيت" بدلاً منها فيما يخص النساء اللاتى لا ينجبن.

كان من الممكن لـ"لاندرى" - الذى كان متفاخرًا بطبيعته- أن يتذمر أو يغضب لو حدث ذلك فى وقت آخر ولكنه كان منهك القوى والروح بحيث لم يستطع أن يتفوه بكلمة فاستدار من عندها وسار بمحاذاة المسيل المائى متخذاً قراره بالنزول بنفسه فى الماء مع أنه لا يجيد الغطس ولا السباحة لكن ومع أنه يسير مطرقًا رأسه، وعيناه مركزتان على الأرض شعر بشخص يخبط على كتفه واستدار فوجد حفيدة "الأم فادية" والتى يسمونها فى البلد "فاديت الصغيرة" وترجع هذه التسمية إلى اسم عائلتها وبنفس القدر إلى رغبة الناس فى أن تصبح هى الأخرى ساحرة، فأنتم تعرفون كلكم أن فادية أو المصروعة (التى لا تستقر أبدًا)، أو ما نطلق عليه فى أماكن أخرى اسم "فوليه" هى عفاريت ودودة للغاية ولكنها ماكرة قليلاً ونطلق أيضًا تسمية "فاد" على الجنيات التى لا نصدق نحن فى منطقتنا فى وجودها ولكن هذا الاسم يعنى جنية صغيرة أو أنثى العفريت فكل من يرى هذه الفتاة يتصور أنه يرى شخصًا معتوهًا، فهى صغيرة ونحيفة ومشعثة الرأس ووقحة وكانت تتحدث كثيرًا عن كل شىء وتسخر كثيرًا فهى نشيطة مثل فراشة وفضولية مثل أبو الحناء وسمراء مثل صرصار الليل.

حين توضع "فاديت الصغيرة" فى مقارنة مع صرصار الليل فهذا يعنى أنها لم تكن جميلة لأن صرصار الليل فى الحقول يكون أكثر قبحًا من مثيله الذى يعيش فى المدفأة ومع ذلك فإذا تذكرت أنك كنت طفلاً وأنك تلعب معه وتغيظه أو تجعله يصرخ فيجب عليك أن تعرف أن له وجهًا ينطق بالغباء فيثير الضحك أكثر من الغضب وكذلك فأطفال" الكوس" ليسوا أكثر غباء من أقرانهم وقد لاحظوا مثل غيرهم التشابه وأوجدوا نفس المقارنات فأطلقوا على الفتاة "فاديت الصغيرة صرصار الليل" وذلك عندما يريدون أن يغيظوها وأحيانًا بدافع من المودة لأنهم قد يكرهونها قليلاً بسبب خبثها لكن دون أن يحتقروها أبدًا لأنها تحكى لهم كل الحكايات التى لا يعرفونها ودائمًا ما تعلمهم ألعابًا جديدة لأنها تملك عقلية خلاقة.

أنستنى كل هذه الأسماء والتسميات الاسم الذى سميت به "فاديت الصغيرة" عند التعميد والذى قد تتملككم الرغبة فيما بعد لمعرفته وهو "فرانسواز" ولهذا السبب فإن جدتها التى لا تحب تغيير الأسماء كانت تطلق عليها "فونشون".

ولما كان هناك منذ زمن بعيد خلاف بين الناس فى "البيسونيير" وبين "الأم فادية"، فإن التوأم "لاندرى وسيلفنى" اعتادا ألا يتكلما كثيرًا مع "فاديت الصغيرة"، بل كان هناك نوع من التباعد بينهم ولم يرغبا أبدًا فى اللعب معها ولا مع أخيها الأصغر "النطاط" والذى كان أكثر نحافة وأكثر لؤمًا منها ومنتبهًا لنفسه يغضب كثيرًا

إذا جرت أخته دون أن تنتظره محاولاً أن يرميها بالحجارة إذا سخرت منه ويغتاظ لأنه لم يكن طويلاً، أما هى فكانت ذات طبع مرح وتضحك على كل شيء ولكن كانت هناك دائمًا فكرة فيما يتعلق بـــ"الأم فادية" فالبعض يرى - وبخاصة عائلة "الأب باربو"- أن إقامة صداقة مع "صرصار الليل" و"النطاط" ستحمل لهم النحس ولكن هذا لم يمنع طفلى "الأم فادية" من الحديث معهم، لأنهما لم يكونا خجولين و"فاديت الصغيرة "لم يفوتها أن تتقرب من توأمى "البيسونيير" بكل الوسائل الطريفة والعبثية من أبعد نقطة تراهما فيها وهما يقتربان فى اتجاهها.

الفصل التاسع

استدار "لاندرى" باديًا عليه الضيق من الضربة التى تلقاها لتوه على كتفه فرأى "فاديت الصغيرة" وخلفها بقليل "جانيه النطاط" الذى يتبعها وهو يعرج، فهو أعرج منذ ميلاده.

فى البداية أراد "لاندرى" ألا يعيرهما اهتمامًا وأكمل طريقه فلم يكن فى حالة مزاجية تسمح له بالمزاح والضحك ولكن "فاديت" قالت له وهى تخبطه على كتفه الثانى:

- ها هو نصف التوأم، بل نصف الصبى الذى فقد نصفه الآخر.

على الفور استدار "لاندرى" الذى لم يكن يشعر بأنها تهينه بل تعاكسه ومد خطوته إلى "فاديت" موجهًا لها ضربة من قبضته كانت لتؤلمها لو لم تتفادها، فالصبى عمره خمس عشرة سنة وكان ماهرًا بما يكفى أما هى فعمرها أربع عشرة سنة ورشيقة وضئيلة كأنها لم تتعد الاثنى عشر عامًا وعند رؤيتها تظنها ستتكسر من لمسة صغيرة إلا أنها كانت حذرة ومنتبهة لتتوقع الضربات وما خسرته من قوة فى ألعاب الأيدى كسبته فى السرعة ومهارة الخداع، فقد قفزت جانبًا بحيث رشقت قبضة "لاندرى" وأنفه فى الشجرة الضخمة التى تفصل بينهما.

قال لها الصبى المسكين والغضب يملؤه: أيتها الحشرة اللعينة، من المؤكد أنك بلا قلب لتأتى وتغيظى من يأكله الحزن العميق مثلى فمنذ وقت طويل وأنت تطاردينني بكلمة "نصف صبى" لتجرحينى بها وأنا الآن تملؤنى الرغبة فى أن أكسرك أربعة أجزاء أنت وأخاك "النطاط" القبيح لنرى ما إذا كان سيتبقى من أى منكما جزء له قيمة.

وأجابت "فاديت الصغيرة" وهى تضحك هزئة طوال الوقت: آه أيها الصبى المؤدب!! سيد المنطقة العشبية المطلة على النهر!! كم أنت أحمق لتعاملنى بفظاظة وأنا التى أتيت لأنبئك بأخبار أخيك ولأعرفك أين تجده.

أجابها "لاندرى" على الفور مهدئًا من حدته: هذا أمر مختلف يا "فاديت"، إذا كنت تعرفين مكانه أخبرينى وسأكون شاكرًا لك.

وأجابته الفتاة الصغيرة: لم يعد هناك "فاديت" لتكون لديها الرغبة فى إسعادك بل هناك "الحشرة"، لقد وجهت إلىَّ الإهانات وأردت أن تضربنى لولا أنك ثقيل ومرتبك... ابحث بمفردك عن توأمك (المعلق بك) فأنت ماهر بما يكفى لتجده.

قال لها "لاندرى" مديرًا لها ظهره ومبتعدًا: من المؤكد أننى أحمق لأستمع إليك أيتها الفتاة اللعينة، أنت لا تعرفين أكثر مما أعرفه عن مكان أخى فأنت مثل جدتك تلك العجوز الكاذبة التى لا تساوى شيئًا.

ولكن "فاديت الصغيرة" التى كانت تجر "النطاط" بقدمها والذى كان قد نجح هو فى اللحاق بها و التعلق بجونلتها القبيحة الملطخة بالرماد أسرعت لتلحق بـــ"لاندرى" وهى تضحك بسخرية طوال الوقت وتلاحقه بكلامها الثقيل وأنه لن يستطيع بدونها أبدًا أن يجد أخاه لم يستطع "لاندرى" أن يتخلص منها وتخيل أنه بالاستعانة ببعض السحر قد تستطيع جدتها أو تستطيع هى نفسها عن طريق علاقة ما مع جنية النهر أن تمنعه من أن يجد "سيلفنى" فحسم أمره بأن يتوقف عن البحث فى المنطقة العشبية وأن يعود إلى المنزل.

تبعته "فاديت الصغيرة" حتى النهاية وهناك حين بدأ ينزل حطت هى على الحاجز كطائر وحدثته بصوت مرتفع.

- الوداع إذن أيها الصبى بلا قلب الذى تخلى عن أخيه، فمهما انتظرته لتتناول معه العشاء لن تراه اليوم كما لن تراه غدًا لأنه هناك حيث يرقد لا يستطيع الحركة كحجر مسكين وها هى العاصفة تهب وسيكون هناك كثير من الأشجار فى النهر هذه الليلة وسيحمل النهر "سيلفنى" بعيدًا، بعيدًا بحيث يصبح من المستحيل أن تعثر عليه.

كل هذه العبارات الثقيلة التى سمعها "لاندرى" رغمًا عنه جعلت العرق البارد يتصبب من كل أجزاء جسده على الرغم من أنه لم يصدق ذلك مطلقًا من قبل، فإن عائلة "فادية" كانت مشهورة بعلاقتها بالجن فلم يستطع أن يتجاهل ذلك أو أن يعتبره بلا معنى.

قال "لاندرى" وهو يتوقف: إذن "فونشون" هل تتركيننى فى هدوء أم ستخبريننى إذا كنتِ بالفعل تعرفين شيئًا عن أخى؟

قالت "فاديت" وهى تقف منتصبة على الحاجز وتهز ذراعيها كما لو كانت تريد الطيران: وماذا ستعطينى فى المقابل إذا مكنتك من العثور عليه قبل سقوط الأمطار؟

لم يكن "لاندرى" يعرف بأى شىء يعدها وفى البداية اعتقد أنها تريد أن تساومه لتأخذ منه بعض المال ولكن الرياح التى بدأت تهب بين الأشجار والعاصفة التى أخذت تهدر جعلت وجهه يمتقع كأنما ألمَّت به حمى من الخوف ولم تكن العاصفة نفسها هى التى تخيفه ولكن لأن هذه العاصفة جاءت فجأة وبطريقة لم تبد له طبيعية، من الممكن أن "لاندرى" وهو فى دوامة عذابه لم ير العاصفة وهى ترتفع وراء أشجار النهر ولا سيما أنه لبث لأكثر من ساعتين فى أعماق الوادى ولم تتكشف له السماء إلا حين وصل إلى قمته، ولكن فى الحقيقة إنه لم ينتبه إلى العاصفة إلا فى اللحظة التى أنبأته عنها "فاديت الصغيرة" التى سريعًا ما انتفخت جونلتها بالهواء وانفلت شعرها الأسود الأشعث من أسفل طاقيتها المثبتة بإهمال فوق أذنيها فكان منتصبًا مثل العرف وكذا "النطاط" الذى طارت طاقيته بفعل الرياح، أما "لاندرى" فبالكاد استطاع أن يمنع طاقيته من الطيران هى الأخرى.

ثم تحولت السماء إلى السواد التام فى أقل من دقيقتين وبدت له "فاديت" – التى لا تزال واقفة على الحاجز– أطول مرتين من طبيعتها، وفى نهاية الأمر شعر "لاندرى" بالخوف وكان لا بد من الاعتراف بذلك.

قال لها: "فونشون" أنا أسلم نفسى لك إذا أعدت أخى لى فربما رأيته وقد تعلمين جيدًا أين هو. كونى فتاة طيبة، فأنا لا أدرى أى متعة تجدين فى تعذيبى؟ أثبتى لى طيبة قلبك فأنا أعتقد أن طبيعتك أفضل مما يبدو على هيئتك وكلامك.

وأجابته: ولماذا أكون فتاة طيبة من أجلك؟ وأنت الذى تعاملنى كفتاة خبيثة دون أن أؤذيك فى شىء! لماذا أتحلى بطيبة القلب من أجل توأم مغرور مثل طاوسين لم يظهرا لى أبدًا أقل قدر من الود؟

أجابها "لاندرى": "فاديت" دعينا ننتهِ؛ أنت تريدين منى أن أعدك بشىء ما، أخبرينى سريعًا فى أى شىء ترغبين وأنا سأعطيه لك هل تريدين مديتى الجديدة؟

قالت "فاديت" وهى تقفز مثل الضفدع إلى جانبه: دعنا نراها! وحين رأت المدية التى لم تكن سيئة بالطبع إذ اشتراها له سيده من السوق الأخير ودفع فيها عشرة فرنكات لم تنجذب لها ولو لدقيقة واحدة بل شعرت أنها قليلة القيمة وطلبت منه لو يعطيها الدجاجة

البيضاء الصغيرة التى لم تكن أكبر حجمًا من حمامة وكانت مغطاة بالريش حتى أطراف أصابعها.

أجابها "لاندرى": لا أستطيع أن أعدك بدجاجتى البيضاء فهى ملك لوالدتى ولكنى أعدك أن أطلبها منها لأجلك وأستطيع أن أؤكد لك أنها لن ترفض فبالتأكيد أنها ستسعد كثيرًا برؤية "سيلفنى" ثانية بحيث لن تستكثر شيئًا لتكافئك به.

قالت "فاديت": حسنًا وإذا رغبت فى جديك ذى الأنف الأسود هل ستعطينى إياه الأم "باربو" أيضًا؟

- يا إلهى، يا إلهى.. كم هو صعب إقناعك يا "فونشون"، اسمعى لم يعد لدىَّ سوى كلمة واحدة: إذا كان يحيق بأخى الخطر الآن وإذا اقتـــدتنى إليه حالاً فلن يبقى فى منزلنا لا دجاجة ولا ديك ولا جدى ولا عنزة إلا وسيرغب أبى وأمى فى إعطائك إياها على سبيل الشكر والعرفان.

قالت الفتاة وهى تمد يدها الصغيرة الجافة إلى الصبى ليضع يده فيها علامة الاتفاق: حسنًا سنرى يا "لاندرى" ومد الصبى يده ببعض الارتباك لأن عينيها فى هذه اللحظة كانتا ملتهبتين كما لو كانت شيطانًا في هيئة إنسان وأضافت: لم أخبرك حتى الآن بما أريده منك ربما كنتُ لا أدرى بعد ولكن تذكر ما وعدتنى به فى هذه الساعة وإذا خلفت وعدك فسأخبر الجميع ألا يثقوا أبدًا فى كلام

الصبى "لاندرى". سأقول لك وداعًا هنا ولا تنس أننى لن أطلب منك شيئًا حتى اليوم الذى سأقرر فيه أن أجدك وأخطرك بشىء والذى سيكون على حسب أمرى أنا وستقوم به أنت دون تلكؤ أو أسف.

قال وهو يضرب كفه فى كفها: إلى اللقاء إذن يا "فاديت"! إنه وعد منى وأمارة.

وقالت بلهجة فخورة وراضية: لنذهب! استدر من هذه النقطة وعد إلى حافة النهر وانزل بمحاذاته إلى أن تسمع أنينًا وحين تعثر على الحمل ستجد عنده أخاك وإذا لم يكن الأمر كما أخبرتك به فأنت فى حل من وعدك.

هنا قفزت "صرصار الليل" وسط الأدغال وهى تلقف "النطاط" بذراعها دون أن تلتفت إلى أن ذلك لم يرقه على الإطلاق أو إلى أنه ظل يتعثر بين الشجيرات، أما "لاندرى" فلم يعد يراهما أو يسمعهما كما لو كان يحلم. لم يضيِّع المزيد من الوقت فى التساؤل إذا كانت "فاديت" تسخر منه. جرى بلا توقف حتى سفح المنطقة العشبية وسار بمحاذاتها حتى المسيل المائى فتجاوزه دون أن ينزل إلى ضفافه فقد اختبر هذا المكان من قبل بما يكفى ليتأكد أن "سيلفنى" لم يكن موجودًا به لكن بينما يبتعد عنه سمع صوت الحمل.

قال محدثًا نفسه: يا إلهى هذا ما قالته لى الفتاة؛ أنا أسمع صوت الحمَل، إن أخى هنا. ولكن لا أعرف أهو حى أم ميت؟

قفز إلى ضفة المسيل المائى ودخل وسط الأشواك ولكن أخاه لم يكن هناك بينما مع تتبع خط المياه وعلى بعد عشر خطوات من مكانه وصوت الحمل لا ينقطع رأى "لاندرى" على الضفة المقابلة أخاه جالسًا مع حمل صغير يحمله فى قميصه وكان الحمل ملونًا من قمة أنفه حتى طرف ذيله.

وحين تأكد أن "سيلفنى" حيًا، ولا يبدو عليه أى ألم نفسى لا فى مظهره ولا فى ملبسه شعر "لاندرى" بالارتياح الشديد فبدأ يشكر ربه بقلبه دون أن يفكر في طلب المغفرة منه لأنه لجأ إلى من يستخدمون السحر والشعوذة ليصل إلى تلك السعادة، لكن فى اللحظة التى نادى فيها "سيلفنى" الذى لم يكن قد رآه بعد ولم يبد عليه أنه سمعه بفعل صوت المياه التى تزخر بقوة فوق الحصى فى هذه المنطقة تسمر "لاندرى" وهو ينظر إليه فقد كان مندهشًا ليجده كما قالت له "فاديت" وسط الأشجار التى تهزها الرياح بشدة وهو لا يحرك ساكنًا تمامًا مثل حجرة.

بالطبع يعرف الجميع أنه من الخطر البقاء على حافة النهر وقت هبوب عاصفة شديدة، فكل الأنهار تكون ملغومة فى قاعها وما من عاصفة إلا واقتلعت فى طريقها تلك النباتات النهرية التى تكون عادة ذات جذور قصيرة أو على الأقل لا تكون ضخمة أو عجوزًا لذا فقد تسقط بقوة على الشخص دون إنذار على الرغم من ذلك فإن "سيلفنى" الذى لم يكن أكثر بلاهة أو جنونًا من غيره لم يبد عليه أنه

منتبه لهذا الخطر، فلم يكن يعتقد إلا أنه فى مأمن من ذلك وكأنه يجلس داخل مستودع حصيد متعبًا من الركض طوال اليوم ومن الطواف بغير هدى وإذا كان من حسن الحظ أنه لم يكن غارقًا فى النهر فإنه يتعين القول إنه كان غارقًا فى حزنه وغمه فقد كان ساكنًا مثل قطعة من الخشب وعيناه مثبتتان على تيار المياه ووجهه شاحب مثل زهرة ذابلة وفمه نصف مفتوح كسمكة صغيرة تتثاءب تحت الشمس وشعره معقّد بفعل الرياح، لم يكن منتبهًا حتى لحمله الصغير الذى وجده تائهًا فى البرية وشعر بالإشفاق عليه فاحتضنه داخل قميصه وكأنه يعيده إلى بيته لكن فى الطريق نسى أن يسأل ممن ضاع هذا الحمل، كان جالسًا على ركبتيه تاركًا الحمل يصرخ دون أن يسمعه على الرغم من صوته الحزين وهو ينظر حوله فى كل مكان بعينين واسعتين صافيتين متعجبًا لعدم سماع أحد من فصيلته لصوته. لم يعد يتعرف على مرعاه ولا أمه ولا حظيرته فى هذا المكان الظليل المليء بالعشب، وأمامه تيار مائى متدفق ربما كان يسبب له ذعرًا شديدًا.

الفصل العاشر

من المؤكد أنه إذا لم يكن يفصل "لاندرى" عن أخيه ذلك النهر- المتسع على طول مساره لأكثر من أربعة أو خمسة أمتار كما أنه فى هذه المنطقة يزداد عمقًا إلى جانب اتساعه لقفز محتضنًا أخاه، ولكن "سيلفنى" لم يكن قد رآه بعد, فكان لدى "لاندرى" الوقت ليفكر كيف يوقظه من أحلامه وكيف يستطيع إقناعه بالعودة إلى البيت لأنه إذا لم يكن ذلك المستاء المسكين يفكر فى ذلك فعلى "لاندرى" أن يقنعه بذلك وهو فى الجهة الأخرى من النهر، لأن "لاندرى" لم يكن يرى على مقربة منه معبرًا أو جسرًا ليعبر إليه ويصطحبه.

تفكر "لاندرى" متسائلاً كيف كان لأبيه – الذى يملك من التعقل والحكمة ما يفوق ما لدى أربعة رجال – أن يتصرف فى مثل هذا الموقف وارتأى أن "الأب باربو" كان ليأخذه بكل هدوء ودون التظاهر بشىء كى لا يكشف لـــ"سيلفنى" كم سبَّب من قلق وكى يعفيه من الشعور بالندم وحتى لا يشجعه على العودة إلى نفس الفعل إذا شعر فى يوم آخر بالحزن.

بدأ يصفر كما لو كان ينادى الطيور فتغنى كما يفعل الرعاة وهم يسيرون، متتبعين الأغصان المتشابكة كى لا يضلوا الطريق حين يحل الليل ورفع "سيلفنى" رأسه فرأى أخاه. لقد كان يشعر

بالخزى ورفع رأسه بتأثر معتقدًا أن أخاه لم يره بعد وهنا تظاهر "لاندرى" كأنه لمحه فحدثه دون أن يرفع صوته بشدة فصوت مياه النهر لم يكن عاليًا ليمنع أن يسمع أحدهما الآخر:

- أى.. "سيلفنى"، أنت هنا إذن؟ لقد انتظرتك طوال الصباح ورأيت أنك خرجت لفترة طويلة وجئت لأتنزه هنا حتى يحين موعد العشاء متوقعًا أن أجدك فى المنزل ولكن بما أنك هنا فلنعد معًا إلى المنزل وسننزل بمحاذاة النهر كل منا على جهة حتى نلتقى عند معبر "روليت" (المعبر الذى يمر على يمين منزل عائلة فادية).

قال "سيلفنى" وهو يلتقط حمله الذى لم يكن يعرفه من وقت طويل ولا يتبعه بإرادته: هيا بنا. ونزلا بطول النهر دون أن يجرؤ كل منهما على النظر إلى الآخر خشية أن يرى أحدهما فى عينى الآخر الألم لأن كليهما غاضب من سلوك الآخر أو السعادة لكونهما وجدا بعضيهما وكان " لاندرى" من وقت إلى آخر - كى لا يبدو عليه أنه يفهم الحزن الذى يشعر به أخوه- يلقى إليه بكلمة أو كلمتين وهما سائرين، سأله فى البداية من أين جاء بهذا الحمل؟ ولم يستطع "سيلفنى" التحدث كثيرًا فى هذا الأمر لأنه لم يرغب فى الاعتراف بأنه سار بعيدًا حتى إنه لا يعرف أسماء الأماكن التى مر بها وهنا شعر "لاندرى" بحيرته واضطرابه فقال له:

- ستحكى لى عن هذا الأمر فيما بعد فالرياح عتيدة لذا لا ينبغى أن نظل أسفل الأشجار بمحاذاة النهر ولكن لحسن الحظ ها هى الأمطار بدأت تسقط مما يعنى أن الرياح ستهدأ .

وكان يقول فى نفسه: "كانت "صرصارة الليل" محقة حين أنبأتنى أننى سأجد أخى قبل أن تهطل الأمطار، بالتأكيد إن هذه الفتاة تعرف أخبارنا من وقت طويل أكثر مما نعرف نحن عنها".

لم يتذكر أنه قضى ما لا يقل عن ربع ساعة يتحدث مع "الأم فادية" ويترجاها ورفضت هى أن تسمعه، وأن "فاديت الصغيرة" التى لم يرها إلا عند خروجه من البيت كان من الممكن أن تكون رأت "سيلفنى" فى أثناء حديثه مع جدتها وفى نهاية الأمر طرأت له الفكرة، ولكن كيف عرفت هى من أى شىء يعانى حين اقتربت منه وهى التى لم تكن موجودة فى الوقت الذى تحدث فيه مع العجوز؟ هذه المرة لم يخطر بباله أن عند مجيئه إلى منطقة المراعى العشبية سأل العديد من الناس عن أخيه وأنه ربما تحدث أحدهم فى الأمر أمام "فاديت الصغيرة"؛ أو قد تكون تلك الصغيرة سمعت الجزء الأخير من حديثه مع جدتها وهى مختبئة كما تفعل عادةً لتعرف كل ما يمكن أن يرضى فضولها.

وكان "سيلفنى" المسكين من جانبه يفكر كيف سيبرر سلوكه السيئ وهو يواجه أخاه وأمه، فهو لم يتوقع مطلقًا تظاهر "لاندرى"

بالهدوء ولا يعرف أى قصة تلك التى سيختلقها وهو الذى لم يكذب فى حياته قط ولم يُخْفِ شيئًا يومًا عن أخيه.

كان من الواضح أنه لم يكن على طبيعته وهو يمر بالمعبر؛ فقد وصل إلى هذا المكان دون أن يجد ما يتغلب به على حيرته واضطرابه.

عندما وصل إلى الحافة قبّله "لاندرى" ورغمًا عنه قبّله بطريقة أكثر تأثرًا مما اعتاد فى نفسه ولكنه تجنب أن يسأله، فقد كان من الواضح أن "سيلفنى" لا يعرف بماذا يجيب، اصطحبه إلى المنزل متحدثًا فى كل الموضوعات عدا تلك التى قد تمس قلبيهما وعند مرورهما أمام منزل "الأم فادية" نظر مليًا ليتمكن من رؤية "فاديت الصغيرة"، فقد كان يشعر برغبة فى أن يشكرها لكن المنزل كان مغلقًا ولم يسمع من داخله صوتًا سوى صوت "النطاط" يصرخ لأن جدته كانت تضربه كما هى العادة فى كل ليلة سواء كان يستحق ذلك أم لا.

تألم "سيلفنى" لسماع بكاء هذا الصبى الشقى، فقال محدثًا أخاه:

- هذا المنزل الشنيع دائمًا ما نسمع منه أصوات صراخ وضربات، أعرف جيدًا أن ما من صبى سيئ ومتقلب الأطوار مثل هذا "النطاط"؛ كذلك "صرصارة الليل" فإنها فى نظرى لا تساوى فرنكين وعلى الرغم من ذلك فإنهما تعيسان لكونهما بلا أب أوأم وفى

كنف تلك الساحرة العجوز الخبيثة التى لا تمنحهما شيئًا مما يحتاجانه.

أجاب "لاندرى": وهو ما لا نعانيه فى منزلنا أبدًا فلم نتلق يومًا ضربة واحدة من أبوينا حتى حين كنا نتذمر على سبيل مزاح الأطفال. كنا نفعل ذلك برقة وأدب فلا يسمعنا أحد من الجيران. إن من يعيش تلك الحياة لابد وأن يكون سعيدًا ومع ذلك فإن "فاديت الصغيرة" - التى هى أكثر فتاة بائسة تعامل بقسوة على وجه الأرض - دائمًا ما تجدها تضحك دون أن تشكو على الإطلاق.

فهم "سيلفنى" عتاب أخيه وشعر بالندم على غلطته، فى الواقع إنه كان يشعر بالندم منذ الصباح وأراد العودة أكثر من عشرين مرة ولكن الخزى كان يمنعه. فى هذه اللحظة شعر بتأثر شديد فأجهش بالبكاء دون أن يتفوه بكلمة ولكن أخاه أمسك بيده وهو يقول له: ها هى الأمطار تشتد يا أخى "سيلفنى" وعلينا أن نعدو إلى المنزل.

أخذا يعدوان و"لاندرى" يحاول إضحاك "سيلفنى" و"سيلفنى" يجتهد ليضحك كى يرضى أخاه.

حين دخلا المنزل كان "سيلفنى" يرغب فى الاختباء فى مخزن الحصيد خشية تلقى اللوم من أبيه ولكن "الأب باربو" - الذى لم يكن يُحمِّل الأمور أكثر مما تحتمل على العكس مما تفعل زوجته- اكتفى بمداعبة الصبى، كما حاولت "الأم باربو" التى أفهمها زوجها الدرس

جيدًا أن تخفى عنه الألم الذى اعتراها، فقط حين كانت تحاول تجفيف ابنيها أمام المدفأة وتعطيهما العشاء ليتناولاه، تبين "سيلفنى" جيدًا أنها كانت تبكى وكانت من وقت إلى آخر تنظر إليه بنظرات قلقة يملؤها الحزن ولو كان قد وُجِد وحده معها لطلب منها أن تسامحه ولداعبها حتى صالحته ولكن "الأب باربو" كان لا يفضل ذلك التدليل وذهب "سيلفنى" إلى سريره مباشرة بعد تناوله العشاء دون أن ينطق بكلمة حيث تغلب عليه التعب فهو لم يأكل شيئًا طوال النهار فابتلع طعامه سريعًا وكان فى أشد الحاجة إليه وشعر كأنه سكران، فاستسلم لأخيه الذى ألبسه ملابس النوم وأدخله فى فراشه حيث ظل جالسًا بجانبه ممسكًا بيده.

حين تأكد "لاندرى" أن أخاه استغرق فى النوم استأذن والديه ولم يلاحظ مطلقًا أن والدته قبَّلته بمزيد من الحب فى هذه المرة أكثر من كل المرات السابقة، وكان يعرف أنها لا تستطيع أن تحبه بقدر ما تحب أخاه ولم يشعر بالغيرة مطلقًا من هذا الأمر قائلاً لنفسه إن أخاه أكثر منه لطفًا وأما هو فلا يفعل إلا ما يتعلق بالواجب وكان يتقبل الأمر بدافع احترامه لأمه وحبه الشديد لأخيه الذى يحتاج أكثر منه للتدليل والتسرية عنه.

فى اليوم التالى جرى "سيلفنى" إلى سرير "الأم باربو" قبل أن تستيقظ هى وفتح لها قلبه وحكى لها عن شعوره بالندم والخزى وكيف أنه يشعر بالتعاسة منذ وقت ليس بسبب انفصاله عن "لاندرى"

بل لأنه يشعر بأن "لاندرى" لم يعد يحبه، وحين سألته أمه لماذا اقترف هذا الظلم؟ لم يستطع التبرير لأن الأمر كان مثل المرض الذى لا يستطيع أن يحمى نفسه منه وكانت أمه تفهمه تمام الفهم ولكنها لم تُرِد أن تظهر ذلك لأن قلب المرأة يكون عادة ضعيفًا فى مثل هذه الأمور وأنها نفسها كانت تعانى وهى ترى "لاندرى" هادئًا ومتحليًا بالبسالة والفضيلة ولكن فى هذه المرة اعترفت أن الغيرة تفسد كل أنواع الحب خصوصًا علاقات الحب التى أمرنا الله بها أكثر من غيرها واحترست من تشجيع "سيلفنى" عليها وأوضحت له مقدار الألم الذى سببه لأخيه وكيف أنه رءوف لدرجة أنه لم يلمه أو يظهر له صدمته واعترف "سيلفنى" بذلك أيضًا، وأقر أن أخاه يعرف تعاليم دينه أفضل منه، عقد "سيلفنى" العزم على التوصل لطريقة يعالج بها ألمه وكان خالص النية فى ذلك.

على الرغم من الرضا والاقتناع اللذين بديا عليه بعد أن جففت أمه دموعه وردت على كل شكواه بأسباب مشجعة للغاية، وعلى الرغم من محاولاته ليتصرف ببساطة وموضوعية مع أخيه فإن ثمة شعورًا بالمرارة ظل فى قلبه، فكان يقول لنفسه: "إن أخى "لاندرى" على الرغم من أنه أكثر منى تدينًا وتعقلاً -كما قالت أمى وهى الحقيقة بالفعل- فإنه إن كان يحبنى كما أحبه لما استطاع أن يستسلم لحكمته إلى هذا الحد"، كما تذكر كم كان "لاندرى" هادئًا وغير مبال حين لاقاه عند النهر، فقد كان يصفِّر للطيور وهو يبحث عنه بينما

هو يفكر بجدية فى أن يلقى بنفسه فى النهر، وإن لم تكن تلك الفكرة تسيطر عليه عند خروجه من المنزل، فمن المؤكد أنها راودته أكثر من مرة حتى حلَّ عليه الليل عندما كان يفكر فى أن أخاه لن يسامحه أبدًا لأنه استاء منه وتجنبه لأول مرة فى حياته. وفكر "سيلفنى" إذا كان أخى هو من وجه إلىّ تلك الإهانة لما كان شىء يعزينى فى ذلك أبدًا "نعم أنا سعيد لأنه سامحنى ولكننى لم أتوقع أن يغفر لى بهذه السهولة"، وظل الطفل المسكين يتنهد وتلك المشاعر المتناقضة تملأ صدره.

ومع ذلك عندما نظهر لله نية خالصة فى إرضائه سرعان ما يكافئنا ويعيننا على ذلك، أصبح "سيلفنى" أكثر تعقلاً فيما بقى من العام لدرجة أنه امتنع عن خصام أخيه أو الشعور بالضيق منه، وأصبح يحبه بكل وداعة ورقة، مما أدى إلى تحسن صحة "سيلفنى" التى تأثرت بالطبع بكل هذه الأحداث المقلقة وكما كان والده يكلفه بالمزيد من المهام ملاحظًا أنه كلما أنصت أقل لشكواه وجده أفضل حالاً، ولكن بالطبع ما نُكلفُ به من مهام عند الوالدين يكون أهون بكثير مما نقوم به حين نعمل عند الآخرين، ولهذا فإن "لاندرى" الذى لا يدخر جهده مطلقًا، ازداد قوة وطولاً فى هذه السنة أكثر من أخيه، والفروق الصغيرة التى كانت تلاحظ بينهما أصبحت أكثر وضوحًا عن ذى قبل، إلى جانب الاختلافات فى روحيهما والتى باتت تنطبع على شكليهما هى الأخرى، وحين أكمل "لاندرى" عامه الخامس عشر

كان صبيًا مكتملاً بينما ظل "سيلفنى" رجلاً صغيرًا ذا شكل جميل أكثر نحافة من أخيه وأقل فى تلوينات الملامح لذا بات من الصعب الخلط بينهما، وعلى الرغم من أنهما متشابهان بالفعل كأخوين فإن من يراهما لا يظنهما توأم، فعند رؤية "لاندرى" - الأخ الأكبر لأنه ولد قبل أخيه بساعة - تخاله أكبر بعام أو بعامين وهو ما يزيد من حب "الأب باربو" له لأنه - كما هو الحال عند كل الريفيين- يقدر القوة واكتمال بنيان الجسد أكثر من تقديره لأى شىء آخر.

الفصل الحادى عشر

فى الفترة الأولى التى تلت مغامرة "لاندرى" مع "فاديت الصغيرة" كان الصبى قلقًا بشأن الوعد الذى قطعه على نفسه لها، ففى الوقت الذى أنقذته هى من قلقه عاهدها أن يعطيها أبوه وأمه أفضل ما فى بيتهما ولكن حين رأى أن "الأب باربو" لم يأخذ على محمل الجد والقلق موقف "سيلفنى" خشى أن تأتى "فاديت" لتطالب بمكافأتها فيطردها "الأب باربو" ساخرًا من علمها الوفير ومن وعد "لاندرى" لها.

هذا الخوف جعل "لاندرى" خجلاً من نفسه وكلما تلاشى حزنه رأى أنه ساذج لتفكيره بأن ما حدث ينطوى على بعض السحر ولم يكن متأكدًا من أن "فاديت" قد سخرت منه ولكن الأمر مشكوك فيه ولم يجد كذلك من الأسباب ما يمكنه من إقناع والده أنه كان محقًا حين قطع على نفسه هذا العهد ذا الآثار الكبيرة، ومن جهة أخرى لم يعرف كيف يخلف مثل هذا الوعد وهو الذى أقسم اليمين من كل قلبه وبضمير يقظ.

ولكن دهشته كانت كبيرة لأنه لا فى اليوم التالى للموقف ولا فى الشهر نفسه ولا فى الفصل نفسه من العام سمع كلمة عن "فاديت" لا فى "البريش" ولا فى "الكوس" كما لم تأت عند "الأب كيلو" لتطلب

أن تتحدث إلى "لاندرى" ولا عند "الأب باربو" لتطالب بأى شيء وحين رآها "لاندرى" من بعيد فى الحقول لم تذهب مطلقًا ناحيته ولم يبد عليها أنها انتبهت إليه وهو ما يخالف طبيعتها، فهى عادة ما تلاحق الناس سواء لتنظر إليهم إرضاءً لفضولها أو لتضحك أو تلعب أو تمزح مع من يبادلونها المزاح وأحيانًا لتوبِّخ أو لتسخر ممن لا يبادلونها إياه ولكن منزل "الأم فادية" كان مجاورًا. "للبريش" و"الكوس" لذا فلم يكن يمر يوم أو يومان دون أن يجد "لاندرى" نفسه معها فى الطريق نفسه وجهًا لوجه وإذا كان الطريق ضيقًا فتكون المناسبة لتبادل تحية باليد أو كلمة بكلمة.

فى هذا المساء كانت "فاديت" تلملم إوزها لتعود به إلى البيت وكان "النطاط" كالعادة فى أعقابها و"لاندرى" يبحث عن خيوله فى البرية ليصطحبها فى هدوء للعودة إلى "البريش"، فالتقيا فى الطريق الضيق الذى يهبط من "كروا دو بوسون" عند معبر "روليت" الذى يقع بين منخفضين أرضيين بحيث لا يمكن تفادى المرور منه واحمر وجه "لاندرى" خوفًا من كلام "فاديت" فلم يشأ أن يشجعها مطلقًا على الكلام فقفز فوق أحد الخيول وكان أبعد حصان رآه ووكزه بحذائه كى يسرع ولكن مثل كل الخيول كان هناك قيد فى قدميه يعوق حركته فلم يتقدم بسرعة إلى الأمام ووجد "لاندرى" نفسه قريبًا من "فاديت الصغيرة" لم يجرؤ أن ينظر إليها وتظاهر أنه يستدير إلى الخلف كى يتأكد أن باقى الخيول تتبعه وعندما عاد ونظر أمامه كانت

قد تخطته دون أن توجه له كلمة؛ لم يعرف حتى إذا كانت قد نظرت إليه أو إذا كانت بعينيها أو بضحكتها قد توسلت إليه أن يلقى عليها التحية، لم ير إلا "جانيه النطاط" الذى كان مشاغبًا وماكرًا ورآه يلتقط الحجارة ليلقيها على أرجل الحصان الذى يمتطيه، بالطبع تمنى "لاندرى" لو يضرب "النطاط" فى هذه اللحظة بل يجلده ولكنه خشى أن يتوقف ويضطر لشرح الأمر لأخته فتظاهر بأنه لم يلحظ وأكمل طريقه دون أن ينظر خلفه.

المرات الأخرى التى رأى فيها "لاندرى" "فاديت الصغيرة" تكرر المشهد ذاته وتدريجيًا تجاسر على النظر إليها إذ نضج وتعقل عن ذى قبل ولم يعد من الممكن أن يقلق من مثل هذا الموقف البسيط ولكن حين قرر أن ينظر إليها بثبات ودون خوف مما قد تقوله فاندهش لرؤيتها وهى تتعمد الالتفات إلى الجانب الآخر وكأنها تشعر بنفس الخوف تجاهه وهو ما دفعه إلى مواجهة نفسه، ولأنه كان يتحلى بالعدل والموضوعية تساءل إذا لم يكن قد اقترف خطأً بالغًا حين لم يشكرها أبدًا حتى الآن وهى التى أهدت له السعادة سواء بواسطة علمها أو نتيجة للصدفة، حسم أمره أن يدنو منها فى أول مرة يراها وقد جاءت تلك اللحظة وخطى نحوها عشر خطوات على الأقل ليبدأها بالتحية ثم يسترسل فى الحديث معها.

وبينما هو يقترب بدا على "فاديت الصغيرة" التعالى والغضب الشديدان وحين قررت أخيرًا أن تنظر إليه رمقته بنظرة محتقرة جعلته يستشيط غضبًا ولا يجرؤ مطلقًا أن يفتح فمه بكلمة واحدة.

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي تلتقي فيها بـ"لاندرى" من قريب في ذلك العام، لأنه منذ ذلك اليوم كانت تتجنبه بحرص بالغ فحين تلمحه من بعيد كانت تستدير إلى الجانب الآخر وتدور دورة كبيرة كي لا تقابله، وظن "لاندرى" أنها غاضبة لأنه ناكر لجميلها لكن نفورها الشديد منعه من التفكير فيما يمكن أن يلجأ إليه ليعالج خطأه فـ"فاديت الصغيرة" لم تكن طفلة مثل غيرها من الأطفال لم تكن نفورة بطبعها ولم يكن عندها أقل قدر من النفور، بل كانت تحب دائمًا أن تثير الضحك والسخرية وبالتأكيد كانت تعرف أنها سليطة اللسان للرد على من يحدثها وليكون لها الكلمة اللاذعة الأخيرة، لم يرها أحد مستاءة من شيء ودائمًا ما يلومها من يحيطون بها لافتقادها الشعور بالزهو الذى يلائم فتاة بلغت الخامسة عشرة وبدأت تشعر أنها شيء ذو قيمة، كانت هيئتها تشابه هيئة صبى غير مهذب وكم سببت من العذاب لـ"سيلفنى" حين كانت تلاحقه لتضايقه وتوصله إلى ذروة غضبه. كانت تفاجئه أحيانًا وهو مستغرق فى أحلام اليقظة وأحيانًا أخرى تتبعه طوال سيره فى طريق ما عندما تقابله فيه فتسخر من حبه الكبير لأخيه التوأم وغيرته عليه وتعذب قلبه حين تردد له أن "لاندرى" لا يحبه كما يحبه هو، وتظل تهزأ

بألمه. كان "سيلفنى" يعتقد أنها ساحرة أكثر من اعتقاد "لاندرى" فى هذا الشأن، فكان يندهش من قدرتها على تخمين ما يفكر فيه ولذلك كرهها من كل قلبه وكان يحتقرها ويحتقر عائلتها وكما كانت هى تتفادى "لاندرى" كان هو يتجنب تلك الصرصارة الماكرة، وكان يقول إنها ستكون عاجلاً أو آجلاً على شاكلة أمها التى انتهجت سلوكًا مشينًا حين تركت زوجها وكانت تلاحق الجنود، بدأت ببيع الطعام والشراب للجنود عقب ميلاد "النطاط" ببعض الوقت ثم لم يعرف شيئًا عن أخبارها ومات زوجها من الحزن والشعور بالخزى وهكذا وجدت "الأم فادية" نفسها مسئولة عن تربية الطفلين ولم تعتن بهما مطلقًا كما ينبغى سواء بسبب بخلها الشديد أو بسبب كبر سنها الذى لم يسمح لها بمراقبتهما والاهتمام بهما على نحو ملائم.

لهذه الأسباب شعر "لاندرى" بالاشمئزاز من "فاديت الصغيرة" رغم أنه لم يكن متعاليًا بطبيعته مثل أخيه وآسفًا لارتباطه بعلاقة بها وحرص على ألا يعلم أحد بذلك, حتى أخوه التوأم لم يخبره بشىء لأنه لم يرغب فى أن يحكى له عما انتابه من قلق عليه؛ ومن جانبه أخفى عنه "سيلفنى" كل تصرفات "فاديت الصغيرة" الخبيثة معه، خجلاً من أن يقول إنها استطاعت تخمين مشاعر الغيرة التى يشعر بها.

ومر الوقت والحق أن فى هذه المرحلة العمرية التى يعيشها التوأم "لاندرى وسيلفنى" تكون الأسابيع مثل الشهور والشهور مثل

السنوات فيما يتعلق بالتغيرات التى تطرأ على الجسم والعقل؛ وسريعًا ما نسى "لاندرى" مغامرته وبعد أن كان يتعذب قليلاً حين يتذكر "فاديت الصغيرة" لم يعد يفكر فيها إلا وكأنها كانت مجرد حلم.

مر ما يقرب من عشرة شهور على انتقال "لاندرى" للإقامة فى "البريش"، واقترب ميعاد عيد "القديس يوحنا" الذى يوافق ذكرى بداية عمل "لاندرى" مع "الأب كيلو" وكان هذا الرجل الكريم ممتنًا لـ"لاندرى" فقرر عن طيب خاطر أن يزيد من أجرته كى لا يتركه ويرحل، فى حين أن "لاندرى" لم يكن يطمع فى أكثر من أن يظل فى الجوار بالقرب من عائلته ومع صبية "البريش" الذين أعجبوه كثيرًا، إلى جانب شعوره بالقرب والمودة لإحدى بنات أخ "الأب كيلو" التى كانت تدعى "مادلون" وكانت صبية صغيرة جميلة وأكبر منه بعام لذا فأحيانًا ما كانت تعامله كما لو تعامل طفلاً لكن تقلص هذا الشعور تدريجيًا وبينما كانت فى مطلع العام تسخر منه حين يخجل من أن يُقبِّلها على وجنتيها وهما يلعبان أو يرقصان أصبحت مع نهاية العام تحمر خجلاً إذا فعل، لم تعد تبقى بمفردها معه فى إسطبل الخيول أو فى مخزن التبن، لم تكن "مادلون" بالطبع فقيرة وفكرة الزواج بينهما كانت واردة، فالعائلتان كانتا حسنتى السمعة وملتزمتين وهو ما يعرفه ويقدره كل من فى البلدة حتى إن "الأب كيلو" – الذى رأى الاثنين يبحثان عن بعضهما البعض ويقلقان على بعضهما البعض – قال

لـــ"الأب باربو" إنه من الممكن أن يكونا زوجين مناسبين لذا فما من عيب فى أن يترك لهما الفرصة ليتعارفا جيدًا ولفترة طويلة.

وتم الاتفاق على أن يظل "لاندرى" قبل ثمانية أيام من عيد "القديس يوحنا" مقيمًا فى "البريش" بينما يبقى "سيلفنى" عند والديه لأن "سيلفنى" كان قد استرد رشده وعندما مرض "الأب باربو" بسبب حُمَّى ألمت به عرف "سيلفنى" كيف يتحمل مسئولية العمل فى الأرض على أكمل وجه. ولكنه شعر بالخوف من أن يرسل إلى العمل بعيدًا، وهو ما كان له بالشىء المفيد إذ كان يجتهد تدريجيًا ليتغلب على مشاعره الزائدة تجاه "لاندرى" أو على الأقل لا يتركها تظهر عليه، ساد السلام والسعادة، إذن، فى "البيسونيير" فيما كان التوأم لا يتقابلان لأكثر من مرة أو مرتين فى الأسبوع.

وكان عيد "القديس يوحنا" يومًا يملؤه السعادة بالنسبة إليهم إذ ذهبوا معًا إلى السوق لرؤية مأجر المزارعين فى المدينة والريف، ثم بعد ذلك الاحتفال الذى يتم فى الساحة الكبرى، رقص "لاندرى" كثيرًا مع "مادلون"؛ وحاول "سيلفنى"– كى يرضى أخاه– أن يرقص هو الآخر ولكنه لم يكن متمكنًا من خطواته ولكن "مادلون" التى كانت حريصة على متابعته بنظرها مدت له يدها وهى فى مواجهته لتساعده على أداء خطوات الرقص بطريقة صحيحة و"سيلفنى" – الذى وجد نفسه مع أخيه فى رقصة واحدة – أقسم أن يتعلم الرقص

جيدًا بغية أن يتقاسم الوقت الممتع مع أخيه بدلاً من أن يضايقه بارتباكه فى الرقص.

لم يكن "سيلفنى" يشعر بالغيرة تجاه "مادلون" لأن "لاندرى" كان لا يزال متحفظًا معها، كما كانت "مادلون" تمتدح وتشجع "سيلفنى" كثيرًا وكانت تتصرف بلا كلفة معه حتى إن من لا يعرفهما يعتقد أن "سيلفنى" هو من تفضله "مادلون" من بين الأخوين، كان من الممكن أن يشعر"لاندرى" بالغيرة من هذا الأمر لولا أنه بطبيعته عدو للغيرة وربما لأن أحدهم قال له إن "مادلون" رغم براءتها الشديدة تتصرف بهذا الشكل لتسعده هو وليتحين لها فرصة لتقضى وقتًا طويلاً معه.

تحركت الأمور نحو الأفضل فى الشهور الثلاثة التالية، إلى أن جاء يوم عيد "القديس أندوش"، وهو عيد دينى فى "الكوس" ويوافق آخر يوم فى شهر سبتمبر، وهذا اليوم - الذى ألفه الأخوان عيدًا كبيرًا وجميلاً يرقصان فيه ويلعبان تحت شجر الجوز الموجود فى الكنيسة - حمل لهما هذا العام مشاكل جديدة لم تكن فى الحسبان.

سمح "الأب كيلو" لـــ"لاندرى" أن يذهب لينام عند والديه عشية يوم العيد كى يلحق بالاحتفال فى الصباح الباكر، رحل "لاندرى" قبل العشاء سعيدًا بأن يفاجئ أخاه الذى يتوقعه فى اليوم التالى. كان ذلك الفصل من السنة الذى يبدأ فيه النهار فى القصر فيحل الليل سريعًا، وكان من طبيعة "لاندرى" ألا يخشى شيئًا فى النهار ولكن نظرًا إلى

سِنّه وطبيعة البلدة فإنه لم يكن يحب أن يكون بمفرده على الطرقات فى المساء خاصةً فى فصل الخريف لأنه الفصل الذى تتفانى فيه الساحرات والجنيات فى العمل لوقت طويل بسبب الضباب الذى يساعدها على إخفاء الأعمال الخبيثة والتعويذات المؤذية، لم يكن "لاندرى" – الذى اعتاد أن يخرج بمفرده فى أى وقت ليرعى أو ليعود بأبقاره إلى المنزل- يفكر فى أى شىء فى هذا المساء أكثر من أى مساء آخر؛ لكنه مشى مسرعًا وهو يغنى عاليًا كما نفعل دائمًا حين يشتد سواد الليل، حيث من المعروف أن الغناء يزعج الكائنات الشريرة ويعيقها.

حين بلغ يمين معبر "روليت" -الذى يطلق عليه هذا الاسم بسبب الحصى المستديرة التى تملؤه بكميات كبيرة- كشف قليلاً عن ساقيه لأن الماء قد لامسه إلى ما يقرب من عرقوب قدمه وكان مدركًا أنه لا يستطيع أن يسير أمامه لأن المعبر كان مقامًا بين منطقتين منخفضتين كما انتشرت الحفر الوعرة عن يمينه وعن يساره، وكان "لاندرى" يعرف المعبر جيدًا بحيث لا يمكن أن يسقط من عليه، كذلك كان يرى من بين الأشجار-التى فقد نصفها على الأقل أوراقه- إضاءة خافتة تنبعث من بيت عائلة "فادية"، وعند النظر إلى تلك الإضاءة كى يسير فى الاتجاه السليم لم يكن هناك أى احتمال أن يسلك الطريق الخطأ.

كان الظلام يخيِّم أسفل الأشجار حتى إن "لاندرى" تحسس المعبر بعصاه قبل أن يدخله، اندهش حين أحس بمستوى المياه أعلى من العادة، علاوة على أنه سمع صوت تدفق مياه الهويس المفتوح منذ الصباح الباكر على الرغم من ذلك وحين رأى الضوء المنبعث من منزل "فاديت" تقدم للأمام ولكن بعد خطوتين فقط ارتفعت المياه حتى غطت ركبتيه وتراجع حين أيقن أنه أخطأ بالتقدم على هذا النحو وحاول أن يخطو إلى الأمام أو إلى الخلف ولكن وجد أن مستوى المياه يرتفع فى كل الاتجاهات ولم تكن الأمطار قد سقطت ولكن ارتفعت مياه الهويس وكان ذلك أمرًا مدهشاً.

الفصل الثانى عشر

قال "لاندرى" محدثًا نفسه: لابد وأننى سلكت الطريق الخطأ، فأنا أرى نور منزل "فاديت" على يمينى بينما من الطبيعى أن يكون على يسارى".

سلك الطريق ثانية حتى بلغ " كروا دو ليفر" ودار حول نفسه دورة كاملة وهو مغمض العينين كى يفقد تأثره بالاتجاه السابق وحالما لاحظ الأشجار والأغصان حوله وجد نفسه على الطريق السليم فعاد بالقرب من النهر لكن على الرغم من أن المعبر بدا له سليمًا فإنه لم يكمل عليه أكثر من ثلاث خطوات لأنه رأى فجأة الضوء الذى كان منبعثًا من منزل "فاديت" مستقرًا خلفه فى حين أنه يجب أن يكون فى مواجهته مباشرة.

عاد إلى الشاطئ فبدا له هذا الضوء فى مكانه الصحيح فرجع وسلك المعبر منحرفًا بطريقة مختلفة عن المرة السابقة ولكن هذه المرة شعر بالماء يصل إلى منتصف جسده، تقدم باستمرار معتقدًا أنه مر بحفرة وسيخرج منها وهو يكمل طريقه فى اتجاه الضوء.

توقف فجأة لأن الحفرة ازدادت عمقًا حتى وصلت المياه إلى كتفيه وكان الماء باردًا جدًا وظل لدقيقة يتساءل إذا كان من الأفضل أن يعود من حيث أتى حيث إن الضوء قد تغير مكانه، بل أكثر من

ذلك فقد رآه يهتز ويجرى ويقفز ويعبر من جهة إلى أخرى، وأخيرًا انعكس على صفحة المياه حيث لبث مثل عصفور يحاول أن يتوازن مستخدمًا أجنحته ومحدثًا جلبة خفيفة لصرير يشبه صوت انسكاب البترول المصمغ.

هذه المرة شعر "لاندرى" بالخوف وأوشك أن يفقد عقله لأنه لم ير من هو أكثر شرًا وطغيانًا من هذا الضوء اللعين الذى يمارس لعبة خداع مع كل من ينظر إليه ويهتدى به فى أكثر مناطق النهر عمقًا وهو يضحك بطريقته ويسخر من الخوف البادى عليهم.

أغمض "لاندرى" عينيه كى لا يراه واستدار مخاطرًا فخرج من الحفرة ووصل إلى الشاطئ وألقى بنفسه فوق العشب وشاهد هذا الضوء الماجن وهو يتابع رقصه وضحكه، إنه بالفعل لشىء قبيح، تارة يلتف حول نفسه كما لو كان يغزل وتارة يختفى فجأة وأحيانًا أخرى يصير كبيرًا مثل رأس بقرة أو صغيرًا مثل عين القط؛ وجرى بالقرب من "لاندرى" ودار حوله بسرعة لدرجة جعلت "لاندرى" ينبهر به ولكن حين رأى أنه لا يريد أن يتبعه استدار واهتز متنقلاً بين سيقان البوص وكأنه غاضب أو كأنه يريد أن يوجه له الشتائم.

ولم يجرؤ "لاندرى" على الحركة لأن العودة إلى الخلف ليست الطريقة المناسبة للهروب من الجنية، فمن المعروف أنها تتفانى فى الركض وراء من يجرى منها وتقف لتعرقل طريقه إلى أن تصيبه

بالجنون ثم تختفي في أي ممر لعين، كان "لاندرى" يرتعش من الخوف والبرد حين سمع خلفه صوتًا خفيتًا يغنى برقة بالغة:

فاديه، فاديه، فاديه الصغير

خذ شمعتك وبوقك الصغير

أخذت قبعتى وكابى

وكل جنية لها الجنى.

وسريعًا ما ظهرت "فاديت الصغيرة"، وهى تتهيأ لعبور المياه غير آبهة بالجنية المجنونة، حينها صدمت "لاندرى" الذى كان جالسًا فى الظلام، ثم ابتعدت وهى تشتم كما لو كانت صبيًا بذيئًا.

قال "لاندرى" وهو يقف: إنه أنا يا "فونشون" لا تخافى أنا لست عدوًا لك.

كان يتحدث بهذه الطريقة لأنه كان يخشى منها ربما بقدر خشيته من الجنية، لقد استمع إلى أغنيتها وفهم أنها تلقى بتعويذة تخاطب بها هذا الوهج المستنقعى الذى كان يرقص ويتلوى كمجنون وكما لو كان سعيدًا لرؤيتها.

قالت "فاديت" بعد أن ترددت قليلاً: أرى جيدًا أنك تمتدحنى أيها الصبى الجميل لأنك كدت تموت من الخوف وصوتك انحشر فى حنجرتك ليشبه الآن صوت جدتى. هيا أيها القلب المسكين فعندما

يدنو الليل لا نكون بذات قدر الشجاعة الذى نكون عليه فى النهار وأراهن أنك لن تجرؤ على عبور المياه دونى.

قال "لاندرى": أنا على يقين أننى سأخرج منها فقد نجوت من الغرق فيها، هل ستجازفين يا "فاديت" بالنزول فى المياه ؟ ألا تخافين من ألا تتبينى المعبر؟

ردت عليه "فاديت" ضاحكة: ولماذا لا أتبينه؟ أنا أعرف جيدًا ما يقلقك. هيا أعطنى يدك أيها الجبان فالجنية ليست شريرة كما تظن، وهى لا تؤذى إلا الذين يخافون منها. لقد اعتدت رؤيتها ونحن نعرف أحدنا الآخر.

وبعد ذلك جذبته بذراعها بقوة شديدة لم يكن يتوقعها فيها واصطحبته على المعبر وهى تجرى وتغنى

أخذت طاقيتى وكابى

كل فاديت لها فاديه

لم يشعر "لاندرى" بالاطمئنان فى أجواء الساحرة الصغيرة والجنية، كما كان يفضل أن يرى الشيطان فى صورته الحقيقية عن أن يراه فى هيئة نار ماكرة وعابرة بسرعة خاطفة، لذا فإنه لم يقاوم واطمأن قلبه سريعًا واثقًا فى أن "فاديت الصغيرة" ترشده إلى الطريق الصحيح حتى إنه يسير على الحصى دون أن تبتل قدماه ولكن لأنهما كانا يسيران بسرعه تاركين مساحة فى الفراغ للجنية المتمثلة فى

هيئة نار فقد سارا يتبعهما طوال الطريق ذلك البريق العابر - أو الشهاب- كما يسميه معلم مدرسة البلدة الذى يعرف الكثير عن هذه الظاهرة وينصح دائمًا بعدم الخوف منها.

الفصل الثالث عشر

من المؤكد أن "الأم فادية" لديها خبرة فى هذا الشأن وأنها علمت حفيدتها ألا تخاف من النيران التى تظهر ليلاً أو ربما من فرط ما رأتها لأنها توجد بكثرة حول معبر "روليت"، فمن الغريب بالفعل ألا يكون "لاندرى" قد رآها عن قرب من قبل أو ربما كانت الصغيرة مقتنعة بأن الروح التى تصدر عن تلك النيران ليست شريرة وأنها لا تريد لمن يراها إلا الخير. شعرت "فاديت" بأن جسد "لاندرى" يرتجف كلما اقتربت منهما الجنية، فقالت له:

– أيها الساذج، هذه النار لا تحرق وإذا كنت شجاعًا وجرؤت على جسها فستجد أنها لا تترك أى أثر.

فكر "لاندرى" محدثًا نفسه "تلك النار التى لا تحرق هى أمر أسوأ، فلا يمكن أن تكون من عند الله لأن النار التى خلقها الله لنا تستخدم إما للتدفئة وإما لحرق الأشياء".

لكنه لم يحدث "فاديت" عن أفكاره تلك، وحين وجد نفسه سليمًا معافى حين وصلا إلى الضفة، تملكته رغبة عنيفة فى أن يتركها فجأة ويفر إلى منزله ولكن لم يكن قلبه أبدًا ناكرًا للجميل فلم يرد أن يرحل دون أن يشكرها.

قال لها: ها هى المرة الثانية التى تسدين لى معروفًا يا "فاديت" وأريد أن أؤكد لك أننى لن أنسى ذلك ما حييت، لقد كنت كالمجنون حين لاقيتك؛ فالجنية قد أرهقتنى وأفقدتنى عقلى. لم يكن من الممكن أن أجرؤ على عبور النهر، كما لم يكن من الممكن أن أخرج منه.

أجابته "فاديت": ربما استطعت أن تعبره دون تعب أو مخاطرة لو لم تكن أحمق، لم أتصور أن صبيًّا كبيرًا مثلك على مشارف عامه السابع عشر وعلى وشك أن يظهر له شارب ولحية، يمكن أن يشعر بالخوف بهذه السهولة ولكننى سعيدة أن أراك هكذا.

- ولماذا تكونين سعيدة لهذا يا "فاديت"؟

قالت له بازدراء: لأننى لا أحبك مطلقًا.

- ولماذا لا تحبيننى مطلقًا؟

أجابت "فاديت": لأننى لا أحترمك أبدًا لا أنت ولا أخاك ولا والدك ولا والدتك، فأنتم متكبرون لكونكم أغنياء ولاعتقادكم أنه حين يسدى أحد لكم صنيعًا فإنه لم يقم سوى بواجبه. لقد ربوك على أن تكون ناكرًا للجميل وهى أكبر نقيصة يمكن أن تعيب الرجل بعد نقيصة الجبن.

شعر "لاندرى" أنه ابتل من اللوم الشديد الذى وجهته إليه تلك الفتاة الصغيرة، لأنه يعرف عن نفسه أنه لم يكن قط ظالمًا، فأجابها:

- إذا كنت أخطأت يا "فاديت" فلا تنسبى ذلك إلى أخى أو أمى أو أبى أو أى شخص من عائلتى لأنهم لا يعلمون بما قمتِ به من أجلى ولكن هذه المرة سيعرفون بالتأكيد وستكافئين بما تستحقين.

أجابته "فاديت": مرة أخرى تمارس غرورك لأنك تتخيل أنه بهداياك تستطيع أن ترضينى. تظننى على شاكلة جدتى التى حين ترى من يدفع لها بعض النقود تتحمل منه المعاملة السيئة كما تتحمل إهانات البشر، أما أنا فلا أحتاج ولا أرغب فى عطاياك، بل أحتقر كل ما يمكن أن يأتى من ورائك فأنت لا تملك القلب الطيب لتسمعنى كلمة شكر تعبر عن مودتك فتقولها لى طوال عام كامل منذ داويت ألمك الكبير.

قال "لاندرى" الذى شعر بالدهشة أمام الحكمة البادية فى حديث تلك الفتاة للمرة الأولى: أعترف بأننى مخطئ يا "فاديت" ولكنْ هناك أيضًا جزء صغير من الخطأ تتحملينه أنت، فأنت لم تلجئى إلى السحر كى تدلينى على مكان أخى لأنك بالتأكيد قد رأيته بينما كنت أتحدث أنا مع جدتك وإذا كنت تمتلكين ذلك القلب الطيب الذى تتهميننى بأنى لا أملكه فبدلاً من تركى أعانى وأتألم وبدلاً من أن تنطقى بكلام يمكن أن يقودنى بعيدًا لقلتِ لى على الفور: "اهبط المنطقة العشبية وستجده على حافة المياه". لم يكن ليكلفك هذا شيئًا بدلاً من أن تصنعى من ألمى لعبة سخيفة، وهو ما قلل من شأن المعروف الذى أسديته إلىّ.

لبثت "فاديت الصغيرة" - التى تعرف كيف تتمالك نفسها سريعًا- تفكر دقيقة ثم قالت:

- إنك تبذل قصارى جهدك لتعفى قلبك من الشعور بالعرفان ولتقنع نفسك بأنك لست مدينًا لى بأى شىء، فيما يخص المكافأة التى كنت قد وعدتنى بها ولكن منعك قلبك القاسى من أن تلاحظ أننى لم آتِ لأطلب شيئًا منك وأننى حتى لم ألمُك على نكرانك للجميل.

قال "لاندرى" الذى كان مثالاً حيًا للحق: هذا صحيح يا "فونشون". لقد أخطأت وأشعر بذلك الآن كما أشعر بالخزى لذلك؛ كان علىَّ أن أحدثك وكانت لدىَّ النية فى ذلك ولكن نفورك وغضبك جعلانى لا أعرف كيف أفعل ذلك.

- لو جئت فى اليوم التالى للقائنا لما وجدتنى غاضبة ولعرفت أننى لا أهتم بالنقود، ولأصبحنا أصدقاء بدلاً من أن يكون رأيى فيك الآن سلبيًا إلى هذا الحد، كان علىَّ أن أتركك تتصرف مع الجنية كما تستطيع، طاب مساؤك يا "لاندرى"، اذهب لتجفف ملابسك.. اذهب وقُصَّ على والديك: "دون هذه الصرصارة الجنية لشربت ما تيسر من ماء النهر هذه الليلة". وأدارت "فاديت الصغيرة" ظهرها وسارت متجهة إلى منزلها وهى تغنى:

"خذ درسك ولفافتك

"لاندرى باربو" من البيسونيير".

هذه المرة أحس "لاندرى" بحسرة بالغة تملأ روحه ليس بسبب شعوره بأى نوع من المودة لتلك الفتاة التى تمتلك الحجة والمنطق أكثر من تحليها بالطيبة، والتى لم تريحه طريقتها فى التفكير أو الحديث رغم كونها طريقة مسلية ولكن قلبه المرهف يخشى أن يقترف خطأً فيظل ضميره يؤنبه فأسرع خلفها واعترضها بعصاه.

- انظرى يا "فاديت".. لابد أن ينتهى هذا الأمر بيننا الآن. أنت مستاءة منى وأنا بدورى لا أشعر بالرضا عن نفسى. لابد وأن تخبرينى بما تريدينه منى الآن وغدًا على الأكثر سأحضره لك.

أجابته "فاديت" على الفور وبغلظة: أتمنى ألا أراك ثانية ومهما يكن ما ستأتى به إلىّ تأكد أننى سألقيه فى وجهك.

- تقولين هذا الكلام القاسى لمن يعرض عليك الصلح؟ إذا كنت لا تريدين هدية فهناك بالتأكيد طريقة لأسدى لكِ صنيعًا أو لأثبت لك أننى أتمنى لك الخير لا الشر. هيا أخبرينى بما يمكن أن أرضيك به.

قالت "فاديت" وهى تتوقف عن السير: أنت إذن تطلب منى السماح كما تتمنى صداقتى؟

أجاب "لاندرى" الذى لم يستطع التغلب على كبريائه أمام فتاة لا تتصرف بالطريقة التى تلائم عمرها ولا ترتدى الملابس التى تلائمها: إنك تبالغين عندما تطلبين منى الاعتذار، أما بالنسبة إلى

الصداقة يا "فاديت" فإن طريقة تفكيرك غريبة حتى ليصعب علىَّ أن أثق فيها، اطلبى منى شيئًا أستطيع أن أقدمه لك على الفور ولا يضطرنى أن أبحث عنك مرة أخرى.

قالت "فاديت" بصوت واضح النبرات وجاف فى الوقت ذاته: حسنًا كما تريد يا "لاندرى"، لقد عرضت عليك أن أعفو عنك ولم ترض أنت بذلك، والآن سأطالبك بما وعدتنى به وهو أن تخضع لأمرى فى اليوم الذى أطلب فيه شيئًا منك، هذا اليوم سيكون غدًا فى عيد "القديس أندوش" وإليك ما أريده: سترقص معى ثلاث رقصات بعد "القداس" ورقصتين بعد "صلاة الستار" ورقصتين أخريين بعد "صلاة التبشير"، أى سبع رقصات، وطوال اليوم منذ استيقاظك من النوم وحتى خلودك إلى النوم مرة أخرى لن ترقص مع فتاة أو امرأة غيرى، وإذا لم تلتزم بذلك: فسأدرك أن فى شخصيتك نكرانًا للجميل وخوفًا وعدم وفاء للوعد، تصبح على خير، أنتظرك غدًا كى نفتتح الرقص عند باب الكنيسة.

فتحت "فاديت" – التى تبعها "لاندرى" حتى باب منزلها– مزلاج البيت ودخلت مسرعة فعاد الباب وانغلق قبل أن يجيب الفتى بكلمة.

الفصل الرابع عشر

فى بادئ الأمر وجد "لاندرى" فكرة "فاديت الصغيرة" غريبة ومثيرة للضحك أكثر من إثارتها للغضب وقال محدثًا نفسه: إنها فتاة حمقاء أكثر منها لئيمة ومثيرة للنفور أكثر مما كنت أظن لأن دفع المكافأة لها لن يضير والدىَّ، ولكن عند التفكير فى الأمر وجد أن مخالصة الدين قد تكون أكثر مما تستحقه مساعدتها له، ثم فكر فى أن "فاديت الصغيرة" ترقص بمهارة وقد رآها ترقص فى الحقول وعلى جنبات الطرقات مع الرعاة وهى تجيد الرقص كما لو كانت شيطانًا صغيرًا لدرجة أنه يصعب متابعتها، ولكنها ليست جميلة ولا تعتنى بمظهرها حتى فى أيام الآحاد فلا يراقصها أحد الصبية ممن هم فى عمر "لاندرى" وبخاصة أمام الناس، وربما رأى رعاة الأبقار أو الصبية الذين يقومون بالرقص للمرة الأولى أنها جديرة بالدعوة إلى الرقص، أما جميلات البلدة فلا يحبون مشاركتها فى رقصاتهن، وشعر "لاندرى" بالخزى لكونه تحت إمرة راقصة بتلك المواصفات وحين تذكر أنه وعد الجميلة "مادلون" بثلاث رقصات على الأقل، تساءل كيف ستواجه الخزى الذى سيسببه لها عندما لا يطلبها للرقص.

كان يشعر بالبرد والخوف، كما خشى أن تلاحقه الجنية فأسرع الخطى دون مزيد من التفكير أو النظر وراءه، وحالما وصل إلى المنزل أخذ يجفف نفسه وحكى لهم أنه لم يتبين المعبر بسبب الظلام الحالك وأنه استطاع بالكاد أن يخرج من المياه لكنه خجل أن يعترف بالخوف الذى اعتراه ولم يتحدث عن الجنية أو عن "فاديت الصغيرة". نام فى سريره قائلاً لنفسه إن الأمر سيحدث فى اليوم التالى مبكرًا ولا يتعين عليه أن يتعذب من جراء هذه المقابلة السيئة لكن مع ذلك لم ينم جيدًا، حلم أكثر من خمسين حلمًا حيث رأى "فاديت الصغيرة" ممددة على "فاديه" - والذى كان عبارة عن ديك كبير ممسكًا فى أحد قدميه بفانوس قرنى الشكل وبداخله شمعة تنعكس ظلالها على المنطقة العشبية بالكامل- ثم تحولت "فاديت" إلى صرصار ضخم يشبه العنزة، وكانت تغنى له بصوت الصراصير أغنية لم يستطع فهمها ولكنه التقط منها كلمات لها نفس الإيقاع: فادى، سيلفنى، بيسونيى، كانت رأسه تؤلمه بينما بدا ضوء الجنية واضحًا ويتحرك بسرعة لدرجة أنه حين استيقظ بدت أمام عينيه دوائر سوداء وزرقاء وحمراء وهى التى تظهر أمام أعيننا حين ندقق النظر فى مدار الشمس أو القمر.

كان "لاندرى" متعبًا من هذه الليلة الصعبة حتى إنه نعس طوال القداس فلم يسمع الموعظة التى ألقاها القس الذى مجَّد فضائل "القديس أندوش" وخصاله وأبرزها، وعند خروج "لاندرى" من الكنيسة كان

مجهدًا لدرجة أنه نسى أمر "فاديت الصغيرة"، فيما كانت هى تقف أمام الرواق فى مدخل الكنيسة بالقرب من "مادلون" التى وقفت فى هذا المكان تملؤها الثقة أن دعوة الرقصة الأولى ستكون لها، ولكن حين اقترب ليحدثها كان لابد له أن يرى الصرصارة التى تقدمت خطوة إلى الأمام وقالت له بصوت عالٍ وبجرأة ليس لها مثيل:

- هيا يا "لاندرى" لقد دعوتنى بالأمس إلى الرقصة الأولى وأحسب أننا لن نفوتها.

فاحمر وجه "لاندرى" خجلاً وأصبح مثل النار ورأى وجه "مادلون" يحمر بدوره من الدهشة والغيظ اللذين شعرت بهما بسبب هذا الموقف فاستجمع شجاعته لمواجهة "فاديت"، وقال لها:

ربما وعدتك بأن أرقص معك يا صرصارة ولكننى قطعت وعدًا آخر من قبل وسيأتى دورك بعد أن أنهى ارتباطى الأول.

أجابته "فاديت" بكل ثقة: كلا؛ خانتك ذاكرتك يا "لاندرى"؛ أنت لم تعد أحدًا قبلى لأن وعدك الذى أعنيه كان من العام الماضى وما قلته بالأمس لى لم يكن سوى تجديد للوعد، وإذا كانت "مادلون" ترغب فى الرقص معك اليوم فلديها أخوك الذى يشبهك تمامًا ويمكنها أن تأخذه بدلاً منك فأنتما متساويان.

أجابت "مادلون" بكل اعتزاز وهى تأخذ بيد "سيلفنى": الصرصارة محقة وإذا قطعت على نفسك وعدًا قديمًا إلى هذا الحد،

فعليك أن تفى به يا "لاندرى". كما أننى أحب كثيرًا أن أرقص مع أخيك.

وأضاف "سيلقنى" بكل سذاجة: نعم، نعم. ليس هناك فرق. سنرقص نحن الأربعة.

وهنا وجب تجاوز الأمر بأكمله كى لا يلفتوا أنظار المحيطين، فبدأت الصرصارة تخطو بكل زهو ورشاقة كما لم يحدث أن تميزت رقصة من قبل بهذه البداية الرائعة ولولا أنها لم تكن أنيقة أو مهذبة لسرَّت الناظرين، فهى ترقص بمهارة ملحوظة وما من فتاة جميلة رأتها فى هذا اليوم دون أن تتمنى أن تكون لها خفتها وقدرتها على حفظ توازنها، ولكن الصرصارة المسكينة كانت ترتدى ملابسها بغير عناية بحيث بدت أسوأ عشر مرات مما هى فى الأوقات العادية، لم يعد "لاندرى" يجرؤ على النظر إلى "مادلون" وشعر بالحزن والخجل فى مواجهتها فنظر إلى من تراقصه فوجدها قبيحة أكثر من أى يوم آخر فى ثوبها الرث؛ كانت تعتقد أنها جميلة، فى حين أن ملابسها كانت لا تصلح إلا لإثارة الضحك.

كانت ترتدى غطاءً للرأس أصفر تمامًا نتيجة التخزين وبدلاً من أن يكون صغيرًا ومرفوعًا من الخلف كما هى موضته الحديثة فى البلدة تدلى منه على جانبى رأسها جزأين كبيرين مسطحين وعلى مؤخرة رأسها تدلى الغطاء حتى نهاية رقبتها وهو ما جعلها تشبه

جدتها وجعل رأسها تبدو كبيرة مثل علبة كبيرة ترتكز على رقبة رفيعة كالعصا، كانت بلوزتها قصيرة على اليدين لأنها ازدادت طولاً فى هذا العام وذراعاها الرفيعتان المسمرّتان من الشمس تنبتان من قبضتين مثل أرجل العنكبوت ولكنها ترتدى صدرية وردية اللون تتباهى بها كثيرًا، ورثتها عن أمها ولم تنزع منها الجزء العلوى الذى لم تعد الفتيات اللاتى فى سنها يرتدينه منذ ما يقرب من عشر سنوات، لأنها لم تكن مثل هؤلاء اللاتى يتدللن، فالفتاة المسكينة لم يكن لديها ما يكفيها فعاشت كصبى دون أن تنشغل بمظهرها ولم تهتم يومًا إلا بالسخرية والهزل. فبدت كأنها عجوز ترتدى أفضل ثيابها القديمة، واحتقروها لملابسها الرثة والتى لم تكن مضطرة لارتدائها بسبب الفقر ولكن بسبب بخل جدتها وقلة ذوق الفتاة الصغيرة.

الفصل الخامس عشر

دهش "سيلفنى" لرغبة أخيه فى مراقصة "فاديت الصغيرة"، فمن ناحيته كان يفضل ألا يفعل "لاندرى" ذلك ولم يعرف "لاندرى" كيف يفسر الأمر وتمنى لو اختبأ تحت الأرض، بالطبع كانت "مادلون" حزينة ورغم المرح الذى أشاعته "فاديت الصغيرة" بمهارة حركتها فإن مظهرها كان كئيبًا كما لو كانت شيطانًا متجسدًا وحانت نهاية الرقصة الأولى ففر "لاندرى" واختبأ فى بستان منزل صغير لكن لم تمر ثانية إلا وجاءت "فاديت" لتطارده ويحرسها "النطاط" الذى كان يرتدى ريشة طاوس وقطعة من المعدن الذى يشبه الذهب على طاقيته وكان يبدو أكثر غضبًا وصياحًا عن المعتاد واصطحبت "فاديت" مجموعة من الفتيات الأصغر منها سنًا لأن من هم فى مثل عمرها لا يخالطونها أبدًا وحين رآها "لاندرى" مع مجموعة الدواجن تلك التى أتت بها لتكون شاهدة عليه فى حالة رفضه خضع لها ومشى معها أسفل شجرة الجوز متمنيًا لو يعثر على ركن ليرقص معها دون أن يلاحظه أحد ولحسن حظه لم تكن "مادلون" ولا "سيلفنى" فى هذا المكان لذا أراد أن يستغل الفرصة وينتهى من مهمته فيرقص الرقصة الثالثة مع "فاديت" ولم يكن حولهم سوى غرباء فلم يعيروا الأمر اهتمامًا كبيرًا.

سريعًا ما انتهت الرقصة فجرى "لاندرى" يبحث عن "مادلون" ليدعوها لتأتى أسفل الشجرة لتناول الحنطة معه لكنها كانت ترقص مع صبية آخرين، ومع أنهم سمحوا لها أن تذهب لتأكل لكنها رفضت باعتزاز، ثم انزوت فى ركن وعيناها محملتان بالدموع، فالغيظ والاعتزاز بذاتها جعلاها أجمل من ذى قبل وقد لاحظها الجميع وأكلت مسرعة وقالت بصوت مرتفع وهى تقف:

- صلاة الستار قد حانت، مع من سأرقص بعدها؟

استدارت ناحية "لاندرى"، معتقدة أنه سيهم بالنطق:

- معى بالطبع!

لكن قبل أن يفتح أسنانه سبقه آخرون وقدموا أنفسهم، أما "فاديت" فقد رمقته بنظرة عتاب، دون أن تتنازل عن كبريائها ثم ذهبت إلى الصلاة مع الصبية الجدد.

عندما انتهت الصلاة خرجت "مادلون" مع "بيير أوباردو" يتبعهما "جون آلا دينيس" و"آتين آلا فيليب" والذين راقصوها الواحد تلو الآخر لأنها فى الحقيقة متميزة، فهى فتاة جميلة ومكتملة الأنوثة، رمقها "لاندرى" بطرف عينيه وظلت "فاديت الصغيرة" داخل الكنيسة تتلو صلوات طويلة بعد انتهاء الآخرين - وهو ما كان يتكرر فى جميع أيام الآحاد- سواء لتقواها الشديدة كما يرى البعض، أو كى تخفى بصورة أفضل علاقتها بالجن كما يرى البعض الآخر.

تألم "لاندرى" حين رأى "مادلون" لا تعيره أى اهتمام وكان وجهها متألقًا بالحمرة من فرط السعادة كما لو كانت ثمرة فراولة يانعة وأنها تجاوزت الإهانة التى اضطر أن يتسبب لها فيها، بل إنه تأكد حينها مما لم يخطر على باله من قبل وهو أنها تتدلل بما يفوق الحد وأنها فى جميع الأحوال ليست متعلقة به لدرجة كبيرة فها هى تستمتع دونه.

كان يعرف أنه المخطئ - على الأقل ظاهريًا - ولكنها رأته حزينًا تحت الشجرة وكان عليها أن تخمن أن هناك ما يريد شرحه لها، ولكنها على العكس لم تهتم بذلك مطلقًا، وأخذت تلهو مثل حَمَل صغير فى الوقت الذى انشق قلبه من العذاب.

بعد أن أرضت راقصيها الثلاثة اقترب منها "لاندرى" متمنيًا أن يتحدث معها سرًا وأن يفسر لها الموقف ولكنه لم يعرف كيف يصطحبها ليحدثها بعيدًا، فهو لا زال فى المرحلة العمرية التى لا يمتلك الصبى فيها الشجاعة الكافية ليتحدث مع النساء فلم يجد ما يقوله كى يأخذها من يدها ويصطحبها؛ ولكنها قالت له بلهجة يمتزج فيها الشعور بالغيظ مع الاعتذار:

- آه "لاندرى"! أجئت الآن لترقص معى فى النهاية؟

ولأنه لم يكن يعرف التصنع كما لم يعد مستعدًا بألا يفى بكلامه أجابها: لا ولكن لأحدثك فى أمر عليك أن تسمعيه.

فقالت له "مادلون" وهى تترك يده: آه! إذا كنت تريد أن تخبرنى بسر يا "لاندرى" فلتفعل فى وقت آخر لأن اليوم هو يوم الرقص واللهو فقط وأنا لا زلت أقف على قدمى، وإذا كانت الصرصارة قد أُنهِكت قدماها فاذهب واسترح أنت إذا أردت أما أنا فباقية.

ثم قبلت دعوة "جيرمان أودو" الذى جاء ليراقصها، وحين أدارت ظهرها سمع لاندرى "جيرمان" يتحدث عنه موجهًا كلامه إليها:

- يبدو أن هناك من يظن أن هذه الرقصة ستكون له؟

قالت "مادلون" وهى تهز رأسها: ربما، ولكن هذا لن يحدث إلا فى خياله.

وصدم "لاندرى" بالتأكيد من هذا الرد وظل على مقربة من مكان الرقص ليراقب كل انطباعات "مادلون" التى لم تكن بالطبع مبتذلة ولكنها كانت متكبرة وبها بعض الازدراء، مما أشعره بالغيظ وحين عادت ومرت بجانبه، بينما ينظر إليها بنظرة هازئة، قالت له بتبجح:

- والآن يا "لاندرى" ألا تجد من تراقصها اليوم؟ إذن ستضطر أيها اللطيف للعودة إلى الصرصارة.

أجاب "لاندرى": وأنا أريد العودة إليها عن طيب خاطر لأنها إن لم تكن أجمل فتاة فى الحفل فهى أفضل من ترقص فيه.

هنا دخل إلى الكنيسة يبحث عن "فاديت" واصطحبها إلى الرقص، فى مواجهة " مادلون" تمامًا ورقصا رقصتين متتابعتين دون أن يتركا مكان الرقص. كانت الصرصارة فخورة وسعيدة! ولم تخف فرحتها وعيناها السوداوان- اللئيمتان فى العادة - مضيئتان من السعادة، رافعة رأسها وطاقيتها الكبيرة مثل دجاجة رفيعة المقام.

لكن لسوء الحظ أغاظ انتصارها ما لا يقل عن خمسة أو ستة صبية ممن اعتادوا أن يراقصوها ولم يستطيعوا أن يقتربوا منها والحق أنهم لم يشعروا يومًا بالفخر لمراقصتها ولكنهم كانوا يقدِّرونها فقط لأنها ترقص بمهارة، فأخذوا يتهكمون عليها، ويهزءون بفخرها هذا وظلوا يتهامسون حولها:

- انظروا إلى الصرصارة التى تظن أنها فتنت "لاندرى باربو"، هذه الحشرة الثرثارة القبيحة... وشتائم أخرى مما يطلقونها فى بلدتهم.

الفصل السادس عشر

حين اقتربت منهم "فاديت الصغيرة" رأتهم يمدون أرجلهم ليعرقلوها كما انضم إليهم صبية أصغر سنًا غير معروفين فى المنطقة، وأخذوا يضربون جانبى طاقيتها ويلفونها من جانب إلى الثانى وهم يصيحون:

– ها هى قبعة الشرطى، قبعة الشرطى التى تخص "الأم فاديت"!

وجهت الصرصارة المسكينة – خمس أو ست ضربات إلى اليمين وإلى اليسار؛ ولكنها لم تفد إلا فى استثارتهم نحوها بصورة أكبر، وبدأ أهل المنطقة يرددون:

- لكن انظروا إلى الصرصارة يا لحَظِّها اليوم، إن "لاندرى باربو" يراقصها طوال اليوم! صحيح أنها ترقص بمهارة ولكن من تتفاخر مثل الطاوس هكذا، لابد وأن تكون جميلة.

وعندما وجهوا كلامهم لـــ"لاندرى" قالوا له:

– ربما أنها سحرت لك يا "لاندرى" المسكين، فلم تعد ترى غيرها، أو ربما أصبحت ساحرًا أنت الآخر وأننا سنراك قريبًا تقود الذئاب فى الحقول!

شعر "لاندرى" بالخزى، أما "سيلفنى" الذى يرى أنه ليس هناك من يستحق التقدير أكثر من أخيه فضاق من أنه موضع سخرية الجميع حتى الغرباء الذين انضموا إلى الواقفين أخذوا يتساءلون جميعهم ويقولون:

– إنه صبى جميل ولكن غريب الأطوار لأنه افتتن بأقبح فتاة فى الحفل.

وانضمت إليهم "مادلون" يغمرها شعور بالانتصار، فقد سمعت كل العبارات الهازئة وبلا أدنى شعور بالتعاطف، أضافت كلمتها هى الأخرى:

– ماذا تريدون؟ "لاندرى" ما زال طفلاً صغيرًا، وفى مثل عمره إذا لم نجد الشخص المناسب للحديث معه بالصدفة يصعب التمييز بين الطيب والخبيث.

أمسك "سيلفنى" بذراع "لاندرى"، وهو يهمس له:

- هيا بنا نرحل من هنا يا أخى وإلا غضبنا وثرنا لأنهم يسخرون، والشتائم التى يوجهونها إلى "فاديت الصغيرة" تعود بالمثل عليك، فى الحقيقة لا أعرف ما الذى ألمَّ بك اليوم لتراقصها أربع أو خمس مرات متتابعة وكأنك تبحث عن السخرية، انتهت هذه اللعبة أرجوك فهى معتادة وتحب التعرض لقسوة واحتقار الآخرين ولا تبحث إلا عن هذا, وهذا هو ذوقها ولكن الأمر ليس بالمثل بالنسبة

إلينا، هيا بنا ولنعد بعد صلاة التبشير حينها سترقص مع "مادلون" تلك الفتاة الرائعة كما ينبغى أن تكون الفتاة، كنت أقول لك دومًا إنك تحب الرقص كثيرًا وهو ما سيدفعك لتقوم بأشياء غريبة وبلا سبب منطقى.

تبعه "لاندرى" لخطوتين أو ثلاث ولكنه استدار حين استمع إلى صراخ؛ فرأى "فاديت الصغيرة" وقد حاصرتها "مادلون" وباقى الفتيات بسخرياتهن المستهترة كما انضم إليهن بعض الصبية فضربوا قبعتها، فانكشف رأسها وتشعث شعرها، وكان شعرها الأسود الطويل متدليا على ظهرها وهى تضربهم بكل غضب وحزن لأنها هذه المرة لم تقل ما يجعلها تستحق معاملة بهذا السوء فأخذت تبكى بشكل هيستيرى دون أن تستعيد طاقيتها التى رفعها أحد الصبية على طرف عصاه.

وجد "لاندرى" الأمر فى غاية القبح فقلبه يرفض كل أشكال الظلم فاعترض الفتى ونزع من يده الطاقية والعصا التى ضربه بها على مؤخرته، وعاد وسط الآخرين الذين لاذوا بالفرار حين ظهر وسطهم، وأمسك "فاديت" المسكينة بيده وأعاد لها طاقيتها.

أضحكت حماسة "لاندرى" وخوف الباقين أمامه الحاضرين فصفقوا إعجابًا به ولكن "مادلون" قلبت الأمر عليه فشرع صبية فى مثل عمره وأكبر منه بقليل فى الاستهزاء به.

هنا تخلص "لاندرى" من خوفه وأحس كم هو شجاع وقوى وقال له الرجل المكتمل الذى بداخله إنه يقوم بواجبه حين لا يسمح بسوء معاملة فتاة اختارها لترقص معه على مرأى ومسمع من الجميع قبيحة كانت أو جميلة؟ صغيرة كانت أو كبيرة. لاحظ "لاندرى" الطريقة التى ينظر رفاق "مادلون" إليه بها فتوجه إليهم مباشرة وكانوا من عائلتى "آلا دينيس" و"آلا فيليب"، وقال لهم:

- هيه، أنتم هناك.. ماذا كنتم تقولون؟ إذا كان الأمر يروقنى وأرغب أن أعطى اهتمامى لهذه الفتاة فماذا يضيركم فى هذا؟ وإذا أزعجكم هذا فلماذا تديرون ظهوركم وتتهامسون بذلك؟ ألست أمامكم؟ ألا تروننى؟ سمعت من يقول إننى لا أزال طفلاً صغيرًا؛ ولكننى لا أرى بينكم رجلاً أو حتى صبيًا كبيرًا يجرؤ أن يعيد ذلك أمامى!! أنا أنتظر أن يكلمنى أحدكم، وسنرى أن أحدكم لن يجرؤ على مضايقة الفتاة التى يراقصها الطفل الصغير.

لم يترك "سيلفنى" أخاه طوال الوقت وعلى الرغم من أنه لم يستحسن إطلاقًا تصاعد هذا الشجار فإنه كان مستعدًا تمامًا لدعم أخيه. كان هناك أربعة أو خمسة صبية كبار ممن يفوقون التوأم طولاً ولكنهم حين رأوهما مصممين وعازمين ولأنهم بالتأكيد يعرفون أنهما لا يتشاجران إلا فيما ندر- وهو ما يجب أخذه فى الاعتبار- لم ينطقوا بكلمة وأخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض وكأنهم يتساءلون

عمن يرغب فى التبارى مع "لاندرى" ولم يجرؤ أحد على تقديم نفسه لهذه المهمة، أما "لاندرى" الذى لم يكن قد ترك يد "فاديت" قال لها:

- البسى طاقيتك سريعًا يا "فونشون" وهيا نكمل الرقص ولنرَ إذا كان بمقدور أحد أن يرفعها عنك.

قالت "فاديت الصغيرة" وهى تجفف دموعها: كلا، لقد رقصت بما يكفى اليوم وسأرحل.

أجابها وهو متقد بنار الحماسة والاعتزاز: كلا؛ كلا. علينا أن نرقص ثانية، لن يقال أبدًا إنك لا تستطيعين أن ترقصى معى دون أن تتعرضى للإهانة.

ورقصا معًا ولم يوجه إليهما أحد كلمة ولا نظرة من أى اتجاه ورقصت "مادلون" وعشاقها أيضا، وبعد هذه الرقصة همست "فاديت الصغيرة" لـــ"لاندرى":

- الآن يكفى هذا يا "لاندرى" وأنا سعيدة لما فعلت، كما أعفيك الآن من تعهدك وسأعود إلى المنزل، ولترقص أنت مع من تريد ما بقى من الليلة.

غادرت "فاديت" المكان مصطحبة أخاها الصغير الذى كان يتشاجر مع أطفال آخرين ومشت مسرعة حتى إن "لاندرى" لم يتبين أى طريق سلكت.



الفصل السابع عشر

تناول "لاندرى" العشاء فى منزله مع أخيه الذى كان مهمومًا للغاية بسبب كل ما حدث فى هذا اليوم، لذا روى له "لاندرى" كيف أنه كاد يقع فريسة للجنية التى ظهرت له على هيئة نار البارحة وكيف أن "فاديت الصغيرة" أنقذته منها، سواء بفضل شجاعتها أو عن طريق السحر، وأنها طلبت فى مقابل ذلك أن يرقص معها سبع رقصات فى يوم عيد "القديس أندوش" مكافأة لها.

لم يكمل له ما تبقى من الحكاية فلم يشأ أن يخبره عن الخوف الذى تملكه فى العام الفائت حين ظن أنه غرق وكم كان حكيمًا لأن هذه التصرفات السيئة التى قد تأتى على بال الأطفال تعود مرة أخرى حين ينتبه إليها الآخرون أو يتحدثون عنها.

استحسن "سيلفنى" ما فعله أخوه حين وفى بوعده وقال له إن ما تعرض له اليوم من مضايقات يزيد بالتأكيد من قدر الاحترام والتقدير الذى يستحقه لأنه كان يفى بوعد قطعه على نفسه، لكن على الرغم من شعوره بالرعب من الخطرالذى أحدق بـ"لاندرى" فى النهر، فإنه لم يشعر بالعرفان تجاه "فاديت الصغيرة" إذ كان يتملكه نفور شديد منها ولم يرد أن يصدق أنها لاقته بالأمس مصادفة أو أنها فعلت ما فعلته معه بدافع الطيبة.

قال له: إنها هى بالتاكيد التى عزَّمت على الجنية كى تشوِّش على عقلك وتغرقك ولكن الله لم يمكنها لأنك لم تقترف فى حياتك رذيلة قاتلة، لذا فقد استغلت تلك الصرصارة الخبيثة طيبتك وعرفانك بالجميل لتفى بوعدك لها. تعرف تمام المعرفة أن هذا الأمر ضار ومؤذ لك، كم هى شريرة تلك الفتاة، فكل السحرة يميلون إلى الشر وليس بينهم طيبون على الإطلاق وهى تعلم أن هذا الوعد سيفسد علاقتك مع "مادلون" وباقى معارفك المخلصين، كما أنها أرادت لك أن تتقاتل؛ ولولا أن الله حماك للمرة الثانية من شرها، لدخلت فى صراع بالأيدى وأدركك الشقاء.

استمع "لاندرى" عن طيب خاطر إلى وجهة نظر أخيه ورأى أنه محق، ولم يدافع قط عن "فاديت الصغيرة" أمامه ثم تحدثا عن الجنية والتى لم يرها "سيلفنى" من قبل ولكنه شغوف بالسمع عنها دون أن يتمنى مصادفتها. لكنهما لم يجرؤا على الحديث عنها مع والدتهما لأنها لم تكن تخشى من شىء سوى التفكير فيها؛ كما لم يخبرا أباهما خشية أن يسخر منهما، فقد رآها لأكثر من عشرين مرة دون أن يعيرها انتباهًا.

استمر الرقص حتى ساعات متأخرة من الليل؛ لكن "لاندرى" كان متألمًا من فرط غضبه من "مادلون"، ولم يرد أن يستفيد مطلقًا من تحرره من "فاديت" وراح يساعد أخاه فى جمع ماشيته من

المرعى فوصل إلى منتصف الطريق إلى "البريش" وكان يشعر بألم في رأسه فودَّع أخاه في نهاية المنطقة العشبية.

أراد "سيلفنى" ألا يذهب أخوه ليمر بمعبر "روليت" خشية أن يتعرض ثانية لخدعة ترتبها له الجنية مع الصرصارة فوعده أن يسلك الطريق الأطول وأن يعبر من عند لوحة الطاحونة الكبيرة.

فعل "لاندرى" ما أراده أخوه وبدلاً من عبور المنطقة العشبية هبط الطريق الذى يمتد بطول ساحل الــ"شوموا"، لم يخش شيئًا لأن أصوات الاحتفال كانت لا تزال منتشرة في الهواء فسمع من بعيد أصوات المزامير وصرخات الراقصين عند" القديس أندوش"، كما كان يعلم أن الأرواح لا تقوم بمغامرات إلا حين ينام الناس في البلدة.

حين بلغ نهاية الساحل بمحاذاة الطريق سمع صوتًا ينوح ويبكى وفى البداية ظنه كروانًا ولكن حين اقترب تبين أنه صوت بشرى ولأن قلبه لا يخطئ أبدًا حين يتعلق الأمر بأناس فى محيطه خصوصًا حين يحمل لهم المساعدة فنزل بسرعة في أشد أجزاء الطريق وعورة.

لكن الشخص الذى ينتحب صمت حين أحس به يقترب.

سأل "لاندرى" بصوت حازم: من يبكى هنا؟

ولكن لم يجب أحد.

سأل ثانية: هل هناك شخص مريض؟

وحين لم يجب أحد فكر فى الذهاب إليه ولكن قبل ذلك تفحص الحجارة والنباتات الشائكة التى تحيط بموضع الشخص، وسريعًا ما تبين -على ضوء القمر الذى بدأ فى الظهور- شخصًا ممددًا على الأرض ولا يحرك ساكنه فكأنه ميت أو ما يشبه ذلك، أو مرتمٍ على هذا النحو من فرط الأسى ولا يتحرك كى لا يلاحظه أحد.

لم يكن "لاندرى" قد رأى أو لامس شخصًا ميتًا من قبل، وأثارت فيه فكرة أن يكون هذا الشخص ميتًا الكثير من المشاعر لكنه تجاوز جزعه كى يقوم بواجبه ويساعده فتحرك بعزم ليحرك يد هذا الشخص الممدد الذى رفع جذعه حين اقترب منه "لاندرى" وهنا تبينه "لاندرى" على الفور، إنها.. "فاديت الصغيرة".

الفصل الثامن عشر

فى البداية شعر "لاندرى" بالحنق لكونه مجبرًا على مقابلة "فاديت الصغيرة" دائمًا فى طريقه، لكن ولأنه بدا عليها أنها تعانى من شىء ما فقد شعر بالشفقة نحوها، ثم دار بينهما هذا الحوار:

– من؟ الصرصارة؟ أأنت التى تبكين بهذا الشكل؟ هل ضربك أحدهم أو طاردك حتى إنك تتألمين وتختبئين هنا؟

– كلا "لاندرى" لم يضايقنى أحد بعد أن دافعت أنت عنى بجسارة إلى جانب أننى لا أخشى أحدًا. أنا أختبئ كى أبكى وهذا كل ما فى الأمر لأنه من الحمق أن تظهر ألمك للآخرين.

- لكن لماذا تتألمين إلى هذا الحد؟ بسبب إيذاء الحاضرين لك اليوم؟ إن جزءًا من الخطأ يعزى إليك أنت يا "فاديت" ولكن عليك أن تهوّنى على نفسك وأن تتجنبى المواقف المشابهة بعد الآن.

- لماذا تقول إنه خطئى أنا يا "لاندرى"؟ هل ارتكبت جرمًا حين تمنيت أن أرقص معك؟ وهل أنا الفتاة الوحيدة التى لا تمتلك الحق فى قضاء وقت ممتع مثل الآخرين؟

- ليس الأمر على هذا النحو يا "فاديت" وأنا لا ألومك أبدًا على رغبتك فى الرقص معى، لقد فعلت ما تمنيت وتصرفت معك

كما وجب عليّ أن أفعل. خطؤك قديم يعود إلى ما قبل اليوم بكثير وهو ليس بحقى أنا، بل أخطأت بحق نفسك وأنت تدركين ذلك تمامًا.

- على الإطلاق يا "لاندرى"، بقدر ما أؤكد حبى لله، أؤكد لك أننى لا أعرف عمَّ تتحدث، فأنا لا أفكر أبدًا فى نفسى وإذا كنت ألوم نفسى على شيء فإننى ألومها لأننى سببت لك ضيقًا دون قصد منى.

- الأمر لا يتعلق بى يا "فاديت" فأنا لا أشكو منك على الإطلاق، بل علينا أن نتحدث عنك، وبما أنك لا تعرفين شيئًا عن أخطائك فهل ترغبين أن أحدثك عنها بكل صدق وبكل محبة؟

- نعم يا "لاندرى" أحب ذلك، وفى تصورى أن ذلك سيكون أفضل مكافأة أو أفضل عقاب يمكن أن تمنحنى إياه فى مقابل الخير أو الأذى الذى سببته لك.

- حسنًا يا "فونشون فاديت"، ولأنك تتكلمين بتعقل شديد للمرة الأولى فى حياتك أراك رقيقة ولينة الحديث. سأخبرك لماذا لا يحترمك الناس كما ينبغى لفتاة فى السادسة عشرة يلزمها بالتأكيد هذا الاحترام، فمرد ذلك أنك لا تتصفين بأىٍّ من صفات الفتيات، بل تتصفين بكل مواصفات الصبيان سواء فى مظهرك أو فى طريقتك، فأنت لا تلتفتين لما أنت عليه، وبداية فإنك تبدين دائمًا قذرة وغير معتنية بنفسك كما تبدين قبيحة بملابسك ولغتك التى تستخدمينها، تعرفين بالطبع أن الأطفال يلقبونك بما هو أسوأ من الصرصارة، فهم

يطلقون عليك "الولد الفظ". أتعتقدين أن ذلك يناسب الستة عشر عامًا، لماذا لا تعتنين بمظهرك مثل أى فتاة فى سنك؟ إنك تتسلقين الأشجار مثل قطة شقية، وحين تقفزين على ظهر حصان دون لجام أو سرج وتركضين به فيبدو كما لو أن شيطانًا قد ركبه، من الجميل أن يكون الإنسان قويًا ورشيقًا، وجميل أيضًا ألا يهاب شيئًا ولكن تلك فى الغالب صفات الرجال، لكن بالنسبة إلى امرأة فإن زيادة الشيء عن الحد المعقول لا يناسبها، فأنت تبدين كأنك ترغبين فى جذب الانتباه إليك لهذا تجدى الناس يُبدون دائمًا ملحوظاتهم عليك ويعذبونك ويطاردونك وهم يصرخون كما يطاردون الثعالب وأنتِ أيضًا موفورة الذكاء وتردين على كلامهم بجمل لاذعة، فتُضحِكى الحاضرين الذين لا تُوجَّه لهم عباراتك, جميل أيضًا أن يكون الإنسان أذكى من الكثيرين ولكن حين نباهى بذلك فإننا نخلق لأنفسنا الأعداء، وأنت فضولية وحين تكتشفين أسرار الآخرين تلقينها فى وجوههم بكل غلظة ثم تشتكين من رد فعلهم، هذا ما يجعلهم يكرهونك، ومن الطبيعى أن نحتقر من نكره ونرد له الألم أضعاف ما سببه لنا، وأخيرًا سواء أكنت ساحرة أم لا، فأنا أميل إلى الاعتقاد بأنك على معرفة بالأرواح ولكن أتمنى ألا تكون علاقاتك بأرواح شريرة؛ فأنت تلجئين إليهم وتظهرينهم لتروعى بهم من يغضبونك، وهو بالطبع صيت سيئ اشتُهِرتِ به، ها هى كل عيوبك "فونشون فاديت"، وبسبب هذه العيوب يعاملك الناسِ على هذا النحو، اجترِّى الأحداث وسترين

أنك إذا أردت أن تصبحى مثل الآخرين فسوف يشكر لك الناس مزاياك التى تعرفينها.

أجابته "فاديت" وقد اكتست بالجدية بعد أن استمعت إليه باستكانة تامة: أشكرك كثيرًا يا "لاندرى". لقد قلت تقريبًا ما يلومنى عليه كل الناس ولكن أسلوبك كان أكثر صدقًا وترتيبًا وهو ما لم يفعله الآخرون قط ولكن أترغب فى أن أجيبك الآن ولهذا أتمانع أن تجلس بجانبى دقائق معدودة؟

قال "لاندرى" الذى كان لا يعتزم إطلاقًا أن يطيل معها، وهو يفكر دائمًا فى الأعمال التى قيل إنها تلقيها على من لا يأخذون حذرهم: المكان غير مقبول على الإطلاق.

أجابته: أنت لا تجد المكان مقبولاً لأنك من الأغنياء وأنتم شخصيات صعبة. لابد لك من أرض وارفة خضراء لتجلس عليها ويمكنك أن تختارها من وسط مراعيك وحدائقك حيث أجمل الأماكن وأوفر الظلال، بينما من لا يمتلكون شيئًا لا يطلبون كثيرًا من الله ويقنعون بأول حجر يجدونه ليريحوا رأسهم فوقه، فالأشواك لا تجرح أبدًا أقدامهم وحيثما كانوا لا يتوقفون عن ملاحظة كل ما هو جميل وجذاب فى السماء وعلى الأرض، ما من مكان قبيح يا "لاندرى" فى نظر هؤلاء الذين يدركون حقيقة كل ما خلقه الله ورقّته، فأنا أعرف - دون أن أكون ساحرة- الجمال الكامن فى أصغر الأعشاب التى

تدهسها أنت تحت أقدامك وحين أدرك أهميتها أنظر إليها دون أن أقلل من شأن عطرها أو شكلها وأقول لك هذا الكلام يا "لاندرى" كى أعلمك شيئًا آخر يتصل بالنفوس المسيحية كما يتصل بزهور الحدائق أو بالأشواك التى تعترضك على الطريق وهو أن الناس عادة ما تحتقر ما لا يبدو لهم جميلاً أو حسنًا وبهذا يكونون قد حرموا أنفسهم مما قد يسعفهم أو يعينهم أو يشفيهم.

قال وهو يجلس بالقرب منها: لم أفهم جيدًا ما تعنينه يا "فاديت".

وظلا لبرهة دون كلام لأن "فاديت" كانت تُحلِّق مع أفكارها التى لا يعرف "لاندرى" شيئًا عنها، أما بالنسبة إليه ورغم أنه عانى من بعض التشتت الذهنى بسبب كلامها، فإنه لم يستطع منع نفسه من الشعور بالسعادة لسماع هذه الفتاة؛ لأنه لم يسمع قط فى حياته صوتًا رقيقًا وكلامًا مرتبًا كصوت "فاديت" وكلامها فى هذه اللحظة.

وقالت له: اسمعنى يا "لاندرى"، إننى أستحق الشفقة أكثر من اللوم وإذا كنت قد أخطأت فى حق نفسى فعلى الأقل لم أقترف خطأ حقيقيًا فى حق غيرى، وإذا كان الناس يتحلون بالعدل والتعقل لالتفتوا إلى قلبى الطيب أكثر من التفاتهم إلى مظهرى القبيح وملابسى السيئة واسترجع معى أو اعلم منى إذا كنت لا تعلم ماذا كان قدرى منذ جئت إلى الدنيا، ولن أقول لك شيئًا عن أمى المسكينة التى يلومها

الجميع ويسُبُّها رغم أنها غير موجودة لتدافع عن نفسها، ودون أن أستطيع أنا أن أفعل ذلك، فأنا لا أعلم إن كانت بالفعل قد قامت بما هو مشين أو ما الذى دفعها إلى ذلك، آه!! إننا نعيش فى عالم شديد القسوة يا "لاندرى"، فمجرد أن تركتنى أمى وبينما كنت لا أزال أبكيها بمرارة كان الأطفال الآخرون إذا شعروا بأقل ضيق من جانبى من أجل لعبة أو من أجل شىء تافه مما يغفرونه لبعضهم البعض وبّخونى على غلطة أمى وأجبرونى على الخجل منها وربما إذا حدث هذا الموقف مع فتاة متعقلة - كما تقول- لتوارت فى صمت معتقدة أنه من الحكمة أن تترك قضية أمها وتدع من يهينها لتحمى نفسها لكن أنا كما ترى لم أستطع. فهذا يفوق قدرتى لأن أمى ستظل دائمًا أمى وسواء أكانت على ما يريدها الناس أن تكون أم لا، وسواء وجدتها أو حتى لم أسمع كلمة عنها، فسأظل على حبى لها دائمًا بكل طاقة قلبى وهكذا حين ينادوننى بـ"ابنة اللعوب"، أو "ابنة بائعة الخمر" فيجن جنونى من الغضب، ليس بسبب ما مُنيت به من إهانة؛ فأنا أعلم أن ذلك لا يسوؤنى فى شىء، لأننى لم أفعل ما أخشى منه؛ بل أغضب لأجل تلك الغالية المسكينة التى من واجبى أن أدافع عنها. وحين لا أستطيع أن أدافع عما فعلته أثأر لها فأقول للآخرين الحقائق التى يستحقون أن يسمعوها فأكشف لهم أنهم ليسوا أفضل من التى يرمونها بالحجارة، لذا يقولون إننى فضولية وغير مهذبة لأننى أكتشف أسرارهم وأفشيها، صحيح أن الله خلقنى فضولية وهذا يعنى

رغبة الإنسان فى معرفة الأمور المخفية، ولكن إذا كان الناس طيبين وتعاملوا معى بإنسانية لما فكرت أن أشبع فضولى هذا على حسابهم ولاقتصرت تسليتى على معرفة الأسرار التى نقلتها إلىَّ جدتى، الخاصة بعلاج الجسم البشرى من أسرار الزهور والأعشاب والصخور حتى الذباب وكل أسرار الطبيعة، فهى تحوى كل ما يكفى ليشغلنى ويسلينى وأنا ذات طبيعة تحب الطواف والتنقيب وكان ذلك جديرًا بأن أكتفى بنفسى دون أن أعرف الملل، فمتعتى الكبرى هى أن أذهب إلى الأماكن التى لا يتردد عليها الناس وأمكث بها، أفكر فى عشرات الأمور التى لا أستطيع أن أتحدث فيها مع أحد ممن يظنون أنفسهم حكماء وصائبى الرأى وإذا كنت قد تركت نفسى لأنجذب إلى التعامل مع الآخرين فذلك بسبب رغبتى فى تقديم المساعدة مستخدمة المعرفة البسيطة التى أوتيتها والتى تستفيد منها جدتى نفسها دون أن تتحدث فى هذا، وبدلاً من أن يشكرنى بامتنان كل الأطفال الذين داويت لهم جروحهم وأمراضهم والذين علمتهم العلاج الذى أستخدمه دون أن أطلب المقابل كنت أعامل على أننى ساحرة، وحتى من جاءوا لى ليرجونى بكل رقة حين كانوا فى حاجة إلىَّ وجهوا إلىّ كل الإهانات بعد ذلك فى أقرب فرصة.

بالطبع آلمنى ذلك وكنت أستطيع أن أؤذيهم، فكما أعرف ما يمكن أن ينفع أعرف ما يمكن أن يضر ومع ذلك لم أستخدمه قط، فأنا لا أعرف الحقد أبدًا وإذا كنت أثأر لنفسى بالكلام فأنا أخفف عن

نفسى بنطق كل ما هو على طرف لسانى وبعدها لا أفكر فى الأمر وأغفره تمامًا كما أمرنا الله أن نفعل، أما بالنسبة إلى أننى لا أعتنى بمظهرى ولا بطريقتى فى الحديث فذلك لأننى لست حمقاء لأظن نفسى جميلة لأننى أعلم تمام العلم أننى قبيحة لدرجة أنه ما من شخص يمكن أن ينجذب لى وقد قال لى الناس ذلك كثيرًا حتى حفظته؛ وعند رؤية قسوة الناس الذين يحتقرون أولئك الذين لم يمُن الله عليهم بجمال الشكل أشعر بالسعادة لأننى لا أعجبهم وأواسى نفسى بفكرة أن مظهرى ليس به ما يُنفِّر الله أو يُنفِّر ملاكى الحارس ولن يلومونى على ذلك أكثر مما أستطيع أنا أن ألومهم عليه، لذلك فلست كمن يشعرون بالازدراء وهم يقولون: أوه.. دودة... يا لها من كائن مقزز؛ آه، كم هى قبيحة، يجب قتلها!!! أنا لا أدهس أبدًا الكائنات المسكينة التى خلقها الله وإذا سقطت أمامى دودة فى المياه أمد إليها ورقة لتنجو ومن أجل هذا يصفوننى بأننى ساحرة لأننى أحب الكائنات القبيحة، فأنا لا أحب أن أسبب معاناة لضفدع أو أن أنتزع أرجل دبور أو أن أسمر خفاشًا حيًا على شجرة، بل أقول لكل منها: أيها الكائن المسكين، لو كان لزامًا قتل كل ما هو قبيح فلن يكون لى – مثلك تمامًا – الحق فى الحياة.

الفصل التاسع عشر

استمع "لاندرى" بتأثر بالغ إلى "فاديت الصغيرة" وهى تتحدث عن قبحها ببساطة وهدوء شديدين وقال وهو يتذكر مظهرها الذى لا يراه الآن بسبب الظلام الشديد ودون أن يتعمد مدحها:

- لكن يا "فاديت" أنت لست قبيحة كما تظنين أو كما تريدين أن تقولى، فهناك من هن أكثر قبحًا منك ولكن ما من أحد يلومهن على قبحهن.

- سواء كنت أقل أو أكثر منهن قبحًا ففى الحالتين يا "لاندرى" لا تستطيع أن تقول إننى جميلة، أرجوك لا تحاول أن تخفف عنى هذا الأمر لأنه لا يحزننى أساسًا.

- يا إلهى!! من يعرف كيف ستكونين إذا ارتديت ملابس مناسبة وصففت شعرك بعناية مثل الأخريات؟ وهناك أمر يتفق عليه الجميع وهو أنه إذا لم يكن أنفك بهذا الصغر وفمك بهذا الكبر وبشرتك بهذه السمرة الشديدة لصنفت فى عداد الجميلات لأن الجميع متفق أيضًا على أنه من بين كل من فى البلدة لا توجد عينان مثل عينيك وإن لم تكن نظرتك تحوى هذا القدر من الوقاحة والاستهزاء لأحب الناس أن تنظر إليهم هاتان العينان.

تكلم "لاندرى" دون أن يدرك ما يقول فوجد نفسه مسترسلاً فى تذكر كل عيوب "فاديت" ومميزاتها وللمرة الأولى يعطيها انتباهًا واهتمامًا كبيرين لم يكن يعتقد أنه قادر على إعطائهما لها قبل ذلك بلحظة واحدة، وأخذت هى حذرها لكن دون أن يبدو عليها شيئًا، فكانت فطنة للغاية بحيث ظلت على جديتها، وهى تقول:

- عيناى ترى باستحسان كل ما هو جميل وبرأفة وعطف كل ما هو قبيح، كما لا يضايقنى إطلاقًا ألا أنال إعجاب من لا أعجب بهم أنا ولا أفهم فى الحقيقة لماذا تتدلل كل الفتيات الجميلات واللاتى أراهن متملقات حين يتحدثن إلى أى فتى؟ وأتساءل حينها هل هن معجبات بالفتيان جميعًا إلى هذا الحد؟ أما أنا إذا كان الله قد قدر لى أن أكون جميلة لما كنت لأظهر ذلك للجميع، بل أخص بإظهاره الشخص الذى يناسبنى ويعجبنى فقط.

تذكر "لاندرى" "مادلون" ولكن "فاديت" لم تتركه مع أفكاره تلك وأكملت حديثها:

- تلك هى كل أخطائى يا "لاندرى" فى حق الناس، إنها باختصار عدم سعيى إلى التماس الشفقة أو العطف على قبحى، فأنا لا أخجل من نفسى ولا أوارى قبحى وهو ما يزعجهم ويجعلهم ينسون الخير الذى أقدمه إليهم وينسون أننى لم أؤذ أحدًا فى حياتى، ومن ناحية أخرى إذا اعتنيت بمظهرى فمن أين أستطيع أن أستمد

الشجاعة؟ هل استجديت من أحد المال طوال حياتى بخاصة وأننى معدمة؟ ماذا تعطينى جدتى بخلاف المأوى والمأكل؟ أنا لا أعرف كيف أستخدم أغراض أمى القديمة التى تركتها لى؟ أهو خطئى؟ لم يعلمنى أحد ذلك ومنذ عمر العاشرة وأنا مهملة دون أن يمنحنى أحد الحب أو الشكر أو الكلمة الطيبة. أنا أعلم ما يقوله الناس عنى ولم تقله أنت لى من فرط عطفك؛ يقولون إننى بلغت السادسة عشرة وأستطيع أن أعمل بالأجرة وبذلك أضمن لنفسى على الأقل الطعام ولكن ميلى إلى الكسل والتسكع يبقينى بالقرب من جدتى التى لا تطيقنى كما أن لديها المال الذى تستطيع به أن تستأجر خادمة .

- كلا يا "فاديت" هذه ليست الحقيقة، فالناس يلومونك لأنك تكرهين العمل، وجدتك نفسها تقول لكل من يستمع إليها إنه من الأفضل لها أن تستأجر خادمة بدلاً منك.

- جدتى تقول هذا لأنها تهوى التذمر والشكوى الدائمة ومع ذلك حين أتحدث معها عن رغبتى فى تركها تحاول جاهدة أن تستبقينى لأنها تعلم أننى أفيدها أكثر مما تحب أن تعترف، فلم تعد لديها قوة النظر ولا القدمان الكافيتان لتبحث عن الأعشاب اللازمة لصنع الأدوية والشراب والمساحيق التى تستخدمها فى علاج الآخرين والتى يتطلب البحث عنها الذهاب إلى أماكن بعيدة ووعرة أحيانًا، وحين أخبرتها ذات مرة أننى وجدت نفسى وسط "أعشاب الحقيقة" والتى لم تكن تعلم عنها شيئًا اندهشت خصوصًا حين صنعت

منها مادة مخدرة ولمست بنفسها تأثيرها المفيد، أما عن الماشية فهى بصحة جيدة بحيث لا تتصور رؤية مثل هذا القطيع عند أناس لا يمتلكون مراعى خاصة سوى مراعى البلدة ومع هذا فإن جدتى تعلم أنها مدينة لى بالفضل فى امتلاكها قطيع له صوف بهذه الجودة وعنزات لبنها بهذه الوفرة، كما رأيت لا يمكن أن يكون لديها الرغبة فى أن أتركها فهى تستفيد منى أكثر مما أكلفها، ومع هذا كله فإننى أحب جدتى رغم أنها تعنفنى وتحرمنى من أشياء كثيرة ولكن فى الحقيقة هناك سبب آخر يجعلنى لا أتركها ويمكن أن أحدثك عنه إذا كنت ترغب يا "لاندرى".

أجابها "لاندرى" الذى أصبح لا يمل من سماعها: طبعًا أخبرينى يا "فاديت".

- حين تركتنى أمى ولم أكن قد تجاوزت العاشرة تركت لى على ذراعى طفلاً صغيرًا قبيحًا بنفس قدر قبحى ولكن مكروه أكثر منى، لأنه أعرج منذ ميلاده وهزيل وكثير المرض ومعوج، ودائمًا حزين وسليط اللسان لشدة ما يعانى هذا الصبى المسكين طوال الوقت!! والناس تزيد من همه، يلفظونه ويذلونه، أوه يا "نطاطى" المسكين!! وجدّتى كانت لتوبخه بقسوة وتضربه كثيرًا لو لم أحميه أنا منها فأتظاهر بأننى أضربه بدلاً منها، ولكننى أحرص ألا ألمسه بشكل حقيقى وهو يعلم ذلك جيدًا فحين يرتكب خطأ ما يسرع ليختبئ ملتفًا فى جونلتى ويقول لى: "اضربينى قبل أن تأتى هى وتضربنى!".

وأتظاهر أنا بضربه والماكر يتظاهر بالبكاء، إلى جانب أننى أعتنى به. صحيح أن هذا الصغير المسكين أحيانًا ما يرتدى لبسًا ممزقًا ولكن حين تتوفر لدىَّ بعض الثياب القديمة أرقعها ليرتديها وأداويه حين يمرض وبالطبع لو كانت جدتى هى من تعتنى به لتركته يموت لأنها لا تصبر مطلقًا على الاعتناء بالأطفال، باختصار فإن وجودى بجانب هذا الضعيف المسكين قد يحفظ حياته ودونى لأصبح بائسًا تمامًا أو لرقد فى الثرى بجوار أبى والذى لم أستطع حمايته من الموت ولا أدرى إن كنت قد أسديت له معروفًا حين تركته يعيش وهو معوج وغير سعيد كما هو؛ ولكن لم أستطع أن أفعل سوى ذلك يا "لاندرى" وحين أفكر فى القيام ببعض الأعمال الأخرى كى أجنى بعض المال لى وأقتلع نفسى من الشقاء الذى أحيا فيه يخفق قلبى من الشفقة عليه ويلومنى وكأننى أم هذا "النطاط" الصغير وكأنه سيهلك من جراء خطئى أنا، تلك هى كل أخطائى ونواقصى يا "لاندرى" والآن إذا كان الله يرانى ويعرف حقيقتى فإننى أغفر لهولاء الذين لا يعرفوننى جيدًا.

الفصل العشرون

استمع "لاندرى" إلى "فاديت" وركز فى كلامها ولم ير عيبًا فى أىٍّ من الأسباب التى شرحتها، وفى النهاية جاء حديثها عن أخيها الصغير "النطاط" مؤثرًا للغاية وكأنه شعر فجأة بود شديد لها وتمنى لو يقف إلى جانبها أمام الناس كافة.

وقال لها: هذه المرة يا "فاديت" فإن من يقول إنك مخطئة يكون هو المخطئ قبلك لأن كل ما قلته معك حق فيه ولا يمكن لأحد أن يشكك فى طيبة قلبك أو فى حصافة عقلك، فلماذا لا تُعرِّفى الناس حقيقتك؟ فلا يتحدث أحد عنك بما يسىء، ويحكمون عليك بما تستحقينه.

- قلت لك يا "لاندرى" لا أحتاج إلى إعجاب من لا ينالون إعجابى.

- لكن إذا كنت قد أظهرت لى أنا حقيقتك فهذا يعنى...

توقف "لاندرى" عن الكلام، وهو يفكر فيما جال بخاطره ولم ينطقه؛ ثم تابع الكلام:

- هذا يعنى أنك تقدريننى أكثر من تقديرك للباقين؟ على الرغم من اعتقادى أنك تكرهيننى لأننى لم أكن أبدًا منصفًا معك.

وأجابته: من الممكن أن أكون قد كرهتك قليلاً من قبل ولكن انتهى هذا اعتبارًا من اليوم، وسأخبرك لماذا كرهتك يا "لاندرى"؛ لقد ظننتك متعاليًا ولكنك تخليت عن تعاليك لتفى بوعدك وهو ما تستحق عليه التقدير والاحترام. كنت أراك ناكرًا للجميل وهو أمر طبيعى لأن التعالى الذى لقَّنوك إياه يدفعك إلى أن تكون كذلك إلا أنك شديد الوفاء لوعودك فلا يمنعك أى شىء عن الوفاء بها، ثم إننى كنت أظنك جبانًا ولهذا كنت أحتقرك، إلا أننى فهمت أنك فقط متأثر ببعض الخرافات وأن الشجاعة – حين يتعلق الأمر بمواجهة خطر محقق – لا تنقصك، فقد رقصت معى اليوم رغم كونك خجلاً من الرقص معى أمام الناس وجئت أيضًا لتبحث عنى داخل الكنيسة بعد "صلاة الستار" وحينها كان قلبى قد عفا عنك بعد صلاتى ولم أفكر فى تعذيبك أكثر من ذلك، كما دافعت عنى أمام أطفال خبثاء وأثرت حفيظة صبية كبار كانوا من الممكن أن يؤذونى.. والآن حين سمعتنى أبكى جئت لتبقى معى وتواسينى، لا تظن أبدًا يا "لاندرى" أننى سأنسى شيئًا من هذا وستشهد أنت طوال حياتك أننى سأحتفظ بتلك الذكريات وأنت أيضًا بإمكانك أن تتحدث معى عما تريده فى أى وقت، وهناك موضوع آخر أود أن أحدثك فيه.. أعلم أننى سببت لك ألمًا كبيرًا اليوم، نعم أعلم يا "لاندرى" فمن قبل استطعت أن أخمن ذلك واليوم لم يعد لدىَّ شك فيه لكن تأكد أننى فعلت ذلك بمكر طفولى أكثر منه شر مقصود ولو تأكدت قبل اليوم أنك تحب "مادلون" لما كنت تسببت فى

هذا التشويش بينكما حين أجبرتك على الرقص معى، بالطبع أسعدنى أن ترقص معى وأنا فتاة قبيحة لتترك فتاة جميلة مثل "مادلون" ولكننى تعاملت مع الأمر على أنه ضربة لغرورك ولكن عندما أدركت تدريجيًا أنه جرح حقيقى لقلبك لأنك دون أن تقصد كنت تنظر نظرة خفية إلى "مادلون" من وقت إلى آخر وأحزنك شعورها بالغيظ من رقصك معى وجعلك تبكى وفى تلك اللحظة بكيت أنا أيضًا، نعم بكيت!! فى الوقت الذى جئت فيه لتضرب الصبية معتقدًا أن دموعى كانت بسبب ما فعلوه معى. وهذا هو السبب ذاته الذى من أجله بكيت هنا بمرارة حين فاجأتنى الآن وسأظل أبكى إلى أن أكفِّر عن الذنب الذى اقترفته فى حق صبى طيب وشجاع مثلك تأكدت من فضائله الآن.

قال لها "لاندرى" وهو متأثر بالدموع التى بدأت تذرفها مجددًا: ولو افترضنا يا عزيزتى "فونشون" أنك تسببتِ لى فى مشكلة مع الفتاة التى أحبها كما تقولين، ما الذى تستطيعينه لتصلحى ما بيننا؟

وأجابت "فاديت الصغيرة": ثق بى يا "لاندرى" فأنا لست غبية كى أخفق فى تفسير الأمر كما ينبغى وستعرف "مادلون" أن الخطأ صدر منى أنا. سأعترف لها وسأصحح صورتك عندها لتراك مثل الملاك وإذا لم تستعِد مودتها لك غدًا فهذا معناه أنها لم تحبك على الإطلاق وأن....

- وأننى لا ينبغى أن أندم عليها يا "فونشون"؛ ولأنها لم تحبنى على الإطلاق ستتحملين من ثم عبئًا لا جدوى منه، لا تفعلى ذلك وانسى أمر الجرح الصغير الذى سببتهِ لى لأننى تعافيت منه بالفعل.

أجابته "فاديت": مثل تلك الجراح لا يشفى بهذه السرعة، ثم عدلت قليلاً من رأيها وأضافت: على الأقل بشأن ما نتحدث عنه، فشعورك بالغيظ هو ما يدفعك لهذا الكلام يا "لاندرى"، ستذهب الآن لتنام هناك ويأتى الصباح وأنت لا تزال حزينًا إلى أن يعود الحال إلى ما كان عليه مع هذه الفتاة الجميلة .

قال "لاندرى": ربما، ولكن فى هذه اللحظة أقسم لك أننى لست متأكدًا مما تقولين ولا أفكر فيه على الإطلاق وأتصور أنه أنت التى تدفعيننى لأعتقد أن عندى شعورًا متدفقًا تجاه تلك الفتاة، أما أنا فأراه ضئيلاً لدرجة أننى نسيته تقريبًا.

قالت "فاديت" وهى تتنهد: شىء فظيع! أهذا هو الحب عندكم أنتم أيها الصبيان!!

– وأنتن أيضًا أيتها الفتيات، الأمر بالنسبة إليكن ليس أفضل حالاً؛ فأنتن تصدمن سريعًا ثم تداوين أنفسكن سريعًا مع أول من يأتى إليكن، ولكننا الآن نتحدث عن أمور لم ندركها بعد؛ على الأقل أنت "فونشون"، فدائمًا ما تسخرين من العشاق لدرجة أننى أعتقد أنك تهزئين بى الآن وأنت تتحدثين عن ترتيب أمورى مع "مادلون"،

اسمعى كلامى ولا تفعلى ذلك؛ فستعتقد أننى من كلفتك بذلك وتزداد خيلاء وربما يغضبها رؤيتى وأنا أقدم نفسى لها على أننى حبيبها المجذوب لأننى فى الحقيقة لم أقل لها حتى الآن أى كلمة حب وإذا كنت أشعر ببعض السعادة عند القرب منها أو حين أراقصها فإنها لم تشجعنى قط على التعبير عن ذلك بالكلام ومن هنا دعينا نتجاوز هذه المسألة، ستعود من تلقاء نفسها إذا كانت تريد هى ذلك وإن لم تعد وحدها فأنا أعرف أننى لن أموت لهذا السبب.

– أعرف تمامًا ما تفكر به أكثر مما تعرفه أنت يا "لاندرى"، وصدقتك عندما قلت إنك لم تعبر عن مشاعرك بالكلام لـ"مادلون" ولكن من المؤكد أنها رأت ذلك فى عينيك خصوصًا اليوم، ولأننى كنت سببًا فى غضبك فعلىَّ أن أكون سببًا فى سعادتك، وها هى الفرصة المناسبة لتعرف "مادلون" أنك تحبها، إنها مسئوليتى أن أتمم ذلك وسأتممه على أكمل وجه بحيث لن تتهمك أبدًا أنك طلبت منى ذلك، ثق يا "لاندرى" بـ"فونشون"، بالصرصارة القبيحة، فداخلها ليس قبيحًا مثل خارجها، وسامحها على العذاب الذى سبَّبته لك لأنها ستصالحك بنفع كبير لك، وستعرف أنه إذا كان من اللطيف أن تحب فتاة جميلة فمن المفيد أن تصادق فتاة قبيحة؛ لأن القبيحات يملكن قسطًا كبيرًا من اللامبالاة ولا شىء يشعرهن بالغيظ أو بالحقد.

قال لها "لاندرى" وهو يمسك بيدها: سواء أكنت قبيحة أم جميلة يا "فاديت" فأنا بالفعل أعلم أن صداقتك شىء جميل، أجمل من

مقارنتها بعلاقة حب، فأنت شديدة الطيبة وأعرف هذا الآن إذ عرّضتك لحرج اليوم لم تنتبهى إليه، وعلى خلاف ما تقولين أننى تصرفت معك اليوم بشكل ملائم أجد أننى تصرفت بخبث.

- كيف ذلك "لاندرى"؟ إننى لا أدرى على أى نحو....

- لأننى لم أُقبّلك مرة واحدة خلال الرقص يا "فونشون" وهو واجبى وحقى فى الوقت نفسه كما تقتضى العادة. لقد عاملتك كما تعامل الفتيات دون عشر السنوات اللاتى لا ننحنى لنقبلهن، أما أنت ففى مثل عمرى تقريبًا والفرق بيننا لا يزيد عن عام لذا فقد أهنتك وإذا لم تكونى فتاة طيبة للاحظت ذلك.

قالت "فاديت": إن ذلك لم يخطر حتى على بالى. ووقفت لأنها بدأت فى الكذب ولم ترد أن يظهر عليها ذلك وقالت له لتجبره على الابتسام: اسمع كيف تغنى صراصير الليل على عيدان القمح؛ إنهم ينادوننى باسمى وتصيح البومة لى حين تظهر النجوم فى السماء.

- وأنا أيضًا أسمعها بوضوح، ويجب الآن أن أعود إلى "البريش" لكن قبل أن أودعك "فاديت" ألا تريدين أن تسامحينى؟

- ولكنى سامحتك بالفعل يا "لاندرى".

- قال لها والبهجة تملؤه منذ أن حدثته عن الحب والصداقة بصوتها العذب - الذى يفوق فى رقته صوت العصافير المغردة قبل

أن تنام فى أعشاشها: حسنًا، إذا كان الأمر كذلك بالفعل فيجب أن أُقبِّلك الآن لأصلح ما نسيته اليوم نهارًا.

تلعثمت "فاديت" قليلاً ثم استعادت أسلوبها المرح وهى تقول:

- هل تريد أن تكفِّر عن خطئك بعقاب فادح كهذا؛ حسنًا فأنا أعفيك من هذا يا صديقى ويكفى أنك راقصت فتاة قبيحة، أما أن ترغب فى تقبيلها فهى فضيلة مبالغ فيها.

استعجب "لاندرى" وقال لها: من فضلك لا تقولى هذا - آخذًا بيدها وذراعها معًا - فتقبيلك لا يمثل عقابًا لى أبدًا إلا إذا كنتِ أنت تشعرين بالضيق أو الاشمئزاز منى...

وحين قال هذا كان يشعر برغبة حقيقية فى تقبيل "فاديت" إلا أنه تلعثم خوفًا من أن ترفض ذلك بشكل قاطع .

قالت له بصوتها الرقيق المرتعش: اسمع يا "لاندرى" لو كنت فتاة جميلة لقلت لك إنه ليس الوقت ولا المكان الملائمين لذلك بحيث نبدو وكأننا نتخفى لنفعل ذلك، ولو كنت أتدلل لفكرت على العكس أنه الوقت والمكان الملائمان لأن الليل يخفى قبحى وما من شخص هنا لتخجل منه وأنت تقوم بمغامرتك، لكن بما أننى لا جميلة ولا أتدلل فهاك ما سأقوله لك: سلِّم علىَّ كدليل على صداقتنا المخلصة وسأكون ممتنة لأنى حظيت بصداقتك وأنا لم أحظ بمثلها من قبل كما لم أتمنها من أحد غيرك.

- نعم، ها أنا أمسك يدك من كل قلبى، هل تسمعينه يا "فاديت"؟ ولكن الصداقة المخلصة التى أرغبها معك لا تمنع أن أُقبِّلك وإذا لم يكن هذا هو رأيك سأُصدِّق أن بقلبك غصة من جانبى.

حاول أن يقبِّلها فجأة ولكنها قاومت ولكنه لم يتراجع فأخذت تبكى وهى تقول:

- اتركنى يا "لاندرى"، إنك تؤلمنى كثيرًا.

توقف "لاندرى" مندهشًا وحزينًا لرؤيتها تبكى، إذ يبدو أن بكاءها أغاظه:

- أعتقد أنك لم تقولى الحقيقة حين قلت إن صداقتى هى الشىء الوحيد الذى تمنيتِه، فهناك علاقة أقوى منها تمنعك من تقبيلى.

أجابته وهى لا تزال تبكى: كلا يا "لاندرى" ولكننى أخشى إذا قبلتنى ليلاً دون أن ترانى أن تكرهنى حين يأتى النهار وترانى ثانية.

قال "لاندرى" وقد نفد صبره: ألم أرك من قبل؟ وهل لا أراك الآن؟ تعالى هنا تحت ضوء القمر، أراك جيدًا وأشعر أنى أحب ما أنت عليه لأننى أحبك، هذا كل ما فى الأمر.

ثم قبَّلها؛ فى المرة الأولى كان متلعثمًا ثم عاد وقبَّلها باستمتاع وهو ما جعلها تشعر بالخوف، فقالت له وهى تدفعه برفق:

– كفى يا "لاندرى" أرجوك أن تكف!! أنت تقبلنى هكذا من فرط غضبك من "مادلون"، اهدأ. سأحدثها فى الأمر غدًا، وغدًا ستقبّلها بمزيد من السعادة التى لم أستطع أن أحققها لك أنا.

هنا خرجت مسرعة من جانب الطريق واختفت بخطواتها الرشيقة.

كان "لاندرى" مثل المجذوب وتملكته رغبة فى أن يركض خلفها، وراجع نفسه ثلاث مرات قبل أن يسيطرعلى نفسه ويقرر العودة مرة أخرى إلى طريقه الأول نفسه. ثم شعر وكأن الشيطان يلاحقه فأخذ يجرى ولم يتوقف إلا فى "البريش".

فى صباح اليوم التالى حين ذهب إلى أبقاره ليطعمها وينظفها تفكر فى تلك المحادثة الطويلة بينه وبين "فاديت الصغيرة" عند طريق "الشوموا" وبدت له هذه المحادثة وكأنها لحظة وكان لا يزال مثقل الرأس من رغبته فى النعاس ومن آثار يوم قضاه بصورة مختلفة عما كان مقررًا له وشعر باضطراب شديد وبشىء من الخوف مما يشعر به تجاه تلك الفتاة والتى عاد ليتخيلها أمام عينيه قبيحة ترتدى ثيابًا مهلهلة كما عرفها دائمًا، وتخيل للحظة أنه كان يحلم حين تمنى أن يقبّلها وحين شعر بالسعادة عندما ضمَّها إلى صدره كما لو كان أحبها حبًا حقيقيًا، حتى إنها تبدلت فى عينيه فجأة فأصبحت جميلة ولطيفة أكثر من أى فتاة أخرى على وجه الأرض.

قال محدثًا نفسه: لابد وأنها ساحرة بالفعل كما يقولون عنها على الرغم من أنها تنكر ذلك، فمن المؤكد أنها سحرتنى مساء أمس، فأنا لم أشعر فى حياتى تجاه أبى أو أمى أو إخوتى أو حتى تجاه "مادلون" أو تجاه "سيلفنى" بمثل هذه العاطفة الجياشة التى حركتها تلك الشيطانة بداخلى لمدة دقيقتين أو ثلاث وإذا كان "لسيلفنى" المسكين أن يرى ما اعتمل بداخل قلبى لالتهمته الغيرة، لأن ارتباطى بـ"مادلون" لم يؤثر مطلقًا على أخى، لكن كيف سيكون الأمر إذا قضيت يومًا واحدًا مهتاجًا وملتهب المشاعر كما كنت لدقيقة بالقرب من تلك الفتاة؟ سأصبح بالتأكيد مجنونًا بها ولن أعرف غيرها فى العالم كله.

شعر "لاندرى" أنه غارق فى الخجل والإرهاق ونفاد الصبر، كان واقفًا على حافة المعلف الخاص بأبقاره حين فكر أنه ربما تكون تلك الساحرة قد سلبته الشجاعة والعقل والصحة.

لكن بعد وقت قليل وحالما استيقظ سكان "البريش" أخذوا يهزءون به وبرقصه مع الصرصارة القبيحة، فكانوا شديدى القسوة والبذاءة فى سخريتهم لدرجة أنه لم يعرف أين يختبئ منهم؛ إذ كان يشعر بالخجل ليس فقط مما شاهدوه هم ولكن مما يحمله بداخله ويخشى من أن يعرفه أحد، ومع ذلك لم يغضب مطلقًا لأن سكان "البريش" كلهم أصدقاؤه ويعلم أنهم لا يضمرون له سوء النية فى سخريتهم اللاذعة، بل كان عنده الشجاعة ليواجههم بأن "فاديت

الصغيرة" ليست كما يعتقدون وأنها تتساوى مع الكثيرين منهم وتستطيع أن تقدم خدمات كبيرة وهنا عادوا لسخريتهم اللاذعة منه.

قالوا له: لن نتحدث عن أمها ولكن سنتحدث عنها، فهى طفلة لا تدرى شيئًا، وإذا كانت لديك بقرة مريضة فلا تأخذ بالعلاج الذى تنصحك به، فهى ثرثارة فقط دون أن يكون لديها علاج حقيقى تقدمه، ولكنها على ما يبدو تعرف الكثير بشأن تنويم الصبية، فأنت لم تتركها لحظة واحدة طوال نهار العيد وعليك أن تأخذ حذرك يا "لاندرى" المسكين، فقد نسميك قريبًا - "صرصار الصرصارة" أو "مجنون فاديت" وقد يلاحقك الشيطان فيأتى "جورجون" لشد مفارش أسرَّتنا ولف شعر ذقون خيولنا فسنضطر إلى طرد الأرواح الشريرة منك.

قالت "سولانج" الصغيرة: أعتقد أنه لبس شرابه بالمقلوب صباح أمس، فمن المعروف أن ذلك يثير السحرة ومن المؤكد أن "فاديت الصغيرة" قد لاحظت ذلك واستغلته.

الفصل الحادى والعشرون

فى أثناء النهار حين كان "لاندرى" منهمكًا فى بذر الحبوب رأى "فاديت الصغيرة" التى كانت تسير مسرعة فى اتجاه المشتل حيث كانت "مادلون" تصنع أطباقًا من أوراق الشجر لخرافها، كان ذلك هو موعد حل الأبقار بعد انقضاء الرعى فى منتصف النهار وكان "لاندرى" يعيدها إلى الحظيرة وتابع سير "فاديت الصغيرة" التى تمشى بخفة فتبدو وكأنها لا تدهس العشب بقدميها، كان شغوفًا لمعرفة ما ستقوله لـــ"مادلون"، وبدلاً من أن يسرع ليتناول الحساء الساخن الذى ينتظره فى الحقل على قلم المحراث والذى لا يزال ساخنًا بفعل أسنان المحراث الحديدية، ذهب بجانب المشتل دون أن يصدر عنه أى صوت ليسمع ما ستدبره الفتاتان، لم يكن يراهما، كما أن "مادلون" كانت تتمتم إجاباتها بصوت خفيض فلم يستطع تمييز كلماتها، أما صوت "فاديت الصغيرة" – والذى لم يفقد رقته – كان واضح المعالم بحيث لم يفت أسماعه كلمة واحدة مما قالته رغم أنها لم ترفع صوتها قط، تحدثت إلى "مادلون" عنه وأخبرتها كما وعدته بالحديث الذى دار بينهما منذ عشرة أشهر واضطراره لتنفيذ ما تطلبه منه، وشرحت ذلك بكثير من الرقة والعذوبة لدرجة كانت لتسعد من يسمعها، ودون ذكر الجنية أو الفزع الذى اعترى "لاندرى" حكت لها أنه كاد يغرق فى المياه حين ضل طريقه عند "معبر روليت" فى اليوم السابق لعيد

"القديس أندوش" فأبرزت الجانب الإيجابى لكل الأحداث التى وقعت بينها وبين "لاندرى"، كما أوضحت أنها وحدها المخطئة حين سيطرت عليها رغبة عابرة أو بالأحرى تافهة فى أن ترقص مع فتى كبير وهى التى لم ترقص من قبل إلا مع صبية صغار.

هنا غضبت "مادلون" ورفعت صوتها وهى تقول:

- وما شأنى أنا بكل هذا؟ ارقصِى طوال حياتك مع توأمى "البيسونبير"، دون أن تشعرى يا صرصارة أنك ترتكبين فى حقى خطأ أو أنك تشعريننى بالغيرة .

هنا ردت "فاديت":

- لا تتحدثى بهذة الطريقة القاسية عن "لاندرى" المسكين يا "مادلون"، فـ"لاندرى" منحك قلبه وإذا لم تقبليه فستسببين له جرحًا لا يمكن وصفه.

ثم أكملت كلامها العذب بصوت يملؤه الإحساس وهى تمتدح "لاندرى"، لدرجة أشعرته بالرغبة فى حفظ أسلوبها واستخدامه عند اللزوم إلى جانب شعوره بالخجل وهو يسمع استحسانها له على هذا النحو.

أدهش "مادلون" حديث "فاديت" العذب أيضًا، إلا أنها حقرت من شأنها وقالت لها: تنبحين جيدًا، وتباهين بوقاحتك، كما لو كانت جدتك تلقِّنك دروسًا فى تملق الآخرين ولكننى لا أميل إلى الحديث مع

المشعوذين أمثالك فهو أمر يجلب النحس لذا أرجوك أن تتركينى الآن يا صرصارة. لقد وجدت أخيرًا من يناسبك، احتفظى به يا صغيرتى لأنه سيكون الأول والأخير الذى يرغب فى رؤية وجهك القبيح، أما أنا فلن أرضى بما تبقى منك حتى لو كان ابن الملك نفسه، "لاندرى" ليس أكثر من صبى أحمق، بل لابد وأنه أحقر مما تصورت حتى إنك ترغبين فى التخلص منه فجأة الآن آملة أن آخذه منك بعد أن سرقته منى كما تعتقدين، يا له من صبى لُقطة ذلك الذى لا ترغب فيه الصرصارة!!!

أجابت "فاديت" بصوت مس أعماق قلب "لاندرى": أهذا هو ما يضايقك يا "مادلون" إلى هذا الحد؟ وإذا كنت لن تشعرى بالراحة إلا بعد أن تسببى لى كل هذا الخزى إذن اسعدى أكثر أيتها الجميلة "مادلون" وضعى تحت قدميك كبرياء وإباء الصرصارة القبيحة التى تقطن الحقول، أتعتقدين أننى أرى "لاندرى" قليل الشأن ولولا هذا ما طلبت منك أن تستعيديه، إذن فاعلمى - إذا كان ذلك يرضيك - أننى أحبه منذ وقت طويل، فهو الصبى الوحيد الذى انشغلت به، وربما هو الوحيد الذى سأظل أحلم به طوال حياتى ولكننى شديدة التعقل والكبرياء لذا لم أحاول أن أجعله يحبنى هو الآخر، فأنا أعلم قدرى وقدره، فهو جميل وغنى ومحترم بين الناس، أما أنا فقبيحة وفقيرة ويحتقرنى الناس لذا فأنا متأكدة أنه لا يمكن أن يكون لى ولابد وأنك لاحظت كم كان يعاملنى باستهزاء فى يوم العيد، عليك أن تشعرى

بالرضا إذن لأن هذا الشخص الذى لا تجرؤ "فاديت" على النظر إليه ينظر إليك أنت بعينين يملؤهما الحب. عاقبى "فاديت الصغيرة" واستعيدى الفتى الذى لا تجرؤ على منافستك عليه نكاية بها وإن لم تفعلى ذلك بدافع من حبك له فافعليه على الأقل لتعاقبينى على وقاحتى ولكن عدينى أن تستقبليه جيدًا وأن ترضى خاطره حين يجيء ليصالحك.

وبدلاً من أن تلين "مادلون" أمام هذا الخضوع والتفانى من قبل "فاديت" بدت شديدة القسوة وطردتها وهى تردد لها أن "لاندرى" يناسبها كثيرًا وأنه بالنسبة إليها ليس أكثر من طفل أحمق ولكن التضحية الكبيرة التى قدمتها "فاديت الصغيرة" بنفسها أتت ثمارها، فقلب المرأة فطر على هذا النحو، أى عندما تبدأ صورة الصبى الصغير فى التحول إلى صورة رجل كبير يصبح فى عينيها جديرًا بالتقدير والتدليل، فـ"مادلون" التى لم تفكر جديًا فى "لاندرى" من قبل أصبحت تفكر فيه كثيرًا، فبمجرد طردها "لفاديت الصغيرة" ظلت تتذكر كل ما قالته تلك المتحدثة اللبقة عن حب "لاندرى" لها وعند التفكير فى أن "فاديت الصغيرة" مغرمة به وهى التى اعترفت بذلك بنفسها شعرت "مادلون" بالزهو لقدرتها على الانتقام من هذه الفتاة الفقيرة.

عادت فى المساء إلى "البريش" التى لم تكن تبعد كثيرًا عن دارها، وبحجة البحث عن إحدى الماشية والتى اختلطت فى الحقل مع

أمثالها من ماشية عمها مرت أمام "لاندرى" وبنظرة من عينيها شجعته على الاقتراب منها والتحدث إليها.

لاحظها "لاندرى" جيدًا لأنه منذ أن بدأت "فاديت الصغيرة" فى التدخل وتنشط عقله كثيرًا". قال محدثًا نفسه: من المؤكد أن "فاديت" ساحرة حقيقية فقد أعادت لى "مادلون" وجعلتها تسامحنى وقد فعلت لأجلى فى ربع ساعة أكثر مما استطعت أنا أن أفعله فى عام كامل، إنها شديدة الذكاء وقلبها لا مثيل له.

وبينما هو يفكر نظر إلى "مادلون" بلا مبالاة مما جعلها تبتعد دون أن يكون قد قرر بعد إن كان سيكلمها أم لا، ولم يكن ذلك بالطبع لشعوره بالخجل أمامها فقد اختفى خجله دون أن يفهم كيف حدث ذلك لكن مع الخجل اختفت أيضًا السعادة التى كان يشعر بها عند رؤيتها وكذلك رغبته فى أن تحبه هى.

بعد أن تناول عشاءه مباشرة تظاهر بالذهاب إلى النوم لكنه خرج من سريره عبر الرواق ملتصقًا بحائط المنزل واتجه مباشرة إلى "معبر روليت". كانت الجنية على هيئة نار ترقص رقصتها هذه الليلة أيضًا وحالما لمحها "لاندرى" من بعيد فكر: "إنه شىء رائع, فها هى الجنية ولابد وأن تكون "فاديت الصغيرة" قريبة من هنا"، عبر المعبر دون أن يشعر بالخوف ودون أن يسقط فى المياه ومشى حتى بلغ منزل "الأم فادية" وأخذ يدور وينظر من كل جانب ولكنه بقى

لبرهة دون أن يرى أى ضوء أو يسمع أى ضوضاء فكان الجميع نيامًا، تمنى لو خرجت الصرصارة لتتجول خارج المنزل إذ اعتادت أن تفعل ذلك بعد أن تنام جدتها وأخوها "النطاط " وأخذ يتجول بدوره عبر المنطقة العشبية ووصل إلى طريق الـ"الشوموا" وهو يتنهد بصوت عال ويغنى كى يعلن عن وجوده إلا أنه لم يقابل سوى "حيوان يشبه الغرير" الذى يختبئ فى القش؛ ولم يسمع إلا صوتًا يصفر فى أعلى الشجرة.

ورغمًا عنه عاد دون أن يشكر الصديقة الوفية التى أسدت له معروفًا.

الفصل الثانى والعشرون

مر الأسبوع بالكامل دون أن يستطيع "لاندرى" مقابلة "فاديت الصغيرة" وعجب لذلك وقلق وقال: "ستظن أننى جاحد ومع ذلك فإننى إن لم أرها فهذا ليس بسبب تقصير فى البحث عنها أو فى انتظارها فلابد وأننى جرحتها حين أصررت على تقبيلها رغمًا عنها فى طريق "الشوموا" مع أننى لم أقصد إيذاءها أو مضايقتها".

راودته أفكار شتى طوال الأسبوع تفوق ما راودته طوال حياته. لم يكن صافى الذهن أو واضح الرؤية ولكنه كان بشكل عام كثير التفكير ومستثار الذهن فكان يحمل نفسه ليبذل قصارى جهده كى يستطيع العمل، فالأبقار الكبيرة والمحراث المعدنى اللامع والأرض الساخنة المبتلة بأمطار الخريف الخفيفة لم تعد تشبع رغبته فى التأمل وأحلام اليقظة.

ذهب لرؤية أخيه مساء يوم الخميس فوجده مهمومًا مثله وكان "سيلفنى" شخصية مختلفة عن أخيه ولكن يشبهه أحيانًا فى ردود الفعل، ومن الطبيعى أنه خمن أن شيئًا ما يعكر صفو أخيه إلا أنه كان بعيدًا عن تصور حقيقة الأمر وسأله إذا كان تصالح مع "مادلون" وللمرة الأولى فى حياته كذب "لاندرى" بإرادته إذ رد عليه بالإيجاب

والحق أنه لم ينطق بكلمة واحدة لـ"لمادلون" وظن أنه ستكون لديه فرصة أخرى ليحدثها فى الأمر فما من شىء يدعوه إلى العجلة.

أخيرًا جاء يوم الأحد ووصل "لاندرى" مبكرًا إلى القداس ودخل إلى الكنيسة قبل أن تقرع الأجراس، فهو يعرف أن "فاديت الصغيرة" اعتادت أن تجىء فى هذا التوقيت لأنها تتلو صلوات طويلة وهو ما يكون دائمًا مثار سخرية الآخرين ورأى "لاندرى" فتاة صغيرة جاثية على ركبتيها فى مصلى " القديس فيرج" مديرة ظهرها ووجهها مختفٍ بين يديها كى تصلى فى خشوع، إنه نفس وضع جسم "فاديت الصغيرة" ولكنها ليست طاقيتها ولا هيئتها فخرج "لاندرى" ليرى إن كانت تقف فى الرواق المؤدى إلى الكنيسة؟؟؟

كانت مُلابس "فاديت" البالية هى الشىء الوحيد الذى لم يره وسمع "لاندرى" القداس دون أن يلاحظها، لم يكن يلاحظ سوى تلك الفتاة فى المقدمة التى تصلى بخشوع تام فى المصلى وحين رآها ترفع رأسها عرف على الفور صرصارته فى زى وهيئة جديدين تمامًا، كانت لا تزال ترتدى ملابسها الفقيرة المكونة من جونلة من القماش الخشن وبلوزة حمراء وقبعة من الصوف بلا دانتيل، ولكنها أصبحت ناصعة عن ذى قبل، كما أعادت قص وخياطة ملابسها خلال الأسبوع، فكان رداؤها أطول من ذى قبل متدليًا بشكل ملائم على أقدامها التى أضحت بيضاء مثل قبعتها والتى اتخذت شكلاً جديدًا متمددًا على شعرها الأسود المنسدل؛ أما غطاء كتفيها فكان

جديدًا ولونه أصفر رقيق يظهر جمال لون بشرتها الخمرى. كما أطالت بلوزتها وبدلاً من هيئتها السابقة حين كانت تشبه قطعة الخشب المغطاة بثياب بدا قوامها رقيقًا ومتناسقًا كجسد نحلة العسل الرقيقة، علاوة على أنها من المؤكد قد استخدمت خليطًا سحريًا من بعض الزهور والأعشاب واغتسلت به طوال ثمانية أيام، إذ تغير لون وجهها ويديها الشاحبتين فغلب عليها الصفاء التام والرقة كشوكة الربيع البيضاء.

عندما رآها "لاندرى" بكل هذه التغيرات سقط منه دفتره وبسبب الضوضاء التى أحدثها السقوط استدارت "فاديت الصغيرة" فجأة لتنظر إليه فى نفس اللحظة التى نظر هو إليها فاحمرت خجلاً لتشبه زهرة ندية على غصنها؛ وهو ما زادها جمالاً إلى جانب عينيها السوداوين اللتين تشعان بريقًا وضاءً يؤكد كم تغيرت، فكانت الفتاة التى لا يُرى فيها عيب، وقال "لاندرى" محدثًا نفسه: "إنها بالتأكيد ساحرة لقد أرادت أن تتحول من فتاة قبيحة إلى أخرى جميلة وها هى جميلة بمعجزة"، وللحظة بدا وكأنه يرتعد من فزعه من الفكرة التى راودته ولكن خوفه لم يمنع إحساسه بالرغبة فى الاقتراب منها والتحدث إليها حتى إنه مع انتهاء القداس كان قلبه قد انفطر من نفاد الصبر.

لكنها لم تنظر إليه مجددًا وبدلاً من أن تركض وتمزح مع الأطفال بعد الصلاة، مشت برصانة وهدوء فلم تتوافر لأحد الفرصة

لمطالعتها وهى معدلة وقد تغير شكلها ولم يجرؤ "لاندرى" على تتبعها خصوصًا وأن "سيلفنى" لم يرفع عينيه عنه ولكن بعد ما يقرب من ساعة نجح فى الهرب من عينى أخيه وهذه المرة دلَّهُ قلبه ودفعه فوجد "فاديت الصغيرة" تحرس ماشيتها بروية فى الطريق الضيق المتعرج الذى يطلقون عليه "طريق العسكر" لأن سكان "الكوس" قتلوا أحد جنود الملك فى هذا المكان فى الأزمنة القديمة حين أرادوا أن يجبروا الفقراء على دفع "الجزية" وعلى السخرة، ضاربين عرض الحائط بمواد القانون المطبق فى هذا الوقت والذى كان متشددًا بما يكفى.

الفصل الثالث والعشرون

ولأن اليوم هو يوم الأحد كانت "فاديت الصغيرة" هادئة وهى ترعى قطيعها، لا تتحدث كثيرًا ولا تجرى مسرعة، اشتركت فقط فى لعبة بسيطة يأخذها أطفال المنطقة على محمل الجد وكانت تبحث هى عن ورقة النفل(*) التى تحوى أربع وريقات والتى تتوافر بندرة شديدة وتحمل السعادة لمن يجدها ويضع يده فوقها.

قال لها "لاندرى" حالما وصل إلى جانبها: هل وجدتها "فونشون"؟

- غالبًا ما أجدها ولكنها لا تحمل أى سعادة كما يعتقد البعض، فلم يُضِف لى شيئًا احتفاظى الدائم بثلاث منها بين جنبات دفترى.

جلس "لاندرى" بالقرب منها كمن يهم ببدء حديث طويل معها ولكن فجأة شعر بالخجل بصورة تفوق ما استشعره فى أى وقت بالقرب من "مادلون"، وفيما كان يستعد لقول كلمات عديدة حلوة، لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة منها.

(*) ورقة النفل: عشب ذو ثلاث وريقات عادة. (المترجمة)

انتقل الخجل إلى "فاديت الصغيرة" أيضًا وعلى الرغم من أن "لاندرى" لم يتفوه بكلمة فإنه كان ينظر إليها نظرات غريبة، ثم سألته أخيرًا لماذا يبدو متعجبًا وهو ينظر إليها؟

قالت له: على الأقل ليس بسبب أننى هندمت من مظهرى، فأنا أتبع نصيحتك وآمنت بأننى إذا كنت أريد أن أعطى انطباعًا بأننى إنسانة متعقلة فعلىَّ أن أبدأ بتعديل مظهرى ولكننى لم أجرؤ أن يرانى أحد خشية أن يوجهوا إلىَّ اللوم من جديد فيصوروننى على أنى حاولت أن أبدو أقل قبحًا ولكننى لم أنجح فى ذلك.

قال "لاندرى": فليقولوا ما يريدون ولكننى لا أدرى ما الذى فعلته لتبدى جميلة إلى هذا الحد، فالحقيقة أنك جميلة اليوم ولابد أن يكون الشخص أعمى حتى لا يرى هذا.

أجابته "فاديت الصغيرة": لا تهزأ بى يا "لاندرى"، فالمعروف أن الجمال يدير رءوس الجميلات وأن القبح يثير حزن القبيحات. وقد اعتدت أن أثير الفزع عند الناس حال رؤيتى ولست حمقاء لأظن أننى أثير السعادة الآن عند رؤيتى، ولكن ليس هذا ما أردت أن تحدثنى فيه يا "لاندرى" وأتعشم أنك تريد إخبارى بأن "مادلون" قد سامحتك.

– لم آت لأحدثك عن "مادلون" إن كانت قد سامحتنى فعلاً فأنا لا أعرف شيئًا عن هذا الأمر ولم يخبرنى به أحد قط، كل ما أعرفه

أنك تحدثتِ إليها، وتحدثتِ إليها بأسلوب لبق للغاية بحيث أدين لك بالشكر الكثير.

– كيف عرفت أننى تحدثت إليها؟ أأخبرتك هى؟ فى هذه الحالة فقد تصالحتما.

– لم نتصالح قط. إننا لم نكن نحب أحدنا الآخر بالدرجة التى تجعلنا فى حالة حرب. أعرف أنك تحدثت إليها لأنها أخبرت أحد أصدقائها الذى أخبرنى بدوره.

احمر وجه "فاديت الصغيرة" خجلاً وهو ما زاده جمالاً لأنه لم يحدث من قبل أن انطبعت وجنتاها بهذا اللون الصادق الذى يظهر إما مع الخوف الشديد وإما مع السعادة الشديدة، وإذا ظهر فإنه يزين وجه أكثر الفتيات قبحًا؛ لكنها شعرت فى الوقت نفسه بالقلق حين فكرت أن "مادلون" أعادت كل كلامها ووضعتها فى موضع لا تحسد عليه بسبب ما اعترفت به من حبها لـــ"لاندرى".

سألته "فاديت الصغيرة": وماذا قالت "مادلون" عنى؟

- قالت إننى كنت مغفلاً كبيرًا ولم أكن أثير إعجاب أى فتاة ولا حتى "فاديت الصغيرة"؛ وأن "فاديت الصغيرة" تحتقرنى وتهرب منى واختبأت طوال الأسبوع كى لا ترانى أبدًا على الرغم من أننى طوال الأسبوع أركض فى كل الأنحاء بحثًا عنها أملاً فى مقابلتها،

فأنا الذى يسخر منه الجميع الآن يا "فونشون" لأن الكل يعلم أننى أحبك وأنك لا تحبيننى على الإطلاق.

قالت "فاديت الصغيرة" وهى مندهشة: يا له من كلام سيئ (والحق أنها لم تكن ساحرة حقيقية لتخمن أن "لاندرى" - فى هذه اللحظة- كان نبيهًا أكثر منها)، لم أتصور من قبل أن تكون "مادلون" خبيثة وخائنة إلى هذا الحد لكن يجب غفران ذلك يا "لاندرى"، فشعورها بالغيظ هو ما دفعها لتقول ذلك والغيظ فى هذه الحالة يكون سببه الحب.

قال "لاندرى": ربما لهذا أنت لا تشعرين بالغيظ منى أبدًا يا "فونشون"، أنت متسامحة إزاء كل تصرفاتى لأنك تحتقرين كل تصرفاتى.

- أنا لا أستحق أن تقول عنى هذا يا "لاندرى"، والحق أننى لا أستحق ذلك فأنا لست حمقاء لأتفوه بهذا الكذب، لقد قلت كلامًا مختلفًا لـ"مادلون" ولم يكن ما قلته موجهًا إلا لها ولم يكن به ما يسيئك، بل على العكس كان يظهر تقديرى الشديد لك.

- اسمعى يا "فونشون".. نحن لا نتشاجر هنا حول ما قلته أو ما لم تقوليه، أريد أن أستشيرك فى أمر لأنك عاقلة، ففى يوم الأحد الماضى ونحن فى المشتل شعرت تجاهك بعاطفة قوية ولا أعرف كيف حدث ذلك بحيث لم آكل ولم يغمض لى جفن طوال الأسبوع

ولم أُرِد أن أخفى عنك لأنه مع فتاة ذكية مثلك سيكون ذلك جهدًا ضائعًا، لذلك أعترف لك أننى شعرت بالخزى من مشاعرى تلك فى يوم الاثنين صباحًا وأردت أن أهرب منك كى لا أقع مجددًا فى مثل هذه الحماقة، ولكن مع حلول المساء من نفس اليوم وقعت فيها بالفعل فعبرت "معبر روليت" ليلاً دون أن أخشى الجنية التى حاولت أن تحول دون بحثى عنك حين أدَّت رقصاتها الشريرة ولكن بدلاً من أن تهزأ هى بى هزأت أنا بها، ومنذ يوم الإثنين وفى كل صباح أبدو مثل الغبى، فالجميع يطاردوننى بسخرياتهم من ميلى إليك وفى كل مساء أصير كالمجنون لأننى أتحقق من أن مشاعرى تجاهك أقوى من شعورى بالخزى. واليوم وجدتك لطيفة ومظهرك مرتبًا ينم عن تعقلك بحيث سيندهش الجميع منه، ولو كنت قد بدأت فى الظهور على هذه الشاكلة منذ خمسة عشر يومًا لما لامنى أحد على حبك، بل لشعر الكثيرون بنفس الحب تجاهك، ووقتها ما كنت أستحق أن أحبك ولا أستحق أن تفضلينى عليهم، لكن تذكرى ما حدث الأحد الماضى - يوم عيد "القديس أندوش" - لقد طلبت أن أقبِّلك وقبَّلتك بإحساس عميق كما لو لم تكونى معروفة بأنك قبيحة وبغيضة، هذا كل ما أريد أن أقوله يا "فاديت". أخبرينى إذا كنت تقدرين كلامى أو إذا كان يغضبك بدلاً من أن يرضيك.

دفنت "فاديت الصغيرة" وجهها بين كفيها ولم تنطق بكلمة واحدة، فقد عرف "لاندرى" حين سمع المحادثة التى دارت بينها وبين

"مادلون" أنها تحبه فأراد أن يقول لها إن مشاعرها تلك أثرت فيه كثيرًا لدرجة أنها أصابته بحبها على الفور، ولكن عند رؤية وضعها الحزين والبائس بدأ يشعر بالخوف من أن تكون قصَّت تلك القصة على مادلون بدافع من حسن النية كى تساعد فى عقد الصلح بينهما، وهو ما زاد من عشقه لها أكثر فشعر بحزن عميق وأبعد كفيها عن وجهها بقوة فوجد وجهها شاحبًا حتى لتظنها تحتضر وبينما يلومها بعنف لأنها لم تعطه إجابة على ما اعترف به لها، سقطت على الأرض وهى مضمومة اليدين وتتنفس بصعوبة إذ اختنقت وسقطت من فرط الإعياء.

الفصل الرابع والعشرين

تملك "لاندرى" الخوف وأخذ يضرب على يدها علَّها تفيق وكانت يداها باردتين كالثلج ومتصلبتين كقطعة من الخشب ففركهما بين يديه طويلاً كى يبث فيهما الحرارة وحين تمكنت من النطق، قالت له:

- أتهزأ بى يا "لاندرى"؟ هناك أشياء لا تخضع للمزاح. أرجوك أن تتركنى فى هدوء ولا تتحدث معى أبدًا إلا إذا أردت أن تطلب منى طلبًا محددًا، ففى هذه الحالة سأكون فى خدمتك.

قال "لاندرى": "فاديت"، "فاديت".. إن ما تقولينه غير مقبول فأنت التى تلعبين بى فأنت تحتقريننى، ومع ذلك جعلتنى أظن شيئًا آخر.

قالت له وجسدها كله يرتعد: أنا؟ وماذا جعلتك تعتقد؟ لقد قدمت لك مودتى التى تشبه مشاعر أخيك لك وربما أفضل لأننى لا أحمل غيرة عليك وبدلاً من أن أقف فى طريق مشاعرك أسديت لك على العكس معروفًا.

قال لها "لاندرى": معك حق، فأنت طيبة كالملاك وأنا المخطئ لأننى ما كان يجب أن أوجه لك اللوم، اعذرينى يا "فونشون"، واتركينى أحبك قدر استطاعتى، صحيح أن مشاعرى لك لا يمكن أن

تكون هادئة كمشاعرى تجاه أخى "سيلفنى" أو أختى "نانيت" ولكنى أعدك ألا أطلب تقبيلك مرة أخرى ما دام يضايقك ذلك.

حينها تراجع عن حماسه وتخيل أن "فاديت" بالفعل لا تكن له إلا تلك المشاعر الهادئة؛ ولأنه لم يكن لا تافهًا ولا ثرثارًا وجد نفسه خائفًا ولا يتقدم خطوة فى اتجاهها وكأنه لم يسمع بأذنيه ما قالته هى عنه لـــ"مادلون الجميلة"، أما "فاديت" فكانت نبيهة بالدرجة التى تجعلها تفهم جيدًا أنه مولع بها ومن فرط سعادتها حين أحست بذلك بدت وكأنها فقدتُ الوعى للحظة، لكنها خشيت أن تضيع منها تلك السعادة سريعًا كما جاءتها سريعًا وبسبب هذا الخوف قررت أن تطيل الوقت أمامه ليتمنى حبها من أعماق قلبه.

ظل "لاندرى" بجانبها حتى المساء لأنه وإن لم يجرؤ أن يقول لها كلمة غزل واحدة كان يشعر بسعادة بالغة حين يراها أو يسمعها تتحدث، فلم يستطع أن يقرر تركها ولو لدقيقة واحدة، لعب "لاندرى" مع "النطاط" الذى كان دائمًا على مقربة من أخته وجاء لينضم إليهما، كان لطيفًا معه وسريعًا ما تبين أن هذا المسكين الصغير الذى يعامل بقسوة لا يستحقها من كل الناس لم يكن أحمق ولا مؤذيًا مع من يعامله بلطف؛ حتى إنه بعد مضى ساعة من الزمن ألِف "لاندرى" وشعر نحوه بالعرفان حتى إنه أخذ يقبل يديه وهو يناديه "حبيبى لاندرى" كما اعتاد أن ينادى أخته بـــ"حبيبتى فونشون" فشعر "لاندرى" بالتعاطف والحنان فجأة وشعر أن الناس جميعًا وهو معهم

قد أساءوا إلى طفلَى "الأم فادية" الطيبين واللذين لا يحتاجان إلا أن يكونا محبوبين مثل باقى الأطفال ليصبحا ألطفهما جميعًا.

فى الأيام التالية نجح "لاندرى" فى رؤية "فاديت الصغيرة" أحيانًا فى الليل فيتمكن من الحديث معها قليلاً وأحيانًا فى النهار حين يقابلها فى الحقول ولا تستطيع وقتها التوقف طويلاً لأنها لا تريد ولا تعرف أيضًا أن تقصِّر فى واجبها وكان "لاندرى" يسعد لمجرد أن يقول لها بعض الكلمات، يقولها من كل قلبه وينظر إليها ملء عينيه، أما هى فاستمرت فى رقتها سواء فى الحديث مع الآخرين أو فى معاملتهم وفى الاهتمام بمظهرها؛ وهو ما لاحظه من حولها فبدأوا يغيرون من لهجتهم معها ولأنها لم تعد توجه الإهانات إلى الآخرين كفوا عن إهانتها بدورهم ولأنها لم تعد تسمع بأذنيها من يسبها فلم تعد ترد بالأذى على الآخرين.

ولكن رأى الناس وفكرتهم السابقة عنا لا تتغير حالما نقرر نحن أن نتغير، فقد احتاج الأمر إلى بعض الوقت قبل أن يتحول الناس تجاه "فاديت الصغيرة" من الاحتقار إلى الاحترام ومن الاشمئزاز إلى حسن النية، وسنتحدث لاحقًا عن هذا التغير وكيف حدث؛ أما الآن فبإمكانكم أن تتصوروا بأنفسكم أن أحدًا لم يعر اهتمامًا كبيرًا لتحول "فاديت الصغيرة" وترتيب مظهرها. كان هناك قلة من كبار السن ممن لا يتعدون أربعة أو خمسة أشخاص من بين هؤلاء الذين يتابعون نمو الشباب بكثير من الحلم والتأمل ومن هم فى

مقام الأب والأم لكل من فى البلدة يتجاذبون أطراف الحديث ذات مرة وهم جالسون أسفل شجرة الجوز يشاهدون الأطفال الذين يعجون من حولهم بعضهم يلعب بالعصى والبعض الآخر يرقص والكبار يقولون:

- هذا الصبى سيصبح جنديًا رائعًا إذا أكمل على هذا النحو فجسده ملائم ليجعله ينجو فى أى معركة أما هذا فسيصير نبيهًا كوالده، وتلك ستأخذ حكمة والدتها وتعقلها وهناك "لوسيت" الصغيرة ستكون خادمة جيدة فى المزرعة، والبدينة "لويز" سيستحسنها الكثير من الرجال، أما عن "ماريون" الصغيرة فستتعقل بالتأكيد حين تكبر مثل غيرها.

وحين جاء دور "فاديت الصغيرة" ليتم فحصها والحكم عليها قالوا:

- تلك الفتاة ستتحسن سريعًا دون أن ترغب فى الغناء أو الرقص فلم نعد نراها كثيرًا منذ عيد "القديس أندوش". لابد وأنها تحرجت كثيرًا حين نزع عنها صبية الحى قبعتها وهى ترقص، كذلك غيرت من شكل القبعة التى كانت ترتديها وأصبحت مثل باقى الفتيات.

قالت "الأم كوتوربيه": هل لاحظتم كيف أصبحت بشرتها بيضاء فى وقت قصير؟ كان وجهها يشبه بيضة السمان إذ كانت

بشرتها مليئة بالكلف؛ وفى آخر مرة رأيتها من قريب اندهشت حين وجدتها ناصعة وشاحبة فى الوقت نفسه حتى إننى سألتها عما إذا كانت مصابة بحمى وعند النظر إلى ما آلت إليه الآن يمكننا أن نقول إنها ستصلح من نفسها، ومن يدرى؟ فكم من فتيات كن قبيحات وأصبحن فاتنات حين بلغن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة.

قال "الأب نوبين": وفى هذه السن تتعقل الفتيات وحينئذ تتعلم الفتاة كيف تبدو أنيقة ومقبولة فقد آن الأوان لتعرف الصرصارة أنها ليست صبيًا، يا إلهى كنا نظن أنها ستنقلب إلى ما هو أسوأ وتصبح عارًا على منطقتنا ولكنها رتبت مظهرها وعدّلت من نفسها مثل باقى الفتيات، وستعمل على أن يغفر الناس لأمها ماضيها وعندئذ لن تترك لأحد الفرصة للعيب فيها.

قالت الأم "كورتيلى": إن شاء الله، فمن غير المقبول أن يكون مظهر فتاة فى عمرها كالحصان الجامح ومن قلبى فإننى أتمنى كل الخير لـــ"فاديت"، فحين قابلتها أمس الأول وجَّهَت إلىَّ تحية الصباح وطلبت منى أن أدعو لها بكثير من الإخلاص وهى التى كانت فى الماضى تمشى خلفى وتقلد عرجى فى المشى.

قال الأب "هنرى": تلك الفتاة حمقاء أكثر من كونها شريرة، فقلبها لا يحمل الضغينة. صدقونى فأنا متأكد مما أقول، فكثيرًا ما كنت أعهد إليها برعاية أحفادى عندما تكون ابنتى مريضة فيمكثون

معها فى الحقل وترعاهم بود وترحاب شديدين حتى إنهم كانوا لا يرغبون فى تركها.

قالت الأم "كوتورييه": ولكن هل صحيح ما يردده الناس من أن أحد الصبيين التوأم أبناء "الأب باربو" كان مغرمًا بها فى يوم عيد "القديس أندوش"؟

رد الأب "نوبين": أوه لا يجب أخذ الأمر على محمل الجد، فهى مزحة طفولية وعائلة "باربو" ليسوا أغبياء سواء الأطفال أو الأب والأم، هل فهمتم؟

هكذا تحدثوا عن "فاديت الصغيرة"، وفى أغلب الأحيان كانوا لا يتذكرونها لأنهم أصبحوا لا يرونها تقريبًا.

الفصل الخامس والعشرين

ولكن "لاندرى باربو" هو الشخص الذى يراها دائمًا ويعطيها قدرًا كبيرًا من الاهتمام، ولطالما شعر بالغيظ عندما لا يستطيع التحدث معها على راحته ولكن بمجرد أن يمضى بضع دقائق معها يهدأ ويشعر بالسعادة لأنها تعلمه المنطق والشعور بالرضا من خلال كل أفكارها وكانت تلاعبه لعبة صغيرة بها بعض الدلال، أو على الأقل هذا ما كان يعتقده أحيانًا، ولكن لأنها كانت تتميز دائمًا بالخلق الدمث ولم تسع لنيل حبه إلا إذا قلب الأمر مرات عدة فى رأسه لذا فلم يشعر بأى خزى فى هذا الصدد، ولم تستطع أن تشك فى رغبته فى خداعها بشأن قوة هذا الحب خصوصًا وأن هذا الاندفاع فى الحب لا يتوافر عند من يعيشون فى الريف الذين يتحلون بالصبر أكثر ممن يعيشون فى المدينة، وبصفة خاصة "لاندرى" الذى كان صبورًا أكثر من غيره، فلم يكن أحد ليتصور أن يترك هو نفسه ليحترق فى نار الحب حتى إن من يتوصل لمعرفة حالته – التى يخفيها تمامًا – ليشعر بذهول عظيم، أما "فاديت الصغيرة" عندما رأت أنه منحها نفسه بالكامل وفجأة خشيت أن تكون تلك النار كالتى تنشب فى كومة قش وتنطفئ سريعًا، أو أن تنالها النار دون فائدة عندما لا تتطور الأمور كثيرًا بينهما فلا يمكن لطفلين فى هذا العمر أن يتزوجا على الأقل كما يقول الأهل وكما تقتضى الحكمة لأن الحب لا يقبل

الانتظار وإذا أصاب الصغار أمثالهم فتكون معجزة أن ينتظر موافقة الآخرين.

لكن "فاديت الصغيرة" التى يوحى مظهرها بأنها لا تزال طفلة أكثر من غيرها كانت تحوى عقلاً وإرادة يفوقان عمرها بكثير فكان ذكاؤها حادًا وتفخر هى بذلك خصوصًا وأن قلبها كان ملتهبًا بنفس القدر وربما أكثر حرارة من قلب "لاندرى"، كانت تحبه بجنون لكنها تتعامل معه بحكمة بالغة، فهى وإن قضت ليلها ونهارها وكل ساعة من وقتها تفكر فيه وتحترق من لهفتها عليه ورغبتها فى تدليله كانت حين تراه تكتسى ملامحها بالهدوء وتحدثه بكل تعقل وتتظاهر بأنها لم تعرف بعد نار الحب ولا تسمح له إطلاقًا حين يصافحها أن يلمس أكثر من قبضتها.

وغالبًا ما تقابلا فى الأماكن المنعزلة وعندما يحل الليل عليهما كان من الممكن أن ينسى "لاندرى" نفسه فلا يتذكر الحدود بينهما خصوصًا وأنه مفتون بها إلا أنه كان يخشى كثيرًا أن يتصرف بطريقة لا تروقها فيتحفظ خوفًا من ألا تكون تقاسمه هذا الحب الذى كان يعيشه معها ببراءة فتراه يحس كما لو كانت أخته أو كما لو كان هو أخاها النطاط "جانيه".

كى تلهيه عن الفكرة التى لا تريد أن تشجعه عليها أبدا كانت تعلمه العلوم التى تفوّق فيها عقلها وموهبتها على ما علمتها إياه جدتها ولم ترد أن تترك أى شىء يبدو غامضًا لـ"لاندرى"، ولأنه كان يخشى قليلاً من كل ما له علاقة بالسحر فقد قصدت أن تطمئنه أن الشيطان لا علاقة له بأسرار علمها. قالت له ذات يوم:

- خطؤك يا "لاندرى" أنك تدخل الأرواح الشريرة، فالحق أنه لا توجد سوى روح واحدة وهى روح خيرة بالتأكيد لأنها روح الله، أما إبليس فهو من اختراع قداسة القسيس، و"جورجيون"(*) من اختراع التجار القدامى فى هذه البلدة وحينما كنت صغيرة صدقت وجوده وانتابنى الخوف من الرُّقى التى تتلوها جدتى لكنها سخرت منى لأنه إذا كان عندك حسن تفكير لعرفت أن من يشكك فى كل شىء هو من يقنع الآخرين بكل شىء، وأن أقل الناس اعتقادًا فى الشيطان هم السحرة الذين يتظاهرون باستدعائه لتحقيق أى مطلب، فالسحرة متأكدون من أنهم لم يروه ولم يتلقوا منه أى مساعدة وأما هؤلاء البسطاء الذين يعتقدون فيه والذين يقومون باستدعائه لا يستطيعون أن يحضروه بدليل ما فعله طحان "ممر الكلاب" الذى – كما حكت لى جدتى – مشى فى أربع طرقات يحمل هراوة ليستدعى الشيطان – وكما قال هو– ينسفه بضربة من هراوته ليطحنه، وسمعناه يصيح فى قلب الليل" هل ستأتى أيها الثعلب؟ أم ستظهر فى

(*) جورجيون: اسم وسيط للشيطان. (المترجمة)

صورة كلب مسعور؟ تعال أيها الشيطان الحقير" جورجيون" وأبدًا لم يظهر "جورجيون" حتى جن الطحان من الغرور وهو يقول: إن الشيطان مات خوفًا منه.

- ولكن ما تعتقدينه بأن الشيطان ليس له وجود يخالف ما يقوله الدين المسيحى يا عزيزتى "فونشون".

وأجابته: أنا لا أستطيع أن أجادل فى هذا الأمر ولكن إذا كان موجودًا فأنا على يقين أنه لم يكن ليستطيع أن يأتى هنا على الأرض ليؤذينا ويسلبنا روحنا ليبعدها عن الله، فهو لا يستطيع أن يمتلك كل تلك الوقاحة ولأن الأرض ملك لله تعالى فإن الله وحده هو من يتحكم فى كل شىء بما فى ذلك الناس التى تعيش عليها.

وتخلى "لاندرى" عن خوفه القديم ولم يستطع إلا أن يعجب بما تعكسه أفكارها وعباداتها من تدين حقيقى، حتى إنها تتميز بورع أكثر عمقًا من غيرها، فهى تحب الله بكل قلبها لأن عقلها كان متقدًا وقلبها حنونًا فى كل تفاصيل حياتها وحين تتحدث عن هذا الحب لـــ"لاندرى" تملؤه الدهشة لأنه يتعلم قول صلوات، واتباع طقوس ما كان يتصور أن يفهمها يومًا فيما يتعلق بالعبادات يتوجه بكل إجلال بدافع من إحساسه بالواجب دون أن يتقد قلبه بحب الخالق كما هو الحال بالنسبة إلى "فاديت الصغيرة".

الفصل السادس والعشرون

تعلم "لاندرى" منها خصائص الأعشاب وصفات العلاجات المختلفة للبشر أو للماشية، وسريعًا ما جرب تأثير هذه العلاجات على بقرة من أبقار "الأب كيلو" وكانت قد أصيبت بانتفاخ بعد أكلها لكمية كبيرة من العشب وتركها الطبيب البيطرى وقال إنها لم يتبق لها أكثر من ساعة فى الحياة فسقاها "لاندرى" من دواء تعلم تحضيره من "فاديت الصغيرة"، فعل ذلك بسرية تامة؛ وفى الصباح حين جاء الفلاحون وهم منزعجون للغاية من فقد بقرة حلوب كتلك البقرة ليحملوها ويلقوا بها فى حفرة كبيرة لدفنها، إذا بها واقفة على قدميها تبحث عن الأكل من جديد وهى فى حالة جيدة وقد تلاشى من عليها كل أثر للمرض ومرة أخرى لدغت حية دجاجة واتبع "لاندرى" أيضًا ما تعلمه من "فاديت الصغيرة" فأنقذها بمهارة بالغة، كما استعان بالعلاج الذى تعلمه منها أيضًا فى علاج صرع أصاب كلبًا فى "البريش" شفى ولم يعض أحدًا بعد ذلك، كما كان "لاندرى" يخفى قدر ما يستطيع مخالطته "فاديت الصغيرة" فلم يتباه بعلمه وكان شفاء هذه الحيوانات يعزى إلى العناية الفائقة التى يوليها "لاندرى" لها، ولكن "الأب كيلو" الذى كان يفهم ما يحدث – مثله مثل كل مزارع أو فلاح ماهر – اندهش وقال:

- لم يكن "الاب باربو" حاذقًا فى رعاية الماشية وليس له حظ معها إذ فقد العديد منها خلال العام الماضى ولم تكن تلك هى المرة الأولى بينما يحمل "لاندرى" لها الشفاء، وهى ميزة يأتى بها الإنسان إلى الدنيا، فأما أن يولد بها أو لا يولد بها، كالفنانين مثلاً حين يدرسون فى المدارس الفنية فإن ذلك لا يفيد إذا لم يكونوا موهوبين بطبيعتهم، لذا فأنا أرى أن "لاندرى" هذا موهوب وأن موهبته وجدت ما يتوافق معها والحق أنها هبة عظيمة من الطبيعة وسيفيده ذلك أكثر من أى أموال فى إدارة مزرعة.

ما قاله "الأب كيلو" لم يصدر عن رجل ساذج وبلا عقل ولكن جانبه الصواب فقط فيما يتعلق بوصف علم "لاندرى" "بهبة الطبيعة"؛ فما نجح فيه "لاندرى" هو تطبيق حصيلة ما تعلمه بحرص، لكن "هبة الطبيعة" ليست منحة للجميع، "ففاديت الصغيرة" هى التى تمتلكها فإلى جانب القليل من الدروس العاقلة التى أعطتها لها جدتها اكتشفت وخمنت، بل أبدعت فى مجال الفضائل والمميزات التى وضعها الله تعالى فى بعض أنواع الأعشاب، وبعض طرق استخدامها ولم تكن ساحرة فى ذلك وكانت محقة فى أن تنفى ذلك عن نفسها، فهى تمتلك العقل الذى يلاحظ ويعقد المقارنات والملاحظات ويجرب المحاولات وهذا هو ما يسمى بـــ"هبة الطبيعة" ولا يستطيع أحد أن ينكر ذلك بيد أن "الأب كيلو" بالغ قليلاً فى رؤيته للأمر، فهو يرى أن كل راعى أبقار بل كل فلاح يمتلك أيدى شافية قد يزيد أو يقل ذلك بقدر بسيط

من فلاح إلى آخر بقدر تفاوت وجوده فى الحظيرة فإما ينفع وإما يضر الماشية، ورغم ذلك ولأنه دائمًا ما يكون هناك جزء من الحقيقة فى أكثر الاعتقادات الخاطئة، فلابد أن نتفق على أن العناية الجيدة والنظافة وأداء العمل بعناية تؤدى إلى علاج ما يمكن أن يفسده الإهمال والحماقة.

ولأن "لاندرى" يمزج أفكاره وذوقه بهذه الأشياء فإن حبه لـ"فاديت الصغيرة" زاد كثيرًا بسبب العرفان الذى شعر به تجاهها لكل ما لقنته من علوم ومعرفة وبسبب التقدير الذى يكنه لموهبة هذه الفتاة الصغيرة كان شديد التقدير لها لأنها أجبرته على أن يلتهى عن حبه فى أثناء النزهات واللقاءات التى يقضيها معها واعترف بأنها اهتمت بمصلحة حبيبها ونفعه أكثر من اهتمامها بمغازلته لها كما تمنى أن يفعل فى البداية.

وسريعًا ما تطور الأمر فكان "لاندرى" مولعًا بها حتى إنه وضع تحت قدميه الخزى الذى كان يشعر به لكونه يحب فتاة معروفة بأنها قبيحة وسيئة الطبع وغير مؤدبة وعندما كان يأخذ حذره أحيانًا يكون ذلك حرصًا على أخيه فقط حتى لا يشعر بالغيرة، فقد بذل "لاندرى" فيما قبل جهدًا كبيرًا ليجعل أخاه يتقبل – دون أن يغتاظ- مشاعره المحدودة لـ"مادلون" والتى كانت مشاعر هادئة للغاية إذا ما قورنت بتلك التى يشعر بها تجاه "فونشون فادية".

ولكن إذا كانت مشاعر"لاندرى" متقدة حتى لا يستطيع أن يسيطر عليها بالحكمة فعلى العكس كانت "فاديت الصغيرة" التى يميل عقلها إلى الغموض لا ترغب فى أن يكون "لاندرى" موضعًا لسخرية الآخرين، كانت تحبه كثيرًا بدليل أنها لا ترضى بأن تسبب له ألمًا إذا ما دخل فى مشاكل مع عائلته فطلبت منه أن يتكتم الأمر حتى إنهم تخطوا العام قبل أن يكتشف أمر علاقتهم فعود "لاندرى" "سيلفنى" على ألا يراقب كل خطواته ومشاويره وكانت البلدة غير مزدحمة قط بالسكان ومجزأة بالمجارى المائية ومغطاة بالنباتات العشبية مما هيأ لهذا الحب أن ينمو فى السر.

وفهم "سيلفنى" أن أخاه لم يعد منشغلاً بـ"مادلون" وعلى الرغم من أنه كان قبل هذا يعتبر التقاسم فى قلب "لاندرى" شرا لابد منه خفف من وطأته خجل "لاندرى" وحكمة الفتاة, فقد سعد بعد انفصالهما لظنه أن "لاندرى" لن يكون متعجلاً ليمنح قلبه لفتاة أخرى وغادرت الغيرة قلبه وترك له حرية أكبر فى انشغالاته عنه وفى جولاته وفى أيام الأعياد أو فى أيام الراحة، ولم تنقص "لاندرى" الحجج لتبرير ذهابه وإيابه خصوصًا فى مساء أيام الآحاد، فكان يغادر "البيسونيير" فى موعد مبكر ولا يذهب إلى "البريش" إلا عند منتصف الليل؛ وهو ما كان ملائمًا له حيث وضع سريرًا صغيرًا فى الـ"الكارفانيون" وهو المكان الملاصق للحظيرة والذى يخزن فيه العبيد - إذا وجد - والسلاسل التى تربط بها الماشية والنعال الحديدية وكل ما يلزم

الماشية التى تستخدم فى عمليات الزراعة والحرث وما يلزم من أدوات العمل فى الحقل، وبهذه الطريقة استطاع "لاندرى" أن يعود فى الميعاد الذى يريده دون أن يوقظ أحدًا، وكان دائمًا ما يحتفظ بيوم الأحد لنفسه ويعود إلى العمل يوم الإثنين وبخاصة أن "الأب كيلو" وابنه الأكبر – اللذين كانا فى غاية الحكمة والعقل – لا يذهبان فى أيام الآحاد إلى الحانات أو إلى حفلات العرس التى تقام عادة فى أيام العطلات، وقد اعتادا أن يأخذا على عاتقهما العناية وملاحظة كل ما فى المزرعة فى تلك الأيام؛ حتى يتاح للصغار– الذين يعملون أكثر منهما طوال باقى الأسبوع – أن يمرحوا ويلهوا بحرية كما تقضى أوامر الله.

أما خلال الشتاء حيث يكون الليل شديد البرودة وبالتالى يصعب الكلام فى الحب فى الهواء الطلق فى الحقول توفر لـــ"لاندرى" و"فاديت الصغيرة" ملجأ آمن فى برج "جاكوت" الذى هجره الحمام منذ سنوات طويلة وهو مغطى جيدًا ومحكم الغلق ويتبع مزرعة الأب "كيلو" الذى كان يستخدمه فى تخزين الفائض من محاصيله الغذائية وكان "لاندرى" يحمل مفتاح هذا البرج الذى يقع على حدود أرض "البريش"، أى قريبًا من معبر "روليت" وسط حقل برسيم محاط بسياج قوى ولهذه الأسباب كلها لم يكن الشيطان نفسه ليستطيع أن يصل إلى مكان لقاءات العاشقين، وحين يكون الجو لطيفًا يتمشى العاشقان بين قطع الخشب المقطعة حديثًا والمنثورة فى البلدة

بأكملها، تلك الأماكن كانت مناسبة للصوص والعاشقين ولأن البلدة كانت تخلو من اللصوص فقد استفاد منها العاشقان على أكمل وجه ولم يعرفا فيها الخوف كما لم يعرفا الملل.

الفصل السابع والعشرون

ولأنه ما من سر يدوم طويلاً ففى أحد أيام الآحاد المشرقة كان "سيلفنى" يسير بمحاذاة السور المحيط بالمقابر حين سمع صوت أخيه وهو يتكلم على بعد خطوتين منه خلف المنحنى الذى يسببه السور، كان "لاندرى" يتحدث بصوت خفيض ولكن "سيلفنى" الذى تبين صوت أخيه استطاع أن يخمن الحديث دون أن يسمعه جيدًا.

قال "لاندرى" موجهًا حديثه إلى من لم يستطع "سيلفنى" أن يتبينه: لماذا لا تريدين أن تأتى لترقصى؟ منذ وقت طويل لم يعد أحد يراك تتوقفين بعد القداس ولن يستنكر أحد إذا ما راقصتك، فمن المفترض أنى لا أعرفك تقريبًا يا "فاديت" ولن يقال إنى أراقصك بدافع الحب بل بدافع من الإخلاص ولأن الفضول متملكنى لمعرفة إذا ما كنت لا تزالين تجيدين الرقص.

أجابه صوت لم يعرفه "سيلفنى" لأنه لم يسمعه منذ وقت طويل، فـ"فاديت الصغيرة" ظلت لوقت طويل مبتعده عن كل الناس وعنه هو تحديدًا: كلا يا "لاندرى" كلا، فمن الأفضل ألا يلتفت إلىّ الآخرون، وإذا رقصت معى مرة فستتبع هذا التقليد فى كل أيام الآحاد ولا يجب أن نفعل ما يجعلهم يتحدثون عنا، صدقنى فيما أقوله لك دائمًا يا "لاندرى"؛ إن اليوم الذى سيعرف فيه الناس أنك تحبنى

هو اليوم الذى ستبدأ فيه آلامنا، اتركنى لأذهب الآن وبعد أن تحتفل بيوم الإجازة مع والديك وأخيك تعالَ إلى حيث اعتدنا أن نتقابل.

قال "لاندرى": ولكنه أمر محزن ألا تستطيعين الرقص أبدًا!! فأنت تحبين الرقص كثيرًا يا عزيزتى كما أنك تجيدينه! يا لسعادتى حين ألتقط يدك وتدورين بين ذراعىَّ، وحين أطالعك برشاقتك ورقتك وأنت لا ترقصين إلا معى!!

وردت عليه "فاديت": إن ما تقوله هو ما لا يجب فعله أبدًا، ولكننى أرى أنك تشتاق إلى الرقص يا عزيزى "لاندرى" ولا أدرى لماذا تركته وجئت إلى هنا، اذهب وارقص قليلاً فأنا أسعد حين أفكر أنك تستمتع بوقتك وسأنتظرك فى موعدنا بفارغ الصبر.

قال "لاندرى" بصوت يكاد يكون غير مسموع: أوه! أنت بالفعل صبورة جدًا!! ولكننى أفضل أن أقطع ساقى على أن أرقص مع فتيات لا أشعر بالحب تجاههن ولا يمكن أن أُقَبِّلهن ولو دفعوا لى مائة فرنك.

أجابته "فاديت": إذن! فإذا رقصت لابد لى وأن أرقص مع غيرك بعد أن أرقص معك وأن أقبل أن يقبلونى أيضًا.

قال "لاندرى": اذهبى! اذهبى من هنا بسرعة! أنا لا أقبل أبدًا أن يُقَبِّلك أحدهم.

ولم يسمع "سيلفنى" بعد ذلك سوى خطوات تبتعد وكى لا يراه أخوه وهو يتنصت على حديثه لأنه كان يمشى فى اتجاهه دخل بسرعة إلى المقابر كى يمر أخوه دون أن يراه.

ما اكتشفه "سيلفنى" كان بمثابة سكين يقطع فى قلبه ولم يسع أبدًا ليعرف من تكون تلك الفتاة التى يحبها أخوه بكل هذا الاندفاع، كان يكفيه أن يعرف أن "لاندرى" قد أهمله من أجل شخص آخر استحوذ على أفكاره حتى ليخفيها عن أخيه التوأم ولم يبح له بتلك الأفكار وقال "سيلفنى" محدثًا نفسه: لابد وأنه يرتاب منى وأن تلك الفتاة ستشجعه على أن يخشانى ويكرهنى. لا أتعجب الآن حين أتذكر شعوره بالملل وهو فى المنزل وقلقه حين أرغب فى التنزه معه فأتركه معتقدًا أنه يميل إلى أن يكون بمفرده؛ ولكن الآن لن أعكر عليه صفو علاقته. لن أحدثه فى الأمر فبالتأكيد سيغضب إذا عرف أننى اطَّلعت على ما كان يريد إخفاءه عنى، سأتحمل الأمر وحدى بينما يستمتع هو بالتخلى عنى.

التزم "سيلفنى" بما عاهد به نفسه، بل ذهب إلى أبعد مما يحتاج الأمر لأنه لم يتخل فقط عن رغبته فى أن يمكث أخوه بجواره – بل رغبة منه فى ألا يضايقه- كان يغادر المنزل قبل "لاندرى" ويذهب... يغرق وحده فى أفكاره سائرًا فى مرعاه دون رغبة منه فى أن يذهب إلى وسط البلدة لأنه كان يقول لنفسه: "إذا ما قابلت "لاندرى" صدفة سيتصور أننى أراقبه ويظن أننى تعمدت مضايقته".

وتدريجيًا عاد إليه حزنه القديم الذى كان قد شفى منه، وعاد إليه ثقيلاً وعنيدًا، وسريعًا ما بدا عليه وتحدثت معه أمه بلطف فى الأمر ولكنه لم يعترف بحقيقة ما يضايقه فكان يشعر بالخزى لأنه فى سن الثامنة عشرة ويعانى الضعف نفسه الذى كان يعانى منه وهو فى الخامسة عشرة.

تلك المقاومة هى التى أنقذته من مرضه لأن الله لا يتخلى إلا عن هؤلاء الذين لا يساعدون أنفسهم أما من يكون لديه الشجاعة ليكتم ألمه فتتزايد قدرته على مواجهته من الذى يشكو دائمًا من الألم، وأصبح الفتى المسكين دائم الشحوب والحزن؛ فكان يصاب من آن إلى آخر بالحمى كما ظل نحيفًا وهزيلاً مع أنه يزداد طولاً ولكن بمعدل بسيط، لم يكن يتحمل العمل الشاق ولكنها لم تكن غلطته لأنه يعرف أن العمل مفيد بالنسبة إليه كما أن حزنه أزعج بالطبع والده ولم يكن "لاندرى" يريد أن يغضبه بمظهره الضعيف وعدم قدرته على العمل لذا فقد انخرط فى العمل وزاد شعوره بالحنق من نفسه من حماسته وحين كان يضغط على نفسه ويعمل أكثر مما يحتمل. كانت تخور قواه فى اليوم التالى فيرقد دون أن يفعل شيئًا.

قال "الأب باربو": لن يكون "سيلفنى" أبدًا مزارعًا قويًا يتحمل العمل فى الأرض ولكنه يقوم بما يستطيع، وحين يستطيع فإنه يعمل أكثر مما يحتمل، لهذا السبب لا يمكن أن أتركه يعمل عند الآخرين

خشية أن يتعرض للوم فينسى نفسه حين تواتيه قدرته المحدوده فيقتل نفسه سريعًا وأظل أؤنب نفسى بقية حياتى.

استحسنت "الأم باربو" تلك الأسباب وبذلت قصارى جهدها لتسعد "سيلفنى". استشارت العديد من الأطباء حول صحته وقالوا لها أن تغذيه جيدًا ولا تجعله يشرب إلا اللبن لأنه ضعيف وقال لها آخرون أن تعطيه نبيذًا من النوع الجيد لأنه ضعيف للغاية ويحتاج قلبه أن يقوى ولم تعرف الأم بالطبع أيهما تتبع وهو ما يحدث عادة حين نسأل كثيرين عن رأيهم.

من حسن الحظ أنها فى شكها بين هذا وذاك لم تتبع أحدهما وسار "سيلفنى" فى طريقه الذى قدره الله له دون أن يعرف ما الذى يجعله يتجه يمينًا أو يسارًا واحتضن ألمه الصغير دون أن يبدو عليه الجنون حتى اللحظة التى رأى فيها حب "لاندرى" النور حينها فاقت آلام "لاندرى" أى ألم شعر به أخوه.

الفصل الثامن والعشرون

كانت "مادلون" هى التى كشفت المستور وإن كانت قد اكتشفت الأمر بالصدفة ودون أى خبث فإنها بعد اكتشافه اتخذت موقفًا سيئًا وكانت بالطبع قد نسيت مشاعرها لـــ"لاندرى" إذ لم تقض وقتًا طويلاً تحبه وبالتالى لم يتطلب نسيانه وقتًا طويلاً، إلا أنه بقى فى قلبها بعض الغيظ والضغينة فانتظرت الفرصة كى تظهرهما، فمن الطبيعى أن يدوم الشعور بالغيظ عند المرأة أكثر من الشعور بالأسف.

وها هى الحكاية، "فالجميلة مادلون" التى اكتسبت هذا الصيت لمظهرها الرزين وللكبرياء الذى تعامل بها الفتيان كانت فى داخلها تحب التدلل ولا تملك نصف ما تملكه "فاديت الصغيرة" المسكينة من التعقل والإخلاص فى مشاعرها (على الرغم من كلام الآخرين المشين عن "فاديت الصغيرة" وتفسيراتهم المسيئة لتصرفاتها) وكان لـــ"مادلون" قصتان مع شابين قبل ذلك دون احتساب "لاندرى" وكانت تبدأ علاقة جديدة مع فتى ثالث هو ابن عمها، الابن الأكبر للعم "كيلو" الذى يعيش فى "البريش"، وقد اختارت هذا الأخير من فرط ما لاحقها فأعطته الأمل وخشيت أن ينفجر ولم تعرف أين يمكن أن يختبئا ليتحدثا على انفراد فأقنعته أن يتحدثا فى "برج جاكوت" الذى يقضى فيه "لاندرى" و"فاديت الصغيرة" لقاءاتهما البريئة .

بحث الفتى عن مفتاح البرج ولم يجده مطلقًا لأنه كان دائمًا فى جيب "لاندرى"؛ ولم يجرؤ أن يسأل أحدًا عنه لأنه لا يمتلك أسبابًا منطقية للسؤال عنه، ومن المفهوم أن أحدًا لن يشغل باله بمعرفة مكانه ما عدا "لاندرى" بالطبع, وظن الفتى "كيلو" أنه فقد أو أن والده يحفظه فى رزمة مفاتيحه ولن يضيره إذا كسر الباب ولكن فى اليوم الذى قررا فيه أن يفعلا ذلك كانت "فاديت الصغيرة" و"لاندرى" داخل البرج فغلب الارتباك العشاق الأربعة وهم يتبادلون النظرات فيما بينهم وتشاركوا فى الصمت كما تشاركوا فى العزم على عدم نشر الأمر.

ولكن حدث لـ"مادلون" نوع من انتكاسة غيرة وغضب خصوصًا وهى ترى "لاندرى" - الذى أضحى أحد أجمل شباب البلدة وأكثرهم احترامًا وتقديرًا بين الناس - يحتفظ منذ عيد " القديس أندوش" بهذا الإخلاص الفريد "لفاديت الصغيرة" فعقدت العزم على الانتقام منه لهذا ودون أن تخبر الشاب "كيلو" عما تنويه لأنه كان شابًا أمينًا ولم يكن ليوافقها أبدًا. استعانت بفتاتين أو ثلاث من صديقاتها - اللاتى كن مغتاظات أيضًا من تجاهل "لاندرى" لهن حيث لم يعد يدعوهن إلى الرقص - لمراقبة "فاديت الصغيرة" فلم يحتجن إلى وقت طويل ليتأكدن من حبها لـ"لاندرى" وسريعًا ما ترقبن لقاءاتهما فرأوهما مرة أو مرتين معًا فأخذن ينشرن لغوهن فى البلدة بأكملها وقلن لكل من يرغب فى الاستماع إن "لاندرى" أقام علاقة

غير شرعية مع "فاديت الصغيرة" وكلنا يعلم أن النميمة لا تحتاج إلى آذان كى تسمع ولا ألسنة كى تتردد بل تكاد تنتشر وحدها.

ثم انخرطت كل الفتيات فى الحديث عن الأمر لأنه إذا اهتم شاب بهىّ الطلعة وثرىّ بفتاة تعتبر باقى الفتيات هذا الارتباط إهانة موجهة إليهنَّ جميعًا وإذا حانت الفرصة انكببن لينهشن فيها جميعًا دون أن يغلطهن أحد، ويمكن القول أيضًا إنه حين تتآمر النساء فإن النتائج تكون سريعة وعنيفة.

بعد خمسة عشر يومًا من مغامرة "البرج" كان كل الناس فى البلدة يعرفون بأمر العلاقة بين التوأم "لاندرى" و"فونشون الصرصارة" دون أن يعرفوا تحديدًا شيئًا عن يوم البرج ودون التطرق إلى "مادلون" والتى بالطبع أجادت تصنُّع أنها لا تعرف عن الأمر شيئًا حين كانت تسمع من الآخرين وكأنها لم تكن هى محركة هذا اللغو سرًا منذ البداية وعرف الجميع بالأمر صغارًا وكبارًا.

وكان من الطبيعى أن يصل الكلام إلى "الأم باربو" والتى تكدَّرت للغاية وتحاشت الحديث فى الأمر مع "الأب باربو" ولكنه علم من مصدر آخر، أما "سيلفنى" الذى تكتم الأمر منذ علم به كان حزينًا لرؤية الناس جميعًا وقد علموا بالأمر.

وفى مساء أحد أيام الآحاد بينما كان "لاندرى" يفكر فى مغادرة "البيسونيير" مبكرًا كما اعتاد قال له والده فى حضور والدته وأخته الكبرى وأخيه "سيلفنى":

– لا تتعجل فى مغادرتنا هكذا يا "لاندرى" فلدىَّ ما أحدثك فيه ولكننى أنتظر وصول إشبينك ليكتمل من يهتمون بأمرك فى عائلتنا وسأطلب منك توضيحًا أمامهم جميعًا:

وحين وصل إشبين "لاندرى" وهو "العم لاندريش"، تكلم "الأب باربو" قائلاً:

- أعرف أن ما سأحدثك فيه ربما يسبب لك بعض الشعور بالخزى يا عزيزى "لاندرى"، ولكنه يسبب لى أنا أيضًا نفس الشعور فضلاً عن الشعور بالأسف لكونى مضطرًا أن أحدثك فيه أمام الأسرة ولكنى أتعشم أن يكون هذا الخزى هو الشافى والمعالج لك من النزوة التى ستجلب لك الضرر الكبير.

يبدو أنك على علاقة عاطفية منذ عيد "القديس أندوش" الماضى أى ما يقرب من عام، والناس تتحدث فى الأمر منذ اليوم الأول. فمن الغريب أن ترقص طوال يوم العيد مع أكثر فتاة فى البلدة قبحًا وقذارة وسوء سمعة، ولم أعر الأمر اهتمامًا فى البداية لظنى أنه لا يعدو التسلية ولكنى لم أستحسن الأمر لسبب أنه إذا كان لا ينبغى أن نخالط الناس السيئين فكذا لا ينبغى أن نزيد من إذلالهم وبؤسهم

لشعورهم أنهم محتقرون من كل البشر وتجاهلت الحديث معك فى هذا الأمر لأننى حين رأيتك حزينًا فى اليوم التالى ظننت أنك تلوم نفسك على ما فعلت وتعتزم ألا تعود إلى ذلك أبدًا ولكن منذ أسبوع سمعت كلامًا جديدًا من أناس جديرين بالثقة ولا أريد تصديقه إلا إذا أكدته أنت لى، وإذا كنت قد أخطأت بشكى فيك يا "لاندرى" فبإمكانك أن ترجع الأمر إلى اهتمامى بك وإلى واجبى أن أراقب سلوكك؛ وإذا كان الكلام غير حقيقى فستسعدنى كثيرًا إذا أكدت لى ذلك وأعرف أنهم أضروك من باب الخطأ .

قال "لاندرى": والدى العزيز قل لى تحديدًا بماذا تتهمنى وسأجيبك صراحة تأكيدًا لاحترامى لك.

- إنهم يتهمونك يا "لاندرى" - وأعتقد أنك بالفعل سمعت ذلك بما يكفى - بأنك أقمت علاقة غير شرعية مع "فاديت الصغيرة" حفيدة "الأم فادية" المعروفة بأنها سيدة شريرة، هذا إلى جانب أن أم تلك الفتاة البائسة قد تركت زوجها وطفليها بكل حقارة لتتبع أحد الجنود، يقولون إنك تتنزه فى كل مكان مع "فاديت الصغيرة" وهو ما جعلنى أخشى أن ينتهى بك الأمر بالتورط فى علاقة غير شرعية معها وهو ما تندم عليه باقى حياتك. هل عرفت الآن يا "لاندرى"؟

- سمعت جيدًا يا أبى العزيز ولكن قبل أن أجيبك هناك سؤال يؤرقنى: لماذا ترى علاقتى "بفاديت فونشون" علاقة سيئة.. هل بسبب عائلتها أم بسببها هى؟

أجاب "الأب باربو" ببعض القسوة التى لم تصاحب كلامه فى البداية لأنه توقع أن يرى "لاندرى" مرتبكًا ولكن وجده هادئًا وثابتًا أمام كل ما قيل: بالتأكيد للسببين، أولاً لأنه إذا كان الأبوان سيئى السمعة فهى وصمة تلتصق بالإنسان ولا يمكن لعائلة جديرة بالشرف والاحترام مثل عائلتنا أن تكون على علاقة بعائلة "فادية" ثم إن "فاديت الصغيرة" نفسها لا توحى لأى إنسان بأنها جديرة بالتقدير والثقة فنحن رأيناها وهى تنمو وتكبر ونعرف كل ما صدرعنها، الحق أننى سمعت فى الآونة الأخيرة ورأيت ذلك بعينى مرة أو مرتين أنها منذ ما يقرب من سنة تحسنت ولم تعد تجرى مع الصبية الصغار ولا تتحدث بكلامها البذىء مع أحد – فكما ترى أنا لا يمكن أن أحيد عن الحق- ولكن هذا لا يكفينى لأقتنع أن طفلة لم تتربَّ كما يجب يمكن أن تصبح امرأة أمينة ومخلصة، وأنت تعرف بالطبع جدتها كما أعرفها أنا وأخشى أن يكون فى الأمر محاولة لابتزاز بعض الوعود منك مما يسبب لك الخزى والحيرة، كما قيل إن "فاديت الصغيرة" حبلى وهو أمر لا يستخف به، بل على العكس آلمنى كثيرًا لأنه بالتأكيد سينسب ما حدث إليك وتلام عليه وينتهى الأمر بقضية وفضيحة.

وعند هذا الحد نفد صبر "لاندرى" - الذى التزم من أول كلمة بالتعقل والإجابة الهادئة - واحمر وجهه فصار مثل النار ورفع صوته وهو يقول:

- والدى.. من قال لك ذلك كاذب. لقد أهانوا "فاديت فونشون" إهانة بالغة ولو أنهم أمامى الآن لكان عليهم إما أن يتراجعوا عن كلامهم وإما أن يتقاتلوا معى حتى يطرح أحدنا الآخر أرضًا، قل لهم إنهم جبناء وزنادقة وعليهم أن يأتوا ليقولوا أمامى ما افتروه بالباطل لأجعل منهم مزحة!!

قال "سيلفنى" وهو مهزوم من فرط الحزن: لا تغضب هكذا يا "لاندرى". والدى لا يتهمك أبدًا بأن تكون أنت من فعل هذا مع تلك الفتاة ولكنه يخشى أن تكون هى قد فعلت ذلك مع آخرين ومن كثرة ما رأوك تتنزه معها يطلب منك أن تصلح خطأ غيرك.

الفصل التاسع والعشرون

صحيح أن صوت "سيلفنى" هدَّأ من ثورة "لاندرى" قليلاً إلا أن ما قاله لا يمكن أن يمر دون أن يغضبه فهب واقفًا وهو يقول:

- أخى.. لا تستمع إلى كل هذا اللغو. لقد كنت دائمًا سيئ الظن "بفاديت الصغيرة" ولا تعرفها على حقيقتها مطلقًا، قد أنزعج قليلاً لما قالوه عنى ولكنى لا أحتمل مطلقًا ما قالوه فى حقها وأريد أن يعرف أبى وأمى منى حتى يطمئنا أنه لا يوجد على الأرض فتاة بمثل أمانة هذه الفتاة وحكمتها وجمال طبعها وموضوعيتها، وإذا كانت قد بليت بعائلة سيئة السمعة فهذا يزيد من استحقاقها للتقدير لما هى عليه وما كنت لأتصور أن نفسًا مسيحية حقًا يمكن أن تلومها على ما ليس لها دخل فيه.

قال "الأب باربو" وهو يقف أيضًا ليظهر له أنه لن يرضى بأن يتطور النقاش بينهما أكثر من ذلك: يبدو وكأنك توجه إلىّ اللوم يا "لاندرى". أرى من غضبك الشديد أنك تكن لتلك الفتاة أكثر مما تمنيته وبما أنك لا تشعر بالخزى أو الندم فلن نتحدث أكثر من ذلك وسأرى ما يجب علىّ فعله كى أمنعك من طيش الشباب هذا، والآن عليك الذهاب إلى سيدك.

قال "سيلفنى" وهو يمسك بأخيه، الذى شرع فى السير: لن تغادر هكذا يا "لاندرى"، أبى.. إن "لاندرى" لم يستطع النطق بكلمة واحدة من شدة حزنه لغضبك منه، سامحه وقبِّله يا والدى لأنه سيظل يبكى طوال الليل وسيكون شديد الحزن لغضبك منه.

بكى "سيلفنى" وكذا فعلت الأم والابنة الكبرى و"العم لاندريش"، بينما تماسك "الأب باربو" و"لاندرى" ولكن قلبيهما كانا متألمين، وقبَّل أحدهما الآخر وهما على هذه الحالة ولم يطلب الأب أى وعود من "لاندرى"، فهو يعرف جيدًا أنه فى حالة الحب تكون الوعود غير مؤكدة التنفيذ، ولم يشأ أن يضعف من تأثير سلطته الأبوية إذا طلب وعدًا بما هو غير قابل للتنفيذ لكنه قال لــ"لاندرى" إن الموضوع لم ينته وإنهما سيكملان حديثهما لاحقًا.

مشى "لاندرى" وهو غاضب وحزين وأراد "سيلفنى" أن يتبعه ولكنه لم يجرؤ لأنه توقع أن يذهب أخوه إلى "فاديت الصغيرة" لتشاركه حزنه ونام حزينًا ولم يفعل طوال الليل سوى التنهد والأحلام بما تتعرض له الأسرة من غم.

ذهب "لاندرى" ليطرق على باب "فاديت الصغيرة" وكانت "الأم فادية" قد فقدت السمع تقريبًا حتى إنه إذا ما نامت لا يوقظها شىء ومنذ أن انكشف أمر العاشقين لم يعد "لاندرى" يستطيع التحدث مع "فونشون" إلا فى الغرفة التى تنام فيها العجوز والصغير "جانيه"

وحتى فى هذا المكان كان معرضًا للخطر لأن الساحرة العجوز إذا ما أدركته لما كانت لتحتمله ولحملته على الخروج بضربات من عصا المكنسة بدلاً من الترحيب به، حكى "لاندرى" ألمه لـ"فاديت الصغيرة" ووجدها ذاعنة وشجاعة. فى البداية حاولت إقناعه أنه من الأفضل أن يتخلى عن العلاقة وألا يفكر فيها بعد ذلك ولكن حين رأت ثورته تتصاعد شجعته على الطاعة المؤقتة وهى تعطيه الأمل فيما يمكن أن تحمله الأيام التالية.

قالت له: اسمع يا "لاندرى"، كنت أتوقع ما نحن فيه الآن وكثيرًا ما فكرت فيما يمكن أن نفعله عند اللزوم، فوالدك لم يخطئ فيما قاله وأنا لا ألومه أبدًا لأنه - من فرط حبه الشديد لك - يخشى أن يراك مولعًا بفتاة لا تتمتع باحترام الآخرين مثلى وأنا أغفر له كبرياءه وظلمه لى لأننا لا يمكن أن ننكر أن فترة مراهقتى وطفولتى كانت مجنونة وأنت نفسك لمتنى عليها فى اليوم الذى بدأت فيه تحبنى، وإذا كنت قد بدأت منذ عام تقريبًا فى تصحيح أخطائى فلم تمر بعد فترة كافية ليضع ثقته فىّ كما قال لك اليوم، إذن يجب أن يمر بعض الوقت أولاً وستزول تدريجيًا نظرة الناس السابقة لى. أما ما اختلقوه من أكاذيب فستسقط وحدها وسيرى والداك أننى كنت عاقلة وأننى لم أرد أن أؤذيك أو أبتز منك المال وسيريان بعين العدل أن مشاعرى لك مخلصة ووقتها سنتقابل ونتحدث دون أن نختبئ من

الناس ولكن حتى يمر الوقت عليك بالطاعة لوالدك والذى سيمنعك من رؤيتى ومقابلتى دون شك.

قال "لاندرى": أنا لا أقدر على ذلك أبدًا وأفضل أن ألقى بنفسى فى النهر على أن أفعل ما تقولينه.

قالت "فاديت الصغيرة": حسنًا، إذا كنت لا تقدر على فعل ذلك سأفعله أنا، سأغادر البلدة لبعض الوقت، فمنذ ما يقرب من شهرين عُرِضَ علىَّ عمل مناسب فى المدينة، أعرف أن جدتى أصبحت عجوزًا وفقدت السمع تقريبًا حتى إنها لا تستطيع أن تهتم بتصنيع الأدوية وبيعها ولا تستطيع حتى أن تعطى استشاراتها ولكن لها قريبة فى غاية الطيبة عرضت عليها أن تأتى لتقيم معها وستراعيها على أكمل وجه وكذلك أخى المسكين "النطاط"...

وفى هذه اللحظة بدا صوت "فاديت الصغيرة" حزينًا ومكسورًا وهى تذكر تركها لأخيها الذى كان هو و"لاندرى" أكثر من تحبهما فى العالم ولكنها استعادت شجاعتها وأكملت:

- الآن هو أقوى، ويستطيع أن يعيش بعيدًا عنى وسيندمج فى مجتمعه، بالتأكيد سيتسلّى بالذهاب إلى مدرسة الكنيسة مع باقى الأطفال وهو ما سيلهيه عن حزنه لفراقنا، ولابد أنك لاحظت أنه أصبح مؤدبًا عما قبل وأن باقى الأطفال لا يضايقونه كما كانوا يفعلون فى السابق، وأخيرًا فكما ترى يا "لاندرى" لابد وأن ينسانى

الناس قليلاً لأنهم الآن يشعرون بالغضب والغيرة تجاهى ولكن حين أمضى عامًا أو عامين بعيدًا وأعود بهيئة مختلفة وبالتالى بسمعة جديدة وهو ما أستطيع تحقيقه فى المدينة أكثر بكثير من هنا، حينئذ لن يعذبنا أحد وستكون علاقتنا أقوى من أى وقت مضى.

لم يرغب "لاندرى" فى سماع كل هذا الشرح الذى أحبطه فعاد إلى "البريش" وهو فى حالة يشفق عليها أكثر القلوب قسوة.

وبعد يومين بينما كان يحمل البرميل الذى يجمع فيه قطوف العنب جاء ابن العم "كيلو" وقال له:

- لاحظت يا "لاندرى" أنك غاضب منى، ومنذ فترة لا ترغب فى الحديث معى وتعتقد أننى بلا شك من نشرت أخبار حبك "لفاديت الصغيرة"، ويغضبنى أن تظن أن مثل هذه الحماقة يمكن أن تصدر منى، أقسم بالله أننى لم أتفوه بكلمة، بل حزنت لما تعرضت له من مضايقات لأننى دائمًا ما كنت أُقَدِّرك يا "لاندرى" كما لم أوجه أبدًا إهانات إلى "فاديت الصغيرة"، بل أصبحت أقدر تلك الفتاة بعد ما حدث بيننا فى "برج جاكوت"، فقد كانت تستطيع أن تثرثر هى الأخرى بما رأته وهو ما لم يعرفه إنسان. لقد كانت كتومة وكان من الممكن أن تستخدم هذا الأمر على الأقل لتنتقم من "مادلون" إذ تعرف جيدًا أنها هى من حاكت كل تلك النميمة ولكنها لم تفعل ذلك أبدًا، وهو ما جعلنى أتيقن أنه لا يجب أبدًا أن نأخذ بالمظاهر، "ففاديت

الصغيرة" التى يقولون عنها خبيثة طيبة فى حقيقتها و"مادلون" المعروفة بعقلها وأخلاقها خائنة ليس فقط فى حق "فاديت الصغيرة" وفى حقك ولكن فى حقى أنا أيضًا وكم ألوم نفسى الآن على إخلاصى لها.

قبل "لاندرى" بقلب مفتوح كلام "كاديه كيلو" الذى واساه فى حزنه قدر استطاعته.

قال له: لقد تعرضت لآلام كبيرة يا عزيزى "لاندرى"، ولكن ما يجب أن يعزيك هو سلوك "فاديت" المتعقل، فمن الأفضل لها أن تغادر البلدة كى تنهى عذاب عائلتك وقد قلت لها ذلك للتو وأنا أودعها.

تساءل "لاندرى": ماذا قلت يا "كاديه"؟ هل رحلت؟

قال " كاديه": ألا تعلم؟ تصورت أنكما متفقان على هذا القرار وأنك لن ترافقها كى لا يلومونك مجددًا ولكنها رحلت بالتأكيد. لقد مرت من جانب بيتنا منذ حوالى ربع ساعة حاملة صرتها تحت ذراعها وستذهب إلى "شاتو- مليون"، وأعتقد أنها فى هذه اللحظة لم تتجاوز بعد "البلدة القديمة "، أو ساحل الـــ"أرمونت".

ترك "لاندرى" فأسه وسلك طريقه عدوًا ولم يتوقف إلا حين لاقاها فى الطريق الرملى الذى ينحدر من حقول العنب بـــ"أرمونت" إلى "قريميلان".

حينها سقط على الأرض فى طريقها دون أن يستطيع النطق بكلمة وهو منهك تمامًا من شدة الحزن ومن السرعة الكبيرة التى جرى بها ولكنه أشار لها بعلامات تعنى أنها ستمر على جثته وأنه لن يتركها.

وحين استعاد أنفاسه قليلاً قالت له "فاديت":

- أردت أن أعفيك من هذا العذاب يا عزيزى "لاندرى"، وها أنت تفعل كل ما فى وسعك لتجردنى من شجاعتى. كن رجلاً ولا تضغط على قلبى إلى هذا الحد، فأنت لا تعرف ما به وحين أتذكر أن "جانيه" المسكين يصرخ وهو يبحث عنى فى كل مكان الآن أشعر بضعفى حتى إننى أريد أن أكسر رأسى على هذه الصخور... آه!! أرجوك ساعدنى بدلاً من أن تعذبنى عقابًا على أدائى لواجبى؛ لأنه إذا لم أرحل الآن فلن أرحل أبدًا وسنضيع يا "لاندرى" ونفقد فرصتنا.

أجاب "لاندرى": "فونشون".. إنك لا تحتاجين إلى الكثير من الشجاعة، فأنت لا تتأسفين إلا على طفل سيشفى سريعًا لأنه طفل ولا تعبئين بيأسى فأنت لا تعرفين ماذا يعنى الحب لأنك لم تشعرى به تجاهى أبدًا وستنسينى سريعًا وربما لن تعودى ثانية أبدًا .

- سأعود يا "لاندرى" وأشهد الله أننى سأعود بين عام أو عامين على الأكثر وما نسيته يا "لاندرى" هو أنه لم يكن لدىَّ أبدًا صديق أو حبيب سواك.

- من الممكن ألا يكون لك صديق غيرى يا "فاديت" لأنك لن تجدى من يخضع لك كما فعلت ولكن بالنسبة إلى الحبيب فهذا أمر مشكوك فيه ولا أعرف من يمكن أن يؤكد ذلك؟

- أنا أؤكد لك يا "لاندرى"!!

- أنت نفسك لا تعرفين شيئًا عن الحب يا "فاديت"، فأنت لم تجربى الحب مطلقًا، وحين تصادفين الحب لن تتذكرى "لاندرى" المسكين، آآاه!! إذا كنت قد أحببتنى كما أحببتك لما استطعت أن تتركينى هكذا.

قالت "فاديت الصغيرة" وهى تنظر إليه بنظرة حزينة وحازمة فى الوقت ذاته: أتعتقد هذا يا "لاندرى"؟ ربما أنك لا تدرى ما تقول، أما أنا فأعتقد أن ما أفعله الآن إنما هو بدافع الحب أكثر من الصداقة.

- حسنًا فإذا كان دافعك هو الحب لما حزنت كل هذا الحزن، آه يا "فونشون"، إذا كان الحب هو دافعك فأنا أعرف أننى سأكون سعيدًا فى عذابى بسببك. وأثق فى كلامك وفى الأمل فى المستقبل وسأتحلى بالشجاعة التى تمتلكينها، نعم... ولكن ما تحسينه تجاهى ليس حبًا يا "فاديت". لقد قلت لى ذلك من قبل وأنا أراه جيدًا الآن فى هدوئك الشديد وأنت بجوارى.

قالت "فاديت" وهى تنظر إليه طوال الوقت بعينين تملؤهما الدموع التى سقطت على وجنتيها وهى تبتسم بطريقة غريبة: إذن أنت ترى أنه ليس الحب.. أواثق أنت من هذا؟

قال وهو يصرخ ويجتذبها ليضمها بين ذراعيه: آه يا إلهى يا إلهى ليتنى مخطئ!!

أجابته "فاديت" وهى تبكى وتبتسم فى ذات الوقت: أنت بالفعل مخطئ. أعتقد أن الصرصارة المسكينة قد لاحظت "لاندرى" منذ كان عمرها ثلاثة عشر عامًا ولم تلحظ غيره مطلقًا، وأعتقد أنها حين كانت تتتبعه فى الحقول وفى الطرقات وهى تقول له حماقاتها وجملها اللاذعة كانت تفعل ذلك لتجبره على الالتفات إليها ولم تكن تدرى بعد ما الذى تفعله وما الذى يدفعها فى اتجاهه، وأعتقد أنها حين أمضت يومها تبحث عن "سيلفنى" وهى تعرف أن "لاندرى" يتألم وحين وجدته على حافة النهر غارقًا فى التفكير وعلى ركبتيه حمله الصغير ذهبت لتمارس بعض الحيل مع "لاندرى" حتى يشعر تجاهها بالعرفان، وأعتقد أنها حتى حين أهانته عند معبر"روليت" كان ذلك بسبب غيظها وحزنها لأنه لم يتحدث معها مطلقًا. منذ ذلك اليوم وأعتقد أنها حين أرادت أن ترقص معه كان ذلك لأنها مولعة به وتمنت أن تعجبه برشاقتها فى الرقص وأعتقد أنها حين كانت تبكى فى محجر "الشوموا" كان ذلك من فرط الحسرة والألم لشعورها أنها لم تعجبه، وأعتقد أيضًا أنه حين أراد أن يقبّلها ورفضت هى حين

حدَّثها عن الحب وردَّت عليه هى بالحديث عن الصداقة كان ذلك بسبب خشيتها من فقد هذا الحب إذا أرضت احتياجاته سريعًا، وأخيرًا أعتقد أنها إذ ترحل الآن وقلبها يتمزق فهى تفعل ذلك على أمل أن تعود وهى جديرة به فى أذهان كل الناس كى تكون جديرة بأن تصير زوجته دون أن تسبب لعائلته الأسى والخزى.

فى هذه اللحظة تصور "لاندرى" أنه أدرك تمامًا وأخذ يضحك ويبكى ويصرخ فى آن فقبَّل يديها ورداءها وكاد يقبِّل قدميها لولا أنها رفعته بيدها وقبلته قبلة حب حارة كادت تميته، فهى المرة الأولى التى يتلقى منها أو من غيرها قبلة حتى سقط كمن أغمى عليه على حافة الطريق ولملمت "فاديت" صرتها يزينها حمرة الخجل والاضطراب لما كانت فيه من لحظات وشرعت فى السير وهى تمنعه من تتبعها وتقسم له أنها ستعود.

الفصل الثلاثون

انصاع "لاندرى" لرغبة "فاديت الصغيرة" وعاد إلى جنى العنب وهو مندهش لكونه لا يتعذب كما كان يتوقع، فكم هو شعور عذب حين عرف أنها تحبه وكم يكون يقيننا عميقًا حين يكون حبنا عميقًا، كان مندهشًا للغاية ومرتاحًا للغاية حتى إنه لم يستطع منع نفسه من الحديث إلى "كاديه" فيما يشعر به. اندهش هذا الأخير بدوره وأعجب بـ"فاديت الصغيرة" لأنها استطاعت أن تسيطر على ضعفها وطيشها منذ اللحظة التى أحبت فيها "لاندرى" وأحبها هو أيضًا فيها.

قال له: كم أنا سعيد لمعرفتى أن هذه الفتاة تمتاز بالكثير من الصفات الطيبة، فأنا لم أخطئ فى حكمى عليها أبدًا وبصراحة أقول لك إنها لو كانت التفتت إلىّ لما كنت لأرفضها أبدًا، على العكس. فبسبب عينيها كنت دائمًا أراها جميلة وليست قبيحة ومنذ بعض الوقت رأى الجميع أنها حين أرادت أن تكون جميلة ازدادت جمالاً يوم بعد يوم ولكنها تحبك أنت فقط يا "لاندرى" وراضية بألا تنال إعجاب الآخرين، فهى لا تسعى إلا لنيل رضاك وحدك، وأؤكد لك أن امرأة بهذه الصفات لهى التى تعجبنى تمامًا، وعلى الرغم من أنها كانت صغيرة الحجم والسن حين عرفتها فإننى كنت ألمس فيها القلب الكبير وإذا سألت أى إنسان ضميره حى وموضوعى عن رأيه فيها

أو ما يعرفه عنها فلن يستطع إلا أن يشهد لصفاتها، ولكن جرت العادة أنه حين يجرى اثنان أو ثلاثة خلف أحدهم تسرى نظرية القطيع فينضم إليهم الباقون ليرموه معهم بالحجارة ويلوثون سمعته دون أن يعرفوا لماذا، وبهذا يسحقون من لا يستطيع أن يدافع عن نفسه.

وجد "لاندرى" راحة كبيرة حين سمع تفسير "كاديه"، ومنذ ذلك اليوم بدأ التقارب بينهما وهو ما واساه قليلاً عما يشعر به من ضيق فكان يفضى به إلى "كاديه". ذات يوم قال له:

- لا تفكر ثانية فى هذه "المادلون" التى لا تساوى شيئًا والتى سببت لكلينا ألمًا بالغًا يا عزيزى "كاديه" القوى، فأنت فى نفس سنى ولا شىء يدعوك للتعجل فى الزواج ولدىَّ أخت صغيرة اسمها "نانيت" وهى جميلة مثل الزهرة ومؤدبة ورقيقة وأكملت الستة عشر عامًا وبإمكانك أن تأتى لزيارتنا بصورة أكبر، فوالدى يقدرك كثيرًا. وحين تتعرف على "نانيت" ستعرف أنه ما من فكرة أفضل من أن تصير زوج أختى.

أجابه "كاديه": يا إلهى! يسعدنى ذلك وإذا لم تكن الفتاة ميالة إلى شاب آخر فسأزوركم كل أحد.

عشية يوم رحيل "فاديت" أراد "لاندرى" أن يذهب إلى زيارة أبيه ليخبره بالسلوك الطيب لـ"فونشون فادية" والتى سبق وأساء

حكمه عليها وليعلن له فى الوقت نفسه انصياعه لإرادته فى الوقت الراهن مع الإبقاء على كل تحفظاته بشأن المستقبل، واغتم قلبه وهو يمر أمام منزل "الأم فادية" ولكنه تحلى بشجاعة فائقة وهو يواسى نفسه بالقول إنه لولا رحيل "فاديت الصغيرة" لظل ربما لفترة طويلة لا يعرف السعادة التى أحسها حين عرف أنها تحبه، ورأى الأم "فانشيت" إشبينة "فاديت الصغيرة" التى جاءت لتعتنى بالجدة والصغير بدلاً منها، كانت جالسة أمام البيت و"النطاط" على ركبتيها وكان المسكين "جانيه" يبكى ويرفض الذهاب إلى سريره لأن "فونشون" لم تكن قد عادت بعد وهى من تتلو بجانبه الصلوات وترقده فى سريره، وشدت الأم "فانشيت" من عزمه قدر استطاعتها واطمأن "لاندرى" حين سمعها تحدثه برقة ومحبة بالغة، ولكن حالما رأى "النطاط" "لاندرى" يمر أمامه قفز من بين يدى الأم "فانشيت" معرضًا نفسه لأن تعرقل ملابسها إحدى قدميه وجرى وألقى بنفسه على قدمى "لاندرى" يُقبّلهما ويسأله ويتوسل إليه أن يعيد إليه "فونشون" وأخذه "لاندرى" بين ذراعيه وهو يبكى وواساه قدر الإمكان وأراد أن يعطيه عنقودًا من العنب الذى يحمله فى سلته الصغيرة والذى أرسلته الأم "كيلو" للأم "باربو" إلا أن "جانيه" الذى كان فى العادة شرهًا للغايه لم يرد شيئًا إلا أن يعده "لاندرى" أن يذهب ويستدعى أخته "فونشون"، وفى النهاية اضطر "لاندرى" أن يعده وهو يتنهد وإلا لما أذعن لـــ"فانشيت".

لم يتوقع "الأب باربو" أبدًا الحل الذى قدمته "فاديت الصغيرة" ومع ذلك أسعده ولكن كان لديه ما يشبه الأسف لما اضطرت لفعله فقد كان رجلاً عادلاً وطيب القلب.

قال له: أنا غاضب يا "لاندرى" لأنك لم تملك الشجاعة الكافية لتتخلى عن علاقتك بها، وإذا كنت قد تصرفت وفقًا لواجبك لما تسببت فى رحيلها فليلطف الله بتلك الفتاة المسكينة فى ظروف حياتها الجديدة، وأدعو ألا يسبب غيابها ضررًا لجدتها أو لأخيها الصغير لأنه إذا كان الكثيرون يتحدثون عنها بما يسىء إليها فهناك البعض ممن يدافعون عنها وقد أكدوا لى أنها كانت خير عون لعائلتها وإذا كان خبر حملها كذبًا فسنتبين ذلك وندافع عنها كما يقتضى الأمر، ولكن إذا كان للأسف صحيحًا وأنك أنت المسئول لوقفنا بجانبها وما تركناها تغرق فى البؤس ولكن عليك ألا تتزوجها أبدًا يا "لاندرى" وهذا هو كل ما أطلبه منك.

قال "لاندرى": والدى نحن ننظر إلى الأمور من وجهتى نظر مختلفتين، فإذا كنت قد فعلت ما تقصده لطلبت منك على العكس السماح لى بأن أتزوجها، ولكن لأن "فاديت الصغيرة" طاهرة ونقية كأختى "نانيت" بالضبط فأنا لا أطلب إلا العفو فيما سببت لك من حزن وألم، أما هى فسنتحدث عنها لاحقًا كما وعدتنى من قبل.

كان من الطبيعى أن يوافق "الأب باربو" على هذا الشرط وألا يصر عليه أكثر من ذلك، فقد كان فطناً للغاية حتى لا يتعجل الأمور ويسعد بما حصل عليه بالفعل من نتائج.

منذ هذه اللحظه لم يتطرق أحد لموضوع "فاديث الصغيرة" فى "البيسونيير"، بل تفادى الجميع ذكر اسمها لأنه حين كان يسمع "لاندرى" اسمها كان يحمر وجهه ثم يمتقع شحوبًا ولكنه كان يشعر بارتياح لأنه ظل يذكرها كما كان الحال فى اليوم الأول لرحيلها.

الفصل الحادى والثلاثون

فى البداية شعر "سيلفنى" بالسعاده لرحيل "فاديت" نظرًا لأنانيته فى حب "لاندرى" وابتهج متصورًا أن أخاه - من الآن فصاعدًا- لن يحب غيره ولن يتركه من أجل أى شخص آخر، ولكن هذا ما لم يحدث؛ صحيح أن "سيلفنى" هو الأقرب لـ"لاندرى" بعد "فاديت الصغيرة" ولكنه لا يحب الوجود معه طويلاً لأن "سيلفنى" لا يتخلى أبدًا عن تحامله على "فونشون" وحين يبدأ "لاندرى" فى الحديث عنها عارضًا فضائلها يغضب "سيلفنى" كثيرًا ويلومه على إصراره على الفكرة التى يراها أبواه منافية للعقل والتى تحزنه هو، ومنذ هذه اللحظة لم يحدثه "لاندرى" عنها مجددًا ولكن لعجزه عن العيش دون الحديث عنها قسَّم وقته بين "كاديه كيلو" و"جانيه الصغير" الذى كان يصطحبه للنزهة معه، وقد كان الصبى يسمع لـ"لاندرى" ما تعلمه فى مدرسة الكنيسة وكان هذا الأخير يبذل قصارى جهده ليسعده ويلهيه عن غياب أخته وعندما يراه الناس مع هذا الطفل يسخر منهم من يجرؤ على ذلك ولكنه بدلاً من الشعور بالخزى كان يتباهى بإظهار محبته لأخى "فاديت فونشون" وكذلك ليرد على من يظنون أن "الأب باربو" بحكمته كان محقًا فى رأيه بأن هذا الحب سينطفئ سريعًا، أما "سيلفنى" وقد رأى أن أخاه لم يعد إليه وحده كما كان يتمنى عاد وحمل غيرته على "جانيه الصغير" و"كاديه كيلو" ومن

جانب آخر رأى أخته الصغيرة "تانيت" التى لا يزال يلاعبها ويسليها بعناية ورقة ويدللها بلطف وقد بدأت تميل إلى نفس الـ"كاديه كيلو" وأن العائلتين يباركان بحرارة هذه الرغبة المتبادلة فسقط "سيلفنى" المسكين - الذى كانت تتملكه الرغبة دائمًا فى أن يتملك وحده قلب ومشاعر من يحبهم - أسير حزن قاتل ووحدة فريدة فانطفأت روحه لأن أحدًا لم يكن يعرف كيف يمكن أن يسعده فكف عن الضحك وزهد كل شىء، وفقد القدرة على العمل فاستنفده الحزن وأضعفه وفى النهاية خشيت العائلة على حياته، فهو دائم الإصابة بالحمى وحين تشتد عليه يهذى بكلمات غريبة غير محق فيها وتجرح كثيرًا قلب والديه فيقول إن أحدًا لا يحبه على الرغم من أنه أكثر الأبناء تدليلاً وتمنى الموت وقال إنه لا يصلح فى أى شىء وأن الجميع يواسيه شفقة على حالته ولكنه فى الحقيقة عبء على والديه وأن أفضل هبة يمنحها الله لهم هى أن يخلصهم منه.

أحيانًا كان يغضب "الأب باربو" لأن هذا الكلام منافٍ لتعاليم الدين فيعنفه عليه بشدة وهو ما لا ينفع فى حل المواقف وأحيانًا أخرى يتوسل إليه وهو يبكى كى يدرك كم يحبه والداه وتكون النتيجة أسوأ من السابق فيجهش "سيلفنى" فى البكاء نادمًا ويطلب السماح من والده ووالدته وأخيه ومن العائلة كافة فتعود إليه الحمى أشد من ذى قبل بعد أن يكون قد أطلق العنان للحنان الكبير الذى يحويه قلبه المريض.

استشاروا الأطباء من جديد ولم ينصحهم أحد بما يفيد ولكن والديه فهما منهم أن المشاعر التى تربطه بأخيه التوأم هى السبب فى كل هذا الألم، فلابد وأن تقضى هذه المشاعر على أحدهما وهو الأضعف فيهما بطبيعة الحال واستشاروا أيضًا "مغتسلة الكلافيير" وهى أكثر من فى المقاطعة حكمة ومعرفة - بعد وفاة "الأم ساجيت" وبعد الخرف الذى أصاب "الأم فادية" - أجابت تلك السيدة الحاذقة "الأم باربو" قائلة:

- هناك شىء واحد يمكن أن ينقذ ابنك وهو أن يحب امرأة.

أجابت "الأم باربو": وهو تحديدًا ما لا يطيقه، فلم أر فى حياتى شابًا عاقلاً ومتعاليًا لهذه الدرجة ومنذ اللحظة التى بدأ فيها أخوه يشعر بالحب لم يكف عن قول كل ما يسىء إلى الفتيات كافة اللاتى نعرفهن ويوجه لهن الانتقادات كما لو أن إحداهن (ولسوء الحظ ليست الأفضل بينهن) تخطف منه - كما يعتقد- قلب أخيه.

قالت السيدة التى كانت تتمتع بخبرة واسعة فى أمراض الجسم والروح: حسنًا، فى الوقت الذى سيحب فيه ابنك "سيلفنى" امرأة سيحبها بجنون أكثر مما يحب أخاه. أؤكد لك ذلك قبل حدوثه، فلديه فيض غزير من المشاعر فى قلبه لاعتياده توجيه هذا الفيض لأخيه نسى طبيعته كذكر ولم يخضع بعد لقانون الطبيعة الذى يقضى بأن يتعلق الرجل بامرأة أكثر من تعلقه بوالديه وبإخوته.. اهدئى فلابد من

أن تتغلب عليه طبيعته الإنسانية قريبًا رغم تأخره قليلاً في ظهور ذلك عليه ولكن حين يحب سواء كانت من أحبها فقيرة أو قبيحة أو حتى خبيثة - لا تترددوا في تزويجها له لأن من خلال رؤيتي لكل الشواهد فإن هذا الفتى إذا أحب فتاة فلن يحب مرتين في حياته كلها فقلبه يتعلق كثيرًا بمن يحب وإذا حدثت المعجزة وقل تعلقه بأخيه فلن تحدث معجزة أخرى ويستطيع الابتعاد عمن سيحبها.

بدا رأى السيدة صائبًا للغاية لـ"الأم باربو" فكانت ترسل "سيلفنى" لمنازل المعارف والأقارب ممن في بيوتهم فتيات جميلات في سن الزواج ولكن على الرغم من أن "سيلفنى" كان فتى جميلاً ومؤدبًا فإن مظهره اللامبالي والحزين لم يخطف قلب أيٍّ من الفتيات ولم يبدين له أي قبول، أما هو فقد تخيل - بسبب سذاجته- أنه يكرههن من فرط حذره منهن لأنه لم يكن يعلم شيئًا عن مشاعر هذا السن وتخيل أنه يحتقرهن بدلاً من كرههن.

وقدم "الأب كيلو" الذى كان الصديق الوفي للعائلة وأحد مستشاريها لهم اقتراحًا جديدًا وقال:

- طالما قلت لك إن فصلهما عن بعضهما هو الحل الأكيد؛ هل رأيت كم كان "لاندرى" مهووسًا بـ"فاديت الصغيرة" وحين رحلت "فاديت الصغيرة" لم يفقد عقله ولم تتدهور صحته، بل على العكس يبدو أقل حزنًا مما كان عليه في السابق وقد لاحظنا ذلك ولم نكن

نعرف السبب والآن يبدو متعقلاً تمامًا ومطيعًا؟ وسيحدث الشيء نفسه مع "سيلفنى" إذا لبث لخمسة أو ستة أشهر دون أن يرى أخاه وسأشرح لك الوسيلة لنبعدهما عن بعضهما بهدوء؛ فأحوال مزرعتى فى "البريش" جيدة ولكن على العكس مزرعتى الواقعة على مقربة من منطقة "أرتون" تتدهور بسبب مرض المُزارِع القائم عليها منذ عام تقريبًا ولا يستطيع أن يعود إلى العمل بمفرده ولا أرغب فى طرده لأنه رجل طيب ولكن إن استطعت أن أرسل له مزارعًا جيدًا يساعده فسيعود إلى العمل، فهو ليس مريضًا بقدر ما هو مجهد من فرط حميته فى العمل وإذا وافقت سأرسل "لاندرى" ليقضى ما بقى من الموسم فى المزرعة، وسنجعله يرحل دون أن نخبر "سيلفنى" أنه سيبقى لوقت طويل، بل على العكس سنقول له إن ذلك لثمانية أيام ثم تمر الثمانية أيام فنحدثه عن ثمانية أخرى وهكذا حتى يعتاد الأمر؛ اتبع نصيحتى بدلاً من تغذية المشاعر غير الناضجة لصبى طالما دللتموه وجعلتموه سيدًا قبل الأوان فى بيتكم.

استحسن "الأب باربو" النصيحة ولكن "الأم باربو" ارتعبت منها وخشيت أن تكون هى الضربة القاتلة لـــ"سيلفنى" فكان لابد من الصبر عليها لتقتنع وطلبت الأم أن ينفِّذوا محاولة أولا تتمثل فى أن يبقى "لاندرى" فى منزلهم لخمسة عشر يومًا فربما شفى "سيلفنى" إذا ما وجد أخاه بجانبه طوال الوقت ولكن – على العكس – إذا ما تدهورت حالته فسوف تذعن لنصيحة "الأب كيلو".

ونفذوا ما طلبت الأم وجاء "لاندرى" عن طيب خاطر ليقضى الوقت فى "البيسونيير" وكى يبدو الأمر طبيعيًا ادعوا أنه جاء ليساعد الأب فى جمع ما بقى من الغلال لأن "سيلفنى" لم يعد يرغب فى العمل. وسخّر "لاندرى" كل طاقاته وكل طيبة قلبه ليجعل أخاه سعيدًا بوجوده معه فكان يراه طوال الوقت وينام بجانبه فى السرير نفسه ويرعاه كما لو كان طفلاً صغيرًا؛ فى اليوم الأول كان "سيلفنى" فرحًا للغاية لكن فى اليوم الثانى ادّعى أن "لاندرى" يشعر بالضيق وهو معه ولم يحاول "لاندرى" محو الفكرة من رأسه، أما فى اليوم الثالث انتابت "سيلفنى" ثورة عارمة لأن "النطاط" جاء لزيارة "لاندرى" ولم يجرؤ "لاندرى" على طرده وفى نهاية الأسبوع أصبح الأمر غير محتمل لأن "سيلفنى" ازداد فى تحامله حتى إنه أصبح يغار على أخيه من ظله لذا لزم تنفيذ نصيحة الأب "كيلو" وعلى الرغم من أنه لم تكن لدى "لاندرى" الرغبة مطلقًا فى الذهاب إلى مزرعة "أرتون" بين الغرباء وهو الذى يحب كثيرًا مكانه وعمله وعائلته وعائلة سيده، فإنه نفّذ على الفور ما نصحوه به لتحقيق مصلحة أخيه.

الفصل الثانى والثلاثون

هذه المرة كاد "سيلفنى" يموت فى اليوم الأول لكنه هدأ فى اليوم الثانى وغادرته الحمى فى الثالث؛ فى البداية أخذ الأمر من باب الاستسلام ثم من باب العزم والتصميم على التعايش وفى نهاية الأسبوع الأول عرف من حوله أن غياب أخيه أفضل بكثير من وجوده ووجد فى التفكير الذى هدته إليه غيرته سرًا حافزًا على الشعور بالرضا نحو رحيل "لاندرى" وكان يقول لنفسه: على الأقل هو لا يعرف أحدًا فى المكان الذى ذهب إليه ولن يستطيع تكوين صداقات على الفور وسيشعر بالضيق ويفكر فىّ ويتحسر على فراقى وحين يعود سيحبنى أكثر من الماضى بكثير.

مضت ثلاثة شهور على غياب "لاندرى" وسنة تقريبا على رحيل "فاديت الصغيرة" من البلدة، إلا أنها عادت إليها فجأة لإصابة جدتها بالشلل فأولتها "فاديت الصغيرة" عناية فائقة وحماسًا كبيرًا ولكن أسهمت الشيخوخة فى تطور المرض وبعد مرور خمسة عشر يومًا أسلمت "الأم فادية" الروح بسلام ودفنتها "فاديت الصغيرة" ورتبت المنزل وبعد مرور ثلاث ليال على الوفاة نظفت "فاديت الصغيرة" أخاها وأنامته وقبّلت "الأم فانشيت" التى تنام فى الغرفة

الأخرى وجلست حزينة أمام المدفأة الصغيرة التى لا تكاد تصدر أى ضوء وسمعت غناء صرصار المدفأة الذى بدا وكأنه يغنى لها:

صرصارة، صرصارة، يا صرصارة يا صغيرة

لكل صرصارة صرصار يعشقها.

هطلت الأمطار وانزلقت على زجاج النافذة وبينما كانت "فونشون" تفكر فى حبيبها سمعت طرقات على الباب وصوت يقول:

- "فونشون فاديت"، أأنت هنا؟

لم تتباطأ مطلقًا فى فتح الباب وأطلقت لسعادتها العنان فتركت نفسها لأحضان صديقها "لاندرى" الذى علم بمرض جدتها وبعودتها فلم يستطع مقاومة رغبته فى رؤيتها وجاء إليها فى الليل كى يرحل مع بداية النهار وقضيا طوال الليل في الحديث بجوار المدفأة بكل جدية وحكمة لأن "فاديت الصغيرة" ذكّرت "لاندرى" أن السرير الذى أسلمت عليه جدتها الروح لم يبرد بعد وأنه ليس المكان ولا الميعاد المناسبين لكى ينسيا ذلك وسط غمرة سعادتهما ولكن رغم ثباتهما كانا يشعران بفرحة غامرة لكونهما معًا ولأنهما يحبان بعضهما أكثر من أى وقت مضى.

ومع اقتراب النهار بدأ "لاندرى" يفقد شجاعته وتوسل إلى "فونشون" كى تخبئه فوق تسقيفة المنزل ليستطيع أن يراها فى الليلة

التالية ولكن كالعادة أعادته إلى صوابه وقالت له إنهما لن يفترقا عن بعضهما لوقت طويل بعد لأنها قررت أن تبقى فى البلدة.

وقالت له: عندى أسبابى فى هذا الشأن التى سأخبرك بها لاحقًا وهى لا تتعارض مطلقًا مع أملنا فى الزواج، هيا اذهب وانتهِ من عملك الذى كلفك به سيدك لأنه وفقًا لما قصته علىَّ خالتى "فانشيت" فإنه من المفيد لعلاج أخيك ألا يراك لبعض الوقت.

أجاب "لاندرى": إن هذا السبب وحده هو ما يمكن أن يحملنى على تركك، فأخى المسكين سبب لى الكثير من الآلام وأخشى أن يسبب لى المزيد منها والحق أنك خبيرة يا " فونشونيت" ولابد أن تجدى طريقة لعلاجه مما هو فيه.

أجابته: أنا لا أعرف إلا المنطق لعلاج مرضه، فروحه هى التى تسبب المرض لجسده ومن يستطيع أن يعالج أحدهما سيعالج الآخر بالتبعية ولكنه يشعر بنفور شديد منى حتى لا يمكننى الحديث معه، ومواساته.

– ومع ذلك فأنت شديدة الذكاء يا "فاديت". أنت لبقة للغاية ولديك ملكة خاصة فى الإقناع بما ترغبين فيه عندما تقررين ذلك حتى إنك لو تحدثت معه لساعة واحدة سيكون لذلك عليه عظيم الأثر. حاولى فأنا أطلب منك ذلك ولا تنفرى منه لتعاليه أو لمزاجه المتعكر. أجبريه على سماعك. افعلى هذا من أجلى يا حبيبتى "فونشون" ومن

.أجل نجاح علاقتنا أيضًا لأن معارضة أبى لن تكون أقل العوائق التى سنقابلها.

وعدته "فونشون" وتركا بعضهما بعد أن رددا مائتى مرة أنهما سيبقيان على حبهما إلى الأبد!

الفصل الثالث والثلاثون

لم يعرف أحد من سكان القرية أن "لاندرى" جاء إليها ليلاً وإذا قال أحدهم ذلك لـــ"سيلفنى" لسقط فريسة المرض وما غفر لأخيه أبدًا أنه جاء ليرى "فاديت الصغيرة" دون أن يراه.

بعد يومين ارتدت "فاديت الصغيرة" ملابس نظيفة وأنيقة، فلم تعد مفلسة. وكانت ملابس الحداد التى ارتدتها من الصوف الخفيف عالى الجودة وعبرت إلى منطقة "الكوس" ولأنها ازدادت طولاً ونضجًا لم يَعْرفها الكثيرون ممن قابلوها عند رؤيتها للوهلة الأولى فقد ازدادت جمالاً وحسنًا بشكل ملحوظ وهى فى المدينة، فمن المؤكد أنها حظيت بالغذاء والمأوى الأفضل فأصبحت بشرتها وجسدها متناسبين مع سنها ولم يعد أحد يتعامل معها على أنها صبى متنكر فى هيئة فتاة، كما كانت قامتها ممشوقة وجذابة وفضلاً عن ذلك فإن الحب وما يسببه من سعادة أضفى على مظهرها وعلى شخصيتها ما يمكن أن نستشعره دون أن نعرف له اسمًا وفى النهاية فإنها إن لم تكن أجمل فتاة فى الكون كما كان يراها "لاندرى" فهى الأكثر جاذبية بين فتيات البلدة والأجمل قوامًا والأكثر نضارة وربما الأكثر حسنًا.

كانت تحمل سلة كبيرة على ذراعها ودخلت إلى "البيسونيير" حيث طلبت أن تتحدث إلى "الأب باربو" وكان "سيلفنى" هو أول من

رآها وأدار ظهره إليها بالطبع لم يسعد لرؤيتها لكنها سألته عن مكان والده بأدب وتحفظ شديدين مما دفعه إلى الرد عليها وقادها إلى المخزن حيث كان "الأب باربو" مشغولاً فى تقطيع الحطب وهنا طلبت "فاديت الصغيرة" من "الأب باربو" أن يقتادها إلى مكان حيث يتسنى لهما الحديث على انفراد فأغلق باب المخزن وقال لها إنها تستطيع أن تخبره الآن بكل ما تريد.

لم تترك "فاديت الصغيرة" نفسها تتلعثم أمام المظهر البارد "للأب باربو" وجلست على كومة قش وجلس هو أمامها على كومة أخرى وقالت له:

- السيد "باربو"، أعرف أن جدتى كانت تكن لك مشاعر سلبية وأنت بدورك تكرهنى ولكن مع هذا أنا أرى أنك الرجل الأكثر عدلاً والأكثر أمانة فى البلدة بأكملها وما من شك فى هذا وحتى جدتى على الرغم من أنها كانت تأخذ عليك تعاليك شهدت لك بذلك الحق، إلى جانب أننى كما تعرف تربطنى علاقة طويلة بابنك "لاندرى" وفى مرات عدة كان يحدثنى عنك وأعرف منه كما أعرف من غيره حقيقتك وقدرك، لهذا جئت أطلب منك خدمة وأعطيك ثقتى.

أجابها "الأب باربو": تكلمى يا "فاديت". لم أبخل يومًا بمساعدتى على أى شخص وإذا كان ما ستطلبينه لا يتعارض مع ضميرى فيمكنك أن تعهدى إلىَّ به.

قالت "فاديت الصغيرة" وهى تضع سلتها بين قدمى "الأب باربو": إليك ما أريده منك؛ المرحومة جدتى كسبت فى حياتها – مما أعطته من استشارات ومما باعته من أدوية – أكثر مما كنا نتصور من المال ولأنها لم تكن تنفق شيئًا ولم توظف هذا المال لم نكن نعرف ماذا لديها فى الحفرة القديمة داخل حجرة الكرار والتى أشارت إليها ذات مرة وهى تقول لى: "بعد أن أموت ستجدين هنا كل ما تركته لكما، إنه ملك لك ولأخيك، وإذا كنت أحرمكما أحيانًا فذلك كى يكون لديكما الكثير فى يوم ما ولكن لا تدعوا رجال القانون يلمسونه فسيأخذونه منكم بالباطل، وحين يصبح ملكك حافظى عليه وأخفيه طوال حياتك ولا تفقديه أبدًا كى ينفعك فى كبرك". وحين توفيت جدتى استجبت لوصيتها فأخذت مفتاح الكرار وكسرت هذا الجزء اللبنى من الحائط فى المكان الذى أشارت إليه جدتى ووجدت فيه هذا الذى حملته إليك فى هذه السلة، أرجوك يا أبى "باربو" أن تحفظها لى فى مكان عندك بعد أن تسدد الاستقطاعات القانونية لأننى لا أفهم شيئًا فى هذا الأمر وأن تعفينى من النفقات الكثيرة والتى أخشى منها.

قال "الأب باربو" دون أن يفتح السلة على الرغم من فضوله ليفعل: أنا مدين لك بهذه الثقة يا "فاديت" ولكن ليس من حقى أن أحتفظ بنقودك ولا أن أراعى أو أراقب شئونك، فأنا لست الوصى الرسمى عليك طالما أنك قاصر والمؤكد أن جدتك كتبت وصية.

- لم تكتب وصية، والوصى الذى يقره لى القانون هى والدتى وأنت تعلم أننى لا أعرف عنها شيئًا منذ وقت طويل ولا أعرف إذا كانت أمى المسكينة حية أم ميتة!! وبعدها ليس لى أقارب سوى خالتى" فانشيت" وهى سيدة كريمة وأمينة وشجاعة لكنها لا تستطيع أبدًا أن تدير أملاكى ولا أن تحفظها حتى أو أن تكون مسئولة عنها ولن تمنع نفسها من الحديث عنها وستريها للناس كافة وأخشى سواء أن توظفها بطريقة غير سليمة أو أن تترك لأصحاب الفضول أن يتصرفوا فيها مما يؤدى إلى تناقصها دون حذر فالمسكينة لا تعرف مطلقًا الحساب.

قال "الأب باربو" وعيناه متعلقتان رغمًا عنه بغطاء السلة: إذن فالأمر يتعلق بثروة عظيمة وحمل السلة من مقبضها كأنه يزنها بيده. ولكنه وجدها ثقيلة لدرجه أدهشته، فقال: إذا كان محتوى السلة من الحديد فنحن نحتاج لحصان على الأقل لحملها .

جزلت "فاديت الصغيرة" التى كانت تملك دهاء الشياطين وهى تراقب فضوله لرؤية ما بداخل السلة فتظاهرت بأنها تفتحها ولكنه ظن أن ذلك يتعارض مع كرامته وترفعه.

قال لها: لا يجب أن أرى ما بداخلها قط وبما أننى لن أحتفظ بها كوديعة فلا يجب أن أعرف تفاصيل خصوصياتك.

قالت "فاديت": بل يجب يا عزيزى "الأب باربو" أن تسدى لى معروفًا آخر، فأنا لا أعرف أن أحصى لما بعد المائة مثل خالتى "فانشيت"، كما أننى لا أعرف قيمة بعض العملات القديمة والحديثة، ولا يمكن أن أثق إلا بك لتخبرنى إذا كنت قد أصبحت غنية أم فقيرة ولكى أعرف تحديدًا كم تقدر ثروتى.

قال "الأب باربو" الذى لم يعد يتمالك فضوله: دعينا نرَ إذن، فما تطلبينه أمرًا هينًا ولا يمكن أن أرفضه لك.

هنا رفعت "فاديت" بخفة غطاء السلة وأخذت منها حقيبتين كبيرتين كل منهما تحتوى على ألفى فرنك.

قال "الأب باربو": حسنًا. شىء لطيف، ها هو ما يكفى لجهازك ويجعل الكثيرين يسعون وراءك.

قالت "فاديت": هذا ليس كل شىء لا زال يوجد فى قاع السلة شيئًا صغيرًا لا أعرف ما هو.

وأمسكت بصرة من جلد الثعبان وأفرغت محتوياتها فىَ قبعة "الأب باربو" وكان بداخلها مائة من عملة "لويس" الذهبية على الطراز القديم التى جعلت عينى هذا الرجل الكريم تتسع وبعد أن أنهى عد المحتويات أعادها إلى الصرة فأعطته صرة ثانية بها نفس المحتوي وثالثة ورابعة فكان ما تحويه السلة من القطع الذهبية أكثر

من النقود والعملات وكان مجموع ما بها يقدر بنحو من أربعين ألف فرنك.

وهو ما يوازى تقريبًا ثلث ما يملك "الأب باربو" من أملاك عينية ولأن الناس فى الريف لا يدخرون أموالهم أبدًا فى صورة نقود فلم يكن قد رأى من قبل كل هذا القدر من النقود دفعة واحدة.

والحق أنه رجل أمين وقنوع وزاهد بالنسبة إلى الفلاح، ولا يمكن أن ندعى أن رؤية النقود قد أثارت غيرته أو ضيقه، "فالأب باربو" يمتلك المال الوفير أيضًا ولكن لدقيقة واحدة تصبب العرق من جبينه حين أنهى العد وقال:

- لم يتبق لك سوى اثنين وعشرين ريالاً لتكمل أربعين ألف فرنك، أى أنك ورثت عشرين ألف قطعة ذهبية، مما يعنى أنك أفضل مشروع زواج فى البلدة يا " فاديت" وأن أخاك "النطاط" يمكن أن يظل طوال حياته ضعيفًا وأعرج لأنه يستطيع أن يتنقل بين أملاكه راكبًا عربة مغطاة تجرها الخيول، ابتهجى إذن، فأنت من الآن ثرية وإذا رغبت فبإمكانك العثور على زوج مناسب فى وقت قصير.

قالت "فاديت الصغيرة": أنا لا أتعجل هذا الأمر. على العكس يا "أب باربو"، فأنا أطلب منك أن تحفظ سر ثرائى هذا، فلدىَّ الرغبة وأنا على قبحي هذا ألا أتزوج من أجل أموالى ولكن لقلبى الطيب وسمعتى الحسنة، وكما كانت سمعتى سيئة فى هذه البلدة فأنا أتمنى

أن أصبر بعض الوقت ليلاحظ أهالى البلدة أننى لم أكن أستحقها مطلقًا.

قال "الأب باربو" وهو يرفع عينيه اللتين لا تزالان محتضنتين السلة: بالنسبة إلى قبحك أستطيع أن أجزم لك بكل ثقة أنك رتبت مظهرك للغاية فترة إقامتك فى المدينة فأصبحت تنتمين بالفعل إلى جنس الفتيات، أما بشأن سمعتك السيئة فكم أحب أن أتصور أنك لا تستحقينها وعلى هذا فأنا أؤيد فكرتك فى ألا نتعجل وأن نخفى ثراءك، فهناك كثيرون ستبهرهم أموالك فيرغبون فى الزواج منك دون أن يكون لديهم نحوك مسبقًا التقدير الذى يجب أن يشعره الزوج تجاه زوجته.

والآن بالنسبة إلى الأمانة التى وضعتها بين يدى فهى ضد القانون وقد تعرضنى فى وقت لاحق للمساءلات والاتهامات، فما أكثر الألسن التى يمكن أن تسىء إلى المرء، وإذا افترضنا أنه من حقك التصرف فيما يخصك فلا يمكن أن تتعاملين باستخفاف مع ما يخص أخاك الأصغر. كل ما أستطيع عمله هو أن أسأل مشورة المتخصصين لأجلك دون أن أذكر اسمك وسأعرف لك الطريقة المثلى لتأمين ميراثك وميراث والدتك والحفاظ عليه دون الاستعانة بالمحامين فهم غالبًا لا يتصفون بالأمانة. احملى سلتك مرة ثانية إذن وأخفيها أنت حتى أجيبك، بالمناسبة فأنا مستعد لأكون شاهدًا معك

أمام مفوضى شركائك فى الميراث بشأن مبلغ الميراث الذى قمنا بعده وسأكتبه هنا على أحد جدران المخزن كى لا أنساه.

هذا هو كل ما أرادته "فاديت الصغيرة"، أن يرى "الأب باربو" الأمر على حقيقته، وإذا كانت قد شعرت بالاعتزاز أمامه حين عرف أنها ثرية فذلك كى لا يتهمها مجددًا بأنها تريد أن تستغل "لاندرى".

الفصل الرابع والثلاثون

حين رأى "الأب باربو" أنها حذرة وفهم قدر ذكائها لم يتعجل فى إيداع أموالها وتوظيفها بقدر تعجله للتحقق بنفسه عن سمعتها التى اكتسبتها فى " شاتو- ميلون " التى قضت فيها العام الأخير، لأنه إذا كان مهرها الكبير سيجعله يتغاضى عن سمعة أهلها فهذا لا ينطبق حين يتعلق الأمر بشرف الفتاة التى يتمنى أن تكون زوجة لابنه فذهب بنفسه إلى " شاتو- ميلون" وجمع معلوماته بدقة بالغة وقيل له إنها لم تأت إلى المدينة حبلى ولم تلد طفلاً وكانت حسنة السلوك حتى إن أحدًا لا يستطيع أن يوجه إليها أدنى لوم وفى أثناء إقامتها قامت على خدمة سيدة عجوز متدينة من النبلاء سعدت بأن تعتبر "فاديت الصغيرة" صاحبة ورفيقة أكثر من خادمة لما رأته فيها من سلوك حسن وأخلاق طيبة إلى جانب حكمتها الشديدة، وقد أسفت على رحيلها وقالت إنها كانت متدينة بحق، وشجاعة، ومدبرة، وتؤدى كل عملها بشكل رائع، وشخصيتها محببة إلى النفس بحيث لن تجد لها مثيلاً، ولأن السيدة العجوز كانت ثرية فكانت تقوم بأعمال خيرية عاونتها فيها "فاديت الصغيرة" بمهارة بالغة فيما يتعلق برعاية المرضى وتحضير الأدوية، كما تعلمت المزيد من الأسرار من سيدتها والتى تعلمتها بدورها فى الدير قبل الثورة.

سعد "الأب باربو" كثيرًا وعاد إلى "الكوس" عاقدًا العزم على نقل ما سمعه بالكامل، فجمع عائلته وكلف أبناءه الكبار وإخوته وباقى أقربائه بالشروع فى تحقيق موضوعى عن سلوك "فاديت الصغيرة" منذ أصبحت رشيدة، فإذا اتضح أن كل الانتقادات التى يلصقها الناس بها هى تصرفات طفولية فيكفى ما لاقته من السخرية، أما إذا أكد أحدهم أنه رآها تقترف خطأ كبيرًا أو عملاً غير أخلاقى فسوف يبقى على منعه "للاندرى" من الاختلاط بها، وتم عمل التحرى بالحذر الذى تمناه الأب ودون أن يثار موضوع تركتها لأنه لم يذكره بكلمة حتى لزوجته.

فى هذه الأثناء عاشت "فاديت الصغيرة" منعزلة فى منزلها الصغير والذى لم يتغير فيه شىء سوى أنه بدا عليه النظافة وسط المبانى الفقيرة التى تحيط به، وأصبحت تلبس صغيرها "النطاط" ملابس نظيفة دون أن تظهره، وكانت تهتم بنفسها أيضًا وبخالتها "فانشيت" كما اهتمت بغذائهم، وهو ما ظهر أثره على الصغير بوضوح فبدت صحته على أفضل ما يكون. كما عدلت السعادة من مزاجه وطبعه، فلم يعد مهددًا بالتوبيخ من جدته ولا يلاقى إلا التدليل والكلمات العذبة والمعاملة الطيبة فأصبح طفلاً ظريفًا ورأسه تمتلئ بالأفكار الغريبة واللطيفة ولم يعد طفلاً كريهًا فى نظر الناس رغم عرجه وأنفه الأفطس.

ومن ناحية أخرى حدث تغيير كبير فى شخصية "قاديت فونشون" وعاداتها فاختفى تمامًا سوء الخلق الذى كانت تتسم به حتى إن بعض الفتيان إذا رأوها تسير فى الشارع بخفتها وأناقتها تمنوا أن تنهى حدادها وتخلع الأسود حتى يتمكنوا من مغازلتها أو من مراقصتها .

لم يتبق سوى "سيلفنى باربو" الذى لم يتراجع أبدًا عن رأيه فيها كما لاحظ أن عائلته تدبر شيئًا لها لأن والده لا يتوقف عن الكلام عنها داخل العائلة وحين يحدثه أحدهم عن زوال الأكاذيب التى كانت تثار فى حقها فى الماضى كان يهلل لصالح "لاندرى" قائلاً إنه لم يكن يحتمل أن يتهم أحدهم ابنه بأنه أذى فتاة بريئة.

كما تحدث الناس عن العودة المرتقبة لـ"لاندرى" وهو ما تمنى "الأب باربو" أن يوافق عليه "الأب كيلو"، وفى النهاية تأكد "سيلفنى" أنه لم يعد هناك من يرفض حب "لاندرى" لـ"قاديت الصغيرة" فعاد إليه حزنه لأن رأى الناس جاء من كل اتجاه لينصب فى مصلحة "قاديت" فلم يعرف أحد أنها غنية ومع ذلك نالت إعجاب الجميع لهذا فهى لا تعجب "سيلفنى" الذى يرى فيها منافسًا له فى حبه لـ"لاندرى".

من وقت إلى آخر كان "الأب باربو" ينطق أمامه بكلمة "الزواج" ويقول إن ولديه التوأم أصبحا فى سن التفكير فيه وكان

زواج "لاندرى" هو الفكرة المحزنة لـ"سيلفنى"، فكأنما هى الكلمة الأخيرة التى يأتى بعدها انفصالهما المحتوم فعادت إليه الحمى وعادت الأم إلى سؤال الأطباء.

فى يوم قابلتها الأم "فانشيت" ورأتها تنتحب من فرط القلق وسألتها لماذا تذهب لتستشير من هم بعيدون عنها وتنفق الكثير من المال وأمامها معالجة ماهرة أكثر من كل من فى البلدة ولا ترغب فى ممارسة ما تعرفه بمقابل مادى كما كانت تفعل جدتها ولكن لوجه الله والإنسانية عامة واسمها "فاديت الصغيرة".

تحدثت "الأم باربو" عن الأمر مع زوجها الذى لم يعارض مطلقًا وقال لها إنه فى "شاتو- ميلون" كانت "فاديت" مشهورة بمعرفتها الكبيرة وكانوا يأتون لاستشارتها من كل حدب وصوب تمامًا كما كانوا يأتون إلى جدتها.

هنا توسلت "الأم باربو" إلى "فاديت" كى تأتى لترى "سيلفنى" الذى يرقد فى السرير لتقدم له المساعدة.

كانت "فونشون" قد بحثت كثيرًا عن فرصة لتتحدث إليه كما وعدت "لاندرى" ولكنه أبدًا لم تسنح هذه الفرصة، فلم تتردد "فاديت" وأسرعت لترى الفتى المسكين ورأته نائمًا غارقًا فى الحمى وطلبت من العائلة أن تتركها وحدها معه كما هى عادة المعالجين ليفعلوا ما يفعلونه فى السر فلم يعارض أحد بالبقاء فى الغرفة.

فى البداية وضعت "فاديت" يدها على يد "سيلفنى" الممدد على الفراش برقة بالغة حتى إنه لم ينتبه مطلقًا مع أن نومه خفيف حتى ليوقظه صوت الذبابة وهى تطير حوله وكانت يده ملتهبة كقطعة جمر وازدادت سخونة فى يد "فاديت الصغيرة" وظهر عليه بعض الاضطراب فانتفض ولكن دون أن يحاول سحب يده وهنا وضعت "فاديت" يدها الأخرى على جبينه بنفس الخفة والرقة فانتفض مرة ثانية لكن هدأ تدريجيًا وشعرت أن يد وجبين مريضها تبرد من دقيقة إلى أخرى وأن نومه أصبح هادئًا كنوم طفل صغير فظلت بالقرب منه حتى رأته على وشك أن يفيق وهنا سحبت نفسها خلف ستائر سريره وخرجت من الغرفة ومن المنزل وهى تقول لـ"الأم باربو":

- اذهبى لترى ابنك وجهزى له شيئًا ليأكله فقد زالت الحمى ولكن لا تحدثيه عنى خصوصًا إذا أردت أن أشفيه لك. سأعود فى المساء فى الوقت الذى قلت إن المرض يشتد فيه كى أقضى على الحمى اللعينة ثانية.

الفصل الخامس والثلاثون

اندهشت "الأم باربو" حين رأت ابنها وقد زالت عنه الحمى
ضعت له الطعام ليأكله، مستغله بعض الشهية التى عادت إليه
لأن الحمى لم تفارقه منذ ستة أيام ولم يرغب فى تناول أى شيء
وال مرضه فقد افتتنت بخبرة "فاديت الصغيرة" التى دون أن توقظه
تشربه أى دواء ولكن بفضل ابتهالاتها إلى الله فقط أصبح فى حالة
ليبة.

حين حل المساء عادت الحمى شديدة ونام "سيلفنى" وحلم بأنه
سير هائمًا وقاطعًا شوارع البلدة وحين استيقظ شعر بالخوف من
لناس المحيطين به.

عادت إليه "فاديت الصغيرة" وكما حدث فى الصباح ظلت
بجانبه وحدها لوقت غير طويل دون اللجوء إلى أى سحر آخر سوى
الإمساك بيده ورأسه برقة وإطلاق أنفاسها الباردة بالقرب من وجهه
الملتهب.

ومرة ثانية – كما حدث فى الصباح– انتزعت منه الهذيان
والحمى وعند خروجها طالبتهم ثانية ألا يحدثوه عن مساعدتها له
ووجدوه ينعم بنعاس هادئ ولم يعد وجهه محمرًا ولا يبدو عليه
المرض.

لست أدرى من أين جاءت "فاديت الصغيرة" بهذه الفكرة؟ جاءتها بفعل الصدفة والتجربة مع صغيرها "جانيه" الذى أعادته أكثر من عشر مرات من على حافة الموت دون أن تقدم له علاجًا آخر سوى أن تجعل جسده يبرد مستخدمة يديها وأنفاسها أو أن تدفئه بنفس الطريقة حين تستبد به الحمى الشديدة فتجعل جسده كالثلج فهى تعتقد أن محبة وإرادة شخص سليمًا ومعافى وملامسة يد نقية وبكامل عافيتها يمكن أن تقضى على المرض حين يكون هذا الشخص موهوبًا بروح معينة نقية وشفافة، وبثقة حقيقية فى قدرة الله، وما فعلته من قبل لأخيها الصغير تفعله الآن لأخى "لاندرى" وهى لا تريد أن تمارس ذلك مع من هو أقل منهما قربًا لقلبها أو لمن لا تهتم به كثيرًا مثلهما لأنها مقتنعة أن فائدة هذا العلاج لا تتجلى إلا مع المحبة الكبيرة التى يمنحها الشخص السليم من قلبه للمريض والتى لن يمنحه الله دونها أى قدرة على القضاء على المرض.

وحين كانت تخفف حمى "سيلفنى" قالت لربها فى صلاتها نفس ما قالته وهى تطبب حمى أخيها من قبل:

"يا إلهى... اجعل سلامتى وعافيتى تعبر من جسدى إلى هذا الجسد الذى يعانى، وكما قدم المسيح حياته ليحرر روح باقى البشر. إذا كانت إرادتك أن تسلبنى حياتى لتمنحها لهذا المريض فافعل وأنا أسلمها لك برضا كامل مقابل شفائه الذى أتوسل إليك لأجله".

بالطبع فكرت "فاديت الصغيرة" فى تلاوة تلك الصلوات بالقرب من سرير جدتها وهى تحتضر ولكنها لم تجرؤ، فقد بدا واضحًا أن حياة الروح والجسد قد خمدت عند السيدة العجوز بفعل السن المتقدم وقانون الطبيعة يعبر فى الأساس عن إرادة الله لذا فقد خشيت "فاديت الصغيرة" - التى تستعين بجوهر الدين وليس بحيل شيطانية - غضب الله إذا طلبت منه أمرًا يحتاج إلى معجزة حقيقية لا يؤتيها للبشر.

وسواء كان العلاج غير فعال أو ناجحًا للغاية فمن المؤكد أنها خلال ثلاثة أيام أزالت الحمى عن "سيلفنى" ولم يعرف كيف حدث ذلك حتى وإن كان قد رآها فى المرة الأخيرة التى جاءت إليه حين كانت مائلة عليه وتترك يديه برقة بالغة.

فى البداية ظن أنه حلم فأغلق عينيه كى لا يراها لكنه سأل لاحقًا والدته إذا كانت "فاديت" قد لمست رأسه ويديه أم أن ما رآه كان حلمًا فردت عليه "الأم باربو" - التى حدثها زوجها عن بعض خططه وكيف أنه تمنى أن يتراجع "سيلفنى" قليلاً عن مقته لـ"فاديت" - قائلة إن "فاديت" جاءت ثلاثة أيام متتالية صباحًا ومساء وإنها قضت على الحمى بشكل مذهل حين أولته عنايتها السرية دون أن يطلع عليها أحد.

بدا "سيلفنى" غير مصدق وقال إن الحمى شفيت من تلقاء نفسها وإن كلام وأسرار "فاديت" ليست إلا تخاريف وحماقات، وظل عدة أيام بعدها هادئًا ومعافى وظن "الأب باربو" أنه يجب اغتنام الفرصة ليحدثه فى إمكانية زواج أخيه دون أن يذكر تحديدًا اسم الفتاة التى يعنيها.

أجابه سيلفنى: أنت لا تحتاج لإخفاء اسم فتاة المستقبل التى اخترتها له بالفعل، فأنا أعرف أنها تلك " الفاديت" التى فتنتكم جميعًا.

فى الحقيقة كان التحرى السرى الذى قام به "الأب باربو" لصالح "فاديت" بحيث لم يعد مترددًا بأى صورة فيما كان ينويه، كما تمنى أن يستدعى "لاندرى" فى أقرب فرصة ولكنه لا زال يخشى من غيرة أخيه التوأم وحاول أن يشفيه من هذا الداء فقال له إن أخاه لن يكون سعيدًا أبدًا دون "فاديت الصغيرة"، وهو ما أجاب عليه "سيلفنى" قائلاً:

- افعل ذلك إذن لأن أخى يجب أن يكون سعيدًا.

ولكن أحدًا لم يجرؤ على ذلك لأن "سيلفنى" سقط مرة ثانية فى المرض فى ذات اللحظة التى تظاهر فيها بالموافقة على الفكرة.

الفصل السادس والثلاثون

خشى "الأب باربو" مع ذلك أن تكون "فاديت" لا تزال تحمل له في قلبها ضغينة لتحامله عليها فيما مضى وأن تكون قد نسيت "لاندرى" في غيابه وأحبت غيره فانتهز فرصة مجيئها حين أتت إلى "البيسونيير" لتعالج "سيلفنى" وحاول أن يحدثها عن "لاندرى" ولكنها تظاهرت بعدم سماعه فشعر بضيق شديد.

وفى صباح أحد الأيام عقد العزم وذهب لـ"فاديت الصغيرة".

قال لها: "فونشون فاديت" جئت لأطرح عليك سؤالاً وأرجوك أن تجيبينى عليه بصراحة وأمانة تامة: هل قبل وفاة جدتك كانت لديك فكرة عن الأموال التى ستتركها لك؟

أجابته "فاديت": نعم، كانت عندى فكرة بسيطة عنها، فأحياناً ما كنت أراها وهى تعد عملات ذهبية ومعدنية ولم أر أيًا منها يخرج من المنزل سوى بعض الريالات الهزيلة، كما كانت كثيرًا ما تردد لى حين يهزأ الأطفال الآخرين من ملابسى: "لا تقلقى من هذا يا صغيرتى. ستصبحين أكثر ثراء منهم جميعًا، وسيأتى اليوم الذى تستطيعين فيه أن تلبسى حريرًا من أطراف قدميك إلى قمة رأسك إن كان هذا ما تتمنينه".

قال "الأب باربو": هل أخبرت "لاندرى" بالأمر وهل هذا هو السبب الذى جعل ابنى يولع بك؟

قالت "فاديت": لهذا تسأل أيها "الأب باربو". تمنيت طوال عمرى أن يحبنى أحدهم لجمال عينى وهى الشىء الوحيد الذى ينال إعجاب الناس فى شكلى ولست غبية لأقول لـ"لاندرى" إن عينىَّ الجميلتين موجودتان بصرة من جلد الثعابين، ومع هذا كان من الممكن أن أخبره دون أن أخشى من شىء لأن "لاندرى" أحبنى حبًا حقيقيًا من أعماق قلبه حتى إنه لا يعنيه أن يعرف إذا كنت غنية أو بائسة.

قال لها "الأب باربو": وبعد رحيل جدتك أتؤكدين لى يا عزيزتى "فونشون"، أن "لاندرى" لم يعرف منك أو من غيرك عن الأمر شيئًا؟

أجابت: أؤكد لك هذا كما أؤكد حبى لله، فأنت الوحيد غيرى الذى يعرف بالأمر فى العالم كله.

– وبالنسبة إلى مشاعر "لاندرى" يا "فونشون"، هل تعتقدين أنه لا زال يحفظها لك؟ وهل تلقيت منه منذ وفاة جدتك ما يدل على عدم وفائه لك؟

فأجابت: تلقيت أفضل دليل فى هذا الصدد. أعترف لك أنه أتى ليرانى بعد وفاة جدتى بثلاثة أيام وأقسم لى أنه سيموت من الحزن إن لم أصبح زوجته.

- وأنت يا "فاديت" بماذا أجبته؟

- لست مجبرة على أن أقول لك يا "أب باربو" ولكن سأخبرك لأرضيك؛ قلت له إنه لا زال يلزمنا الوقت لنفكر فى الزواج وأننى لا يمكن أن أتمنى شابًا يمنحنى قلبه ضد إرادة والديه.

ولأن "فاديت الصغيرة" قالت العبارة بمزيد من الاعتزاز والاستقلالية شعر "الأب باربو" بالقلق. فقال لها:

- لا يحق لى أن أسألك يا عزيزتى "فونشون" ولا أعرف أتنوين أن تجعلى ابنى سعيدًا أم شقيًا طوال حياته؛ ولكن أعرف أنه يحبك بشكل جنونى ولو كنت مكانك وأمتلك رغبتك فى أن يحبك أحدهم لأجل ذاتك.فقط لقلت لنفسى: "لاندرى باربو" أحبنى حين كنت أرتدى ملابسى الرخيصة، حين لفظنى الآخرون وحين عارضه والداه واعتبراه يقترف خطيئة كبرى معى، ورآنى جميلة حين أنكر علىَّ الآخرون أملى فى أن أصبح جميلِة، وأحبنى رغم ما سبَّبه له هذا الحب من آلام، وأحبنى فى غيابى كما أحبنى فى حضورى أى أنه أحبنى حبًا جمًا لا أستطيع أن أشك فيه ولا أستطيع أمامه أن أتمنى غيره زوجًا لى.

قالت "فاديت الصغيرة": كثيرًا ما أقول هذا لنفسى يا "أب باربو"، ولكن أكرر لك أنى أكره أن أدخل وسط عائلة تشعر بالخزى من انتمائى إليها ولا تستسلم للأمر إلا بدافع الشفقة والعطف.

وتابع "الأب باربو": إذا كان هذا فقط هو ما يمنع قرارك فقررى الموافقة إذن يا "فونشون" لأن عائلة "لاندرى" تقدرك وتتمناك ولا تتصورى أن رأيى اختلف لأنك أصبحت ثرية، فلم يكن أبدًا الفقر هو ما نكرهه فيك، ولكن ما كان يقال عنك من سوء، وإذا كانت هذه الأقاويل صحيحة فما كان "لاندرى" ليموت دونك وما كنت أرضى بأن أسميك "زوجة ابنى" ولكن أردت التحقق من هذه الأقاويل فذهبت إلى "شاتو- ميلون" لهذا الهدف خصيصًا وكنت أسأل عن أصغر الأشياء سواء فى تلك المدينة أو فى بلدتنا، والآن أعرف أنهم من قبل كذبوا علىَّ وأنك فتاة أمينة وحكيمة كما كان يؤكد لى "لاندرى" بكثير من حرارة الحب، لذلك جئت إليك يا "فونشون فاديت" لأطلب منك أن تتزوجى ابنى وإذا قلت "نعم" سأستدعيه للعودة خلال ثمانية أيام.

تلك المقدمة التى تنبأت بها "فاديت" من قبل أن ينطقها "الأب باربو" أسعدتها للغاية؛ ولم تترك ذلك يبدو عليها، فهى حريصة كل الحرص على أن يكون لها قدر وسط عائلتها الجديدة ولم تجبه إلا بكل كياسة وهنا قال لها "الأب باربو":

- أرى يا ابنتى أنه لا زال بداخل قلبك حزن بسببى وبسبب عائلتى تطلَّب أن يقدم لك رجل فى سنى اعتذاره وأكتفى بكل ما قلته من كلام طيب وعندما أقول لك إنك ستكونين محبوبة ومكرمة فى بيتنا فثقى فى "الأب باربو" الذى لم يخذل أحدًا من قبل، هيا. ألا ترغبين فى طبع قبلة سلام على وجه الوصى عليك والذى اخترته أنت بنفسك، أو للأب الذى يتمنى أن يتبناك؟

لم تستطع "فاديت الصغيرة" أن تتماسك أكثر من ذلك فقفزت وألقت بذراعيها حول عنق "الأب باربو"؛ و هو ما أسعد قلبه العجوز للغاية.

الفصل السابع والثلاثون

وتوصل الطرفان إلى الاتفاق على أن يتم الزواج عند انتهاء فترة الحداد التى تقضيها "فونشون" ولم يتبق سوى أن يعود "لاندرى"، ولكن حين ذهبت "الأم باربو" إلى "فونشون" فى المساء لتقبّلها وتنقل إليها مباركاتها أشارت إلى أن "سيلفنى" سقط مريضًا حين ذكروا أمامه خبر زواج أخيه المرتقب لذلك فهى تقترح التمهل قليلاً حتى يشفى ويلتهى.

قالت لها "فاديت": لقد أخطأت يا أمى "باربو" حين أكدت له أنه كان يحلم حين رآنى بجواره وهو يفيق من الحمى، فقد أصبحت روحه تعارض روحى الآن ولم أعد أملك نفس القدرة على علاجه فى أثناء نومه، بل من الممكن إذا رفضنى أن تزداد حالته سوءًا.

أجابت "الأم باربو": لا أعتقد، لأنه حالما شعر بالمرض نام فى سريره وهو يقول: "أين هى فاديت تلك؟ ألم تخبرونى أنها عالجتنى من قبل، ألن تعود ثانية؟" فقلت له إننى سأذهب لآتى بها إليك وحينها بدت عليه السعادة وعدم الصبر على الانتظار.

أجابت "فاديت": سأذهب إليه هذه المرة فقط على أن أجرب معه كلامًا آخر لأن الطريقة السابقة نجحت معه حين لم يكن يعلم أننى موجودة ولم تعد تفيد الآن.

قالت "الأم باربو": ألن تأخذى معك أدوية: أقراصًا أو شرابًا؟

قالت "فاديت": كلا، فليس جسده هو المعتل. إنها روحه التى يجب أن أؤثر عليها. سأعمل على أن أخترقها بروحى ولكن لا أعدك بنجاح تلك الطريقة، وكل ما أعدك به هو أن أنتظر بفارغ الصبر عودة "لاندرى" وألا نخبره بشىء قبل أن نحاول بشتى الطرق إعادة "سيلفنى" إلى صحته، لقد أوصانى به "لاندرى" كثيرًا حتى إنه سيوافقنى فى أن يؤخر عودته وسعادته من أجله.

عندما رأى "سيلفنى" "فاديت الصغيرة" بالقرب من سريره بدا عليه الضيق ولم يجبها حين سألته عن حاله وأرادت أن تلمس يده ولكنه سحبها وأدار وجهه إلى الممر المحاذى لسريره، وهنا أشارت "فاديت" لهم بأن يتركوها وحدها معه، وحين خرجوا جميعًا من الغرفة أطفأت نور المصباح ولم يعد ينير الغرفة سوى ضوء القمر الذى كان مكتملاً فى هذه الليلة ثم عادت بالقرب من "سيلفنى" وقالت له بلهجة آمرة فأطاعها على الفور.

- "سيلفنى" أعطنى يديك فى يدى وأجبنى بصراحة تامة فأنا لا آخذ مقابلاً لما أقوم به معك، وإذا كنت تحملت مشقة أن آتى لأعتنى بك فلن أتحمل أن تقابلنى بطريقة جافة وألا تشكر لى ما أفعله لأجلك، انتبه إذن لما سأحدثك عنه ولما ستجيبنى به لأنك لن تتمكن من خداعى.

أجاب الفتى وقد تملكه الفزع تمامًا من سماعه الأسلوب الحازم الذى تتحدث به تلك الفتاة الأضحوكة والتى فى وقت سابق لم يكن يرد عليها إلا بضربات الحصى الصغير: اسألى عما تريدينه يا "فاديت".

- "سيلفنى باربو" يبدو أنك ترغب فى الموت.

تعثر "سيلفنى" قليلاً قبل أن يجيب ولأن "فاديت" كانت تمسك يده بقوة هذه المرة استشعر قوة إرادتها فأجابها بكثير من الارتباك:

- ربما الموت هو ما يجعلنى أسعد حالاً مما أنا فيه، فأنا أسبب طوال الوقت الألم والارتباك لعائلتى بسبب صحتى المعتلة وبـ......

- قل كل شىء يا "سيلفنى" فلا ينبغى أن تخفى عنى شيئًا .

أجاب الفتى وهو مستسلم تماما: وبسبب روحى القلقة دائمًا التى لا أستطيع تغييرها.

أجابته "فاديت" بصوت قاس للغاية تخلله الغضب كما تخلله الخوف أيضًا: وبسبب قلبك الجاحد.

الفصل الثامن والثلاثون

قال لها: لماذا تتهميننى بجحود القلب؟ أتهيننى فى الوقت الذى لا أقوى فيه على الدفاع عن نفسى.

أجابته "فاديت": أقول لك حقيقتك يا "سيلفنى" وسأقول لك المزيد. تعرف.. أنا لا أشعر بأى شفقة على مرضك هذا، فمن خلال خبرتى أعرف أنه غير حقيقى، وأن الخطر الوحيد الذى أنت معرض له هو الإصابة بالجنون وهو ما تسعى إليه جاهدًا دون أن تعرف إلى أين يقودك مكرك وضعفك!

- يمكنك أن تنعتينى بالضعف أما المكر فهو ما لا أستحقه على الإطلاق.

أجابت "فاديت": لا تحاول الدفاع عن نفسك يا "سيلفنى"، فأنا أعرفك أكثر مما تعرف نفسك وأقول لك إن الضعف يولد تصديق كل ما هو باطل ولهذا فأنت أنانى وجاحد.

- إذا كانت فكرتك عنى بهذا السوء فهذا بالتأكيد لأن أخى "لاندرى" يصفنى بكل ما هو سيئ فى حديثه فجعلك تتأثرين بقلة محبته لى لأنه إذا كنت تعرفيننى أو تظنين أنك تعرفيننى فهذا لا يمكن أن يكون إلا عن طريقه.

- هذا هو ما انتظرت سماعه يا "سيلفنى" فأنا أعرف أنك لا يمكن أن تتم ثلاث عبارات دون أن تشتكى من أخيك، وتوجه له الاتهامات لأن مشاعرك المجنونة والمشوشة تجاهه تتحول بالوقت إلى شعور بالغيظ والضغينة، ومنها عرفت أنك على وشك الجنون، وأنك لست فتى طيبًا على الإطلاق!!! أؤكد لك أن "لاندرى" يحبك أكثر آلاف المرات مما تحبه، فهو على الأقل لا يعاتبك على أى مرة سببت له الألم فيها وفى المقابل تلومه أنت على أتفه الأشياء وهو لا يفعل إلا أن يخضع لك وينفذ لك ما تريد، فكيف لا أرى الفرق بينك وبينه؟ ولهذا كلما قال لى "لاندرى" كلامًا طيبًا عنك ساءت فكرتى عنك لأننى رأيت أن مثل هذا الأخ الطيب الحنون لا يمكن أن تتنكر له إلا نفس ظالمة.

- أنت التى تكرهيننى، "فاديت". أنا لم أخطئ يومًا فى تقديرى لكرهك هذا وأنت التى سلبتنى مشاعر أخى بكلامك السيئ عنى.

- وانتظرت أيضًا سماع هذا الكلام يا سيد "سيلفنى" وأنا سعيدة لأنك وصلت عندى باتهاماتك، والآن أرأيت كم أنك إنسان سيئ النية وكاذب؟ فأنت تسيء الظن وتهين من أسدى لك معروفًا مرات عدة ومن يدافع عنك دائمًا فى قلبه وهو يعرف مع ذلك أنك تعترض عليه، شخص حرم نفسه مئات المرات من البهجة الكبيرة والوحيدة فى حياته وهى رؤية "لاندرى" والبقاء إلى جواره كى يذهب "لاندرى" إلى جوارك فتتحقق لك السعادة التى انسحبت عنه، وذلك على الرغم

من أننى لست مدينة لك بأى شيء. فقد كنت دومًا عدوًا لى وأتذكر فى أبعد ذكرياتى أنه ما من طفل كان أشد قسوة وتعاليًا منك فى تعاملك معى، ولكم تمنيت أن أنتقم منك يومًا وجاءت الفرصة وإن كنت لم أنتقم مطلقًا، ولم أرُد إليك الشر إلا بالخير، على غير علم منك، فذلك لأننى أعتقد أنه على المسيحى الحقيقى أن يغفر لأى إنسان الإساءة كى يرضى الله عنه، ولكن بينما أحدثك عن الله أعرف أنك لا تفهمنى مطلقًا لأنك عدوه وعدو مصلحتك.

- أوافقك فى كثير مما قلته يا "فاديت"، ولكن هذه التهمة الأخيرة ثقيلة للغاية، أتتهميننى بأننى ملحد.

- ألم تقل لى منذ قليل أنك تتمنى الموت؟ وهل تظن أن ما تقوله ينتمى إلى الدين فى شيء؟

– لم أقل هذا يا "فاديت" إنما قلت....

وتوقف "سيلفنى" فجأة عن الكلام وشعر بالرعب وهو يفكر فيما قاله للتو والذى بدا له إلحادًا بالفعل أمام تأنيب "فاديت".

ولكنها لم تتركه فى حاله وأكملت توبيخه:

- قد يكون كلامك أسوأ بكثير من أفكارك لأننى أعرف أنك لا تتمنى الموت بحق، وإنما يسعدك أن تجعلهم يعتقدون ذلك لتظل أنت السيد وسط عائلتك لتعذب أمك المسكينة التى تتحسر عليك، وأخاك الذى من الطيبة بحيث يصدق أنك ترغب فى إنهاء حياتك، أما أنا

فلست مغفلة يا "سيلفنى" لأننى أعتقد أنك تخشى الموت أكثر من أى شخص آخر، وأنك تلعب لعبة تخويف من يدللونك ويتعلقون بك فيعجبك أن ترى القرارات الأكثر حكمة وثباتًا، وقد تم التخلى عنها أمام تهديدك بترك الحياة، وهو أمر مريح وبسيط أن ينطق الإنسان تلك الكلمة ليجعل الجميع ينحنون أمامه، وبهذه الطريقة تظل أنت السيد هنا ولأن ما تفعله ضد الطبيعة البشرية ولأنك وصلت إلى ذلك بطرق لا يرضى عنها الله فقد عاقبك الله وجعلك أكثر شقاءً مما كان يمكن أن تكون عليه وأنت مستسلم بدلاً من أن تكون الآمر الناهى، وها أنت تضيق بحياة جعلها لك أهلك هانئة ومستقرة، وسأخبرك بما ينقصك لتكون فتى عاقلا وطيبا يا "سيلفنى"؛ ينقصك أن تكون ابنًا لأبوين قاسيين وينقصك كثير من البؤس ونقص فى الطعام كل يوم وتلقى الضربات معظم الوقت، إذا كنت قد تربيت فى البيئة التى تربينا فيها أنا وأخى "جانيه" لشعرت بالرضا من أقل الأشياء بدلاً من كل هذا الجحود، هيا يا "سيلفنى" ولا تعلق ما أنت فيه على حالك كأحد صبيين توأمين، أعرف أنك سمعت الكثير عن كون هذه المشاعر التى تكنها لأخيك لهى قانون الطبيعة وأنك ستموت إذا عارض أحد تلك المشاعر، وتصورت أنت أنك تستجيب لقدرك حين تتمـــادى فى تلك المـــشاعر ولكن الله ليس بظلام ليكتب علينا ونحن لا زلنا فى رحم أمهاتنا قدرًا يشقينا أو أن يمدنا بأفكار تؤذينا ويكون التغلب عليها من المستحيلات، كما أنك تعارضه حين تؤمن

بالخرافات وحين تعتقد أنه يجرى بدمك رفض وإحساس بقدرك السيئ أكثر مما يوجد فى روحك من مقاومة وقدرة على التعقل، ولن أصدق أبدًا- إلا إذا كنت مجنونًا - أنك لا تستطيع أن تقاوم غيرتك إذا أردت، ولكنك لا تريد لأنهم يدللون فيك هذه الرذيلة ولأنك اعتدت ألا تنصاع إلى واجبك بقدر ما تتمادى فى رغباتك الأنانية.

ظل "سيلفنى" على صمته وترك "فاديت" تبكته طويلاً دون أن يدافع عن أى مما تقوله، إذ كان فى قرارة نفسه يعرف أنها على حق ولم يجانبها الصواب إلا فى نقطة واحدة، وهى أنها تعتقد أنه لم يواجه نقصه ولو لمرة واحدة، وأنه مدرك لأنانيته مع أنه أصبح أنانيًا دون أن يرغب فى ذلك، ولا أن يعرف كيف أصبح على هذا النحو وهو ما آلمه كثيرًا وأشعره بالخزى، وأراد أن يعدل لها فكرتها عن ضميره، أما هى فكانت تدرك جيدًا أنها بالغت فى اتهاماتها له ولكنها فعلت ذلك بهدف أن تقلق عقله وتثيره بشدة قبل أن تهدئه بالرقة والمواساة، فأجبرت نفسها على الحديث معه بهذه القسوة وعلى أن تبدو غاضبة رغم أنها كانت تشعر بداخلها الشفقة والمحبة تجاهه حتى إنها شعرت بالإجهاد من خداعه وتركته وهى متعبة أكثر مما كان هو متعبًا.

الفصل التاسع والثلاثون

فى الحقيقة فإن "سيلفنى" لم يكن يعانى المرض كما كان يبدو عليه أو كما كان يعتقد، و"فاديت الصغيرة" حين لامست يده عرفت أن الحمى ليست شديدة وأن هذيانه يرجع إلى اعتلال روحه وضعفها وليس لعلة فى جسده لذا فقد كان علاجه عن طريق التأثير فى روحه بأن تسبب له نوعًا من الخشية تجاهها ومع صباح اليوم التالى عادت مرة أخرى إلى جواره ولم يكن قد نام، بل كان هادئًا ومنهكًا، وحالما رآها مد يده إليها بدلاً من أن يسحبها كما فعل فى اليوم السابق.

قالت له: لماذا تمد إلىَّ يدك يا "سيلفنى"؟ لأتبين شدة الحمى؟ أعرف من وجهك أنك لم تعد مريضًا.

شعر "سيلفنى" بالحرج وهو يفكر فى سحب يده، قال لها:

- بل لأقول لك صباح الخير يا "فاديت" ولأشكرك لأنك خففت عنى الألم.

قالت وهى تمسك بيده وتبقيها فى يدها: فى هذه الحالة فأنا أقبل تحيتك، لأننى لا أرفض مطلقًا مشاعر إنسانية مخلصة، ولا أعتقد أنك كاذب لتدعى اهتمامًا بى إذا لم تكن تشعر ببعضه بداخلك بالفعل.

- لقد قسوت عليّ كثيرًا بالأمس يا "فونشون" ولا أدرى كيف لم أغضب منك على هذا؛ بل إننى أجد فى زيارتك لى دليلاً على طيبة قلبك بعد كل ما قلته عنى.

جلست "فاديت" بالقرب من سريره وتحدثت إليه بطريقة تختلف كثيرًا عن طريقتها فى الليلة السابقة. كان حديثها لا يخلو من الطيبة مع كثير من الرقة والحنان حتى إن "سيلفنى" استشعر فيه الشفاء مما فى روحه كما أحس بالسعادة، على عكس غضبه منها فى الليلة السابقة، بكى "سيلفنى" كثيرًا واعترف بكل أخطائه، بل طلب منها أن تسامحه وتمنحه صداقتها من كل قلبه وبكل أمانة فشعرت أن قلبه أفضل بكثير من عقله وتركته يفصح عما يريد وفى بعض أحيان كانت تؤنبه مجددًا وحين أرادت أن تترك يده أمسكها ثانية لأنه شعر أن هذه اليد هى التى تبرئه من مرضه وحزنه فى آن.

حين رأته على الحالة التى تريد رؤيتهَ عليها، قالت له:

- سأخرج الآن وأنت يا "سيلفنى" انهض من سريرك لأنك لم تعد مريضًا ولا ينبغى أن تظل فيه، فأنت تتدلل فى السرير بينما أنهكت أمك فى خدمتك فهى لا تفعل شيئًا سوى البقاء إلى جوارك، ستأكل الآن كل ما تقدمه لك أمك والذى أحضرته لك من عندى؛ إنه لحم وأنا أعرف أنك لا تحبه عادةً، وأنك لم تعد تأكل إلا الأعشاب التى لا تفيد، ولكن لا يهم. اجبر نفسك على أكله، وحتى إذا شعرت

ببعض الاشمئزاز لا تجعل ذلك يبدو عليك، فستسعد أمك كثيرًا إذا رأتك تأكل ما يفيدك. أما بالنسبة إليك فالاشمئزاز الذى ستحاول التغلب عليه وإخفاءه هذه المرة سيقل فى المرة القادمة ليختفى تمامًا فى المرة الثالثة، وسترى أننى محقة، إلى اللقاء إذن ولا تجعلهم يدعونى لعيادتك مبكرًا كما فعلت اليوم لأننى أعرف أنك لن تعود إلى المرض إذا قاومت رغبتك فى المرض.

قال "سيلفنى": ألن تعودى فى المساء؟ ظننت أنك ستعودين.

- أنا لست طبيبة أعمل بمقابل مادى يا "سيلفنى"، ولدىَّ ما أفعله بخلاف الجلوس إلى جوارك ما دمت أنك لست مريضًا.

- معك حق يا "فاديت"، ولكن هل تعتقدين أن رغبتى فى رؤيتك أيضًا هى نوع من الأنانية؟ فالأمر مختلف إذ أجد راحة كبيرة فى التحدث معك.

- حسنًا ولكنك لست كسيحًا، كما أنك تعرف مكان منزلى ولا تنس أننى سأكون أختك بزواجى من أخيك، كما أنا الآن أختك بمحبتى لك وتستطيع إذن أن تأتى لتتحدث إلىّ فى أى وقت تشاء دون أن يكون ذلك محل لوم.

قال "سيلفنى": سآتى ما دمت توافقين، إلى اللقاء إذن يا "فاديت" سأنهض حالاً رغم الصداع الذى يثقل رأسى لأننى لم أنم مطلقًا ولم أتوقف عن التحسر والندم طوال الليل.

قالت له: سأنزع من رأسك هذا الألم، ولكن لتعرف أنها المرة الأخيرة وأوصيك بنوم عميق فى الليلة القادمة.

مدت يديها على جبهته وفى غضون خمس دقائق وجدته أفضل حالاً فلم يعد يشعر بأى ألم .

قال لها: أرى أننى أخطأت حين كنت أرفض مساعدتك، فأنت معالجة ماهرة كأنك تسحرين المرض، أما الآخرون فكانوا يؤذوننى أكثر بعقاقيرهم وأنت التى لا تفعلين أكثر من وضع يدك علىّ، تشفيننى مما أعانى، وأعتقد أنه لو أتيح لى البقاء إلى جوارك طوال الوقت فستمنعيننى دائمًا أن أكون مريضًا أو مخطئًا ولكن أخبرينى يا "فاديت" ألا تزالين غاضبة منى؟ أيمكنك أن تعتمدى على كلامى حين أقول إننى أستسلم لك بالكامل؟

قالت له: نعم على ألا تغير رأيك، وسأحبك كما لو كنت أخى التوأم.

- إذا كنت تعنين ما تقولين يا "فونشون" لتحدثت إلىّ بغير هذا التحفظ فى أسلوبك معى، فالإخوة التوائم لا يتحدثون مع بعضهم بكل هذه المراعاة.

قالت له وهى تنهض: حسنًا يا "سيلفنى". انهض إذن وتناول طعامك وتحدث مع الآخرين وتنزه، وانعس ملء عينيك، فهذه هى روشتة العلاج اليوم وغدًا تعود إلى العمل.

قال "سيلفنى": وسآتى لأراك.

قالت له: فليكن.

وغادرت وهى تنظر إليه بعين حانية ومتسامحة منحته فجأة القوة والرغبة فى ترك فراش الحزن والكسل.

الفصل الأربعون

انبهرت "الأم باربو" كثيرًا من مهارة "فاديت الصغيرة" هذه المرة وفى المساء تحدثت إلى زوجها، قائلة:

- "سيلفنى" يبدو فى حال أفضل مما كان عليه طوال ستة شهور، فأكل كل ما قدمته إليه اليوم دون أن يبدى ضيقه المعتاد، وأكثر من ذلك يتحدث عن "فاديت" كما لو كانت من القديسين، فقد أثنى عليها ثناء عظيمًا وأصبح يتمنى من كل قلبه عودة أخيه وإتمام زواجه، إنها المعجزة حتى إننى لا أعرف إذا كنت مستيقظة أم نائمة.

قال "الأب باربو": معجزة أم لا. هذه الفتاة تمتلك عقلاً راجحًا، وأعتقد أن دخولها إلى العائلة سيحمل لنا الكثير من السعادة.

بعد ثلاثة أيام رحل "سيلفنى" إلى "أرتون" ليلاقى أخاه، فقد طلب من أبيه ومن "فاديت" - مكافأة له على انصلاح حاله - أن يكون هو أول من يبشر أخاه.

قال "لاندرى" وهو يضحك غير مصدق وملقيًا بنفسه بين ذراعى أخيه: كل السعادة أتت إلىّ دفعة واحدة لأنك أنت من أتيت لتعيدنى ولأنك تبدو سعيدًا من أجلى قدر سعادتى أنا.

عادا معًا إلى المنزل دون أن يلعبا فى الطريق كما كانت عادتهما ولم يكن هناك أسعد من أهل الـ"بيسونبير" وهم ملتفون حول الطاولة لتناول العشاء مع "فاديت الصغيرة" و"جانيه" الصغير وسطهم.

كانت الحياة بالنسبة إليهم جميعًا سعيدة وهادئة طوال الأشهر الستة التالية لأن الصغيرة "تانيت" ارتبطت "بكاديه كيلو" الذى كان أقرب صديق لـ"لاندرى" بعد أصدقاء العائلة وتم الاتفاق على أن يتمموا العرسين فى موعد واحد وكان "سيلفنى" يكن لـ"فاديت" ودًا خالصًا حتى إنه أصبح لا يقوم بشىء إلا بعد استشارتها وكانت لها عليه سطوة كبيرة حتى إنها تنظر إليه كما لو كانت أخته الحقيقية ولم يعد مريضًا، أما الغيرة فلم يعد لها من أثر عليه، وإذا بدا عليه الحزن في بعض الأحيان أو بدأ يهيم على وجهه وبّختة "فاديت" فاستعاد ابتسامته وتكيفه.

تحدد لحفلى الزواج موعد واحد وقداس واحد ولتوافر الإمكانيات فقد أقيم حفلا زواج من الجمال حتى إن "الأب كيلو" الذى لم يفقد قط هدوءه بدا متوترًا بعض الشىء فى اليوم الثالث لحفلى الزواج ولم ينغص شىء على سعادة "لاندرى" ولا العائلة بل لا البلدة بأكملها، فالعائلتان كانتا ثريتين وكذلك "فاديت الصغيرة" التى تملك أكثر مما تملكه العائلتان مجتمعتين، فكانوا يجاملون كل أهل البلدة ويقدمون الكثير من الإحسان، وكانت "فونشون" ذات قلب طيب حتى

إنها لا ترد الإساءة إلا بالخير لكل من أساء الحكم عليها من قبل حتى فيما بعد حين اشترى "لاندرى" ضيعة جديدة ملكًا له ليديرها على أكمل وجه بفضل خبرته وخبرة عائلته فى هذا الأمر أقامت فيه منزلاً جميلاً كى تستقبل فيه كل الأطفال البائسين فى بلدتها لمدة أربع ساعات كل يوم، وأخذت على عاتقها هى وأخيها "جانيه" مسئولية تنشئتهم وتعليمهم أصول الدين الصحيحة حتى إعانة الأكثر عوزًا بينهم وتذكرت أنها كانت طفلة بائسة ومهملة، كما أن أطفالها الذين جاءوا إلى الدنيا فى الموعد المحدد لهم من الخالق كانوا لطفاء ورحماء بهؤلاء الذين لا يملكون المال ولا يحظون بالتدليل.

ولكن ما الذى حدث لـ"سيلفنى" وسط السعادة التى عمت العائلة؟ حدث شيء لم يستطع أحد تفسيره وجعل "الأب باربو" يفكر كثيرًا بعد زواج إخوته بما يقرب من شهر وبعد أن شجعه والده على البحث عن فتاة ليتزوجها وأجابه بأنه لا يشعر بأى رغبة فى الزواج ولكن تتملكه رغبة منذ بعض الوقت فى أمر يتمنى أن يتحقق وهو أن يصبح جنديًا ويتطوع فى الجيش.

ولأن عدد الذكور لم يكن كبيرًا فى عائلات المنطقة ولأن الأرض لا تقدم خيرها بأكثر مما تستطيع لم يتطوع قط أحد فى الجيش برغبته، كما اندهش الجميع من تصميم "سيلفنى" على الأمر وهو لا يبدى أى أسباب سوى رغبته وميله إلى حياة العسكرية وهو أمر لم يعرف قط عنه، كل ما استطاع أبوه وأمه وأخوه التوأم وباقى

إخوته أن يقولوه لم يثنه عن رغبته فلم يتبق سوى أن يخطروا "فونشون" بالأمر لأنها تملك العقل الراجح وأفضل قدرة على النصح وتحدثت لساعتين كاملتين مع "سيلفنى" وحين تركا بعضهما رأته عائلته وهو يبكى كما كانت زوجة أخيه تبكى هى الأخرى بينما كان مظهرهما هادئًا ويعكس تصميمًا واقتناعًا حتى إنه لم يعد هناك مجال للاعتراض وحين قال "سيلفنى" إنه مصمم على ما فى رأسه وأيدته "فونشون" التى تنبأت بأن ذلك سيعود عليه بالنفع فى المستقبل.

بما أنه لم يكن أحد يستطيع أن يجزم أنها تعرف المزيد عن الأمر لم يجرؤ أحد على المقاومة أكثر من ذلك حتى "الأم باربو" تماسكت ولكن بعد أن ذرفت الدموع الحارة وعندما شعر "لاندرى" باليأس، قالت له زوجته:

- إنها إرادة الله وواجبنا أن نترك جميعًا "سيلفنى" ليرحل، وصدّق ما أقوله لك الآن ولا تسألنى المزيد.

أوصل "لاندرى" أخاه مسافة لا بأس بها على الطريق وحين كان يسلمه الصرة ليحملها على ذراعه وهو راحل بدا وكأنه يسلمه قلبه ليحمله معه وعاد ليجد زوجته العزيزة لتعتنى به لأنه خلال شهر كامل تمكن منه الحزن تمامًا حتى أسقطه فى المرض.

أما "سيلفنى" فلم يكن هذا هو حاله وأكمل طريقه حتى بلغ الجبهة، فقد كان هذا فى أثناء فتوحات "نابليون بونابرت" العظيمة

وعلى الرغم من أنه لم يكن لديه مطلقًا ميل إلى الحياة العسكرية استسلم تمامًا لرغبته فى أن يرى نفسه جنديًا حقيقيًا وشجاعًا فى المعارك كرجل لا يبحث إلا عن الفرصة للقتال، مع ذلك كان رقيقًا ومنصاعًا للأوامر كطفل، وفى الوقت نفسه كان جسده جافًا مثل المحاربين القدامى، ولأنه نال قسطًا وافيًا من تعليم الفنون العسكرية استفاد منها كثيرًا مما أهله ليتقدم سريعًا، فبعد عشر سنوات من التعب والشجاعة ومن السلوك الطيب حصل على رتبة " قائد" ونال وسام "صليب الحرب".

قالت "الأم باربو" محدثةً زوجها، فى مساء اليوم الذى تلقت فيه خطابًا من "سيافنى" مليئًا بمشاعر الود لهم ولـ"لاندرى" ولـ"فونشون" ولكل صغير وكبير فى العائلة: آه لو يعود!! ها هو على وشك أن يصبح "جنرالاً" وآن الأوان ليستريح!!

قال "الأب باربو": لقد بلغ رتبة رفيعة وليس فى حاجة إلى زيادتها لتضيف شرفًا كبيرًا لعائلة من الفلاحين!!

أجابت "الأم باربو": تنبأت "فاديت" من قبل بما يحدث الآن، نعم لقد أعلنت ذلك من قبل!!

قال "الأب باربو": هذا صحيح، ولكننى لا أفهم كيف اتجه فجأة فى هذا الاتجاه وكيف سيطر على طبعه ومزاجه وأحدث بهما هذا

التغيير بعد أن كان وديعًا للغاية وصديقًا وفيًا لأصغر متطلبات الرفاهية التى كان ينعم بها؟

قالت "الأم باربو": زوجى العزيز. إن زوجة ابننا تعرف أكثر مما تريد أن تقول ولكن هذا لا يخدع أمًّا مثلى ولكننى أعتقد أننى أيضًا أعرف الكثير مثل " فاديت".

أجاب "الأب باربو": إذن إنه الوقت المناسب لتخبرينى!!

قالت "الأم باربو": حسنًا. "فونشون" ساحرة للغاية وبالتأكيد أنها فتنت "سيلفنى" أكثر مما كانت ترغب وحين رأت أن سحرها تمكن منه حاولت أن تسترده أو تقلله ولكنها لم تستطع وابننا "سيلفنى" وجد نفسه يفكر كثيرًا فى زوجة أخيه فرحل بدافع من الشرف والفضيلة ولهذا فقد أيَّدته "فونشون" ودعمته.

قال "الأب باربو" وهو يفرك أذنه: أهذا هو السر؟ فى هذه الحالة أخشى ألا يتزوج أبدًا لأن "المغتسلة فى الكلافيير" قالت إنه حين يولع بامرأة سيزول عنه ولعه بأخيه ولكنه لن يحب إلا واحدة فقط فى حياته كلها لأن له قلبًا شديد الحساسية والعاطفة المتقدة!

المؤلفة فى سطور :

جورج صاند

اسمها الحقيقى "أورو دوبا". ولدت فى باريس فى الرابع من يوليو من عام ١٨٠٤ لأب يعمل ضابطا فى الجيش الإمبراطورى وأم تعمل فى مجال تفصيل الملابس.. ساهمت نشأتها فى طبقة اجتماعية متوسطة فى ترسيخ معتقداتها فيما يتعلق بفكرة الديمقراطية.

ظهرت ميولها الأدبية فى سن مبكرة ولكنها تزوجت وأنجبت طفلين ثم انفصلت عن زوجها. ناضلت فى عهد "نابليون بونابرت" لتنال المرأة الفرنسية حقوقها الاجتماعية فى الحصول على الطلاق والمساواة مع الرجل، إلا أنها أثارت حفيظة معاصريها حيث كانت ترتدى ملابس الرجال وتمتطى الخيل وتدخن الغليون...

نالت شهرتها مع رواياتها الأولى "أنديانا" و"ليليا" اللتين حققتا نجاحًا كبيرًا. أسست جريدة "قضية الشعب" وطالبت فيها بالحقوق الاجتماعية والمدنية للعمال والفلاحين، كما نددت فى الوقت ذاته باستخدام العنف، ومن أشهر أقوالها "فلنتعلم أن نكون ثوارًا صبورين ومثابرين، لا أن نكون إرهابيين". ألفت رواية "فاديت الصغيرة" التى تعد من أشهر رواياتها، إلى جانب العديد من الروايات الأخرى والقصص القصيرة والملاحم... وتوفيت فى الثامن من يونيو من عام ١٨٧٦.

المترجمة فى سطور :

دينا مندور

ولدت فى عام ١٩٧٨، ودرست الأدب والرواية الفرنسية فى كلية الآداب وتخرجت فى عــام ١٩٩٩. درســت اللغــة الفرنســية والترجمة فى المركز الثقافى الفرنسى بالقــاهرة. عملــت صــحفية بجريدة الأهرام "إبدو" التى تصدر باللغة الفرنسية ثم تفرغت للعمــل بالترجمة.

المراجعة فى سطور :

أمل حسن الصبان

- حصلت على ليسانس اللغة الفرنسية من كلية الألسن جامعة عين شمس، بتقدير جيد جدًا مع مرتبة الشرف فى مايو عام ١٩٨٢.
- وفى مايو ١٩٨٥ حصلت على دبلوم الترجمة التحريرية والفورية المعادل للماجستير، كلية الألسن جامعة عين شمس، بتقدير جيد جدًا.
- وفى فبراير ١٩٩١ حصلت على دكتوراه فى اللغة الفرنسية والترجمة، كلية الألسن جامعة عين شمس، بتقدير مرتبة الشرف الأولى.
- وتعمل أستاذًا مساعدًا بقسم اللغة الفرنسية، كلية الألسن، جامعة عين شمس.

ومن أعمالها المنشورة فى مجال الترجمة:

١- قاموس "المصطلحات السياسية ومصطلحات المؤتمرات"، وحدة رفاعة الطهطاوى للترجمة والبحث وتطوير المصادر اللغوية (١٩٩٥).

٢- ترجمة كتاب "الجمهورية العالمية للأدب" لباسكال كازانوفا, المجلس الأعلى للثقافة (٢٠٠٢).

٣- ترجمة كتاب "الولع الفرنسى بمصر - من الحلم إلى المشروع" لأحمد يوسف، المجلس الأعلى للثقافة يناير٢٠٠٣.

٤- قاموس كلمات - باريس - دار نشر البيس - ٢٠٠٣.

٥- ترجمة فصل من الجزء الثانى من موسوعة "جامعة كل المعارف" المجلس الأعلى للثقافة - ٢٠٠٥.

٦- الاشتراك فى ترجمة كتاب وصف مصر - الصادر عن الهيئة القومية للكتاب.

٧- سلسلة طويلة من المقالات المتخصصة فى مجال الترجمة فى مجلة الألسن للترجمة ومجلة Azhar الصادرة فى إسبانيا.

التصحيح اللغوى: آمال الديب

الإشراف الفنى: حسن كامل



الكاتبة الفرنسية "أورور دوبان" المعروفة باسم "جورج صاند" (1804 1876) تغيرت صورتها هنا من مجرد امرأة جريئة غيّرت اسمها ودخّنت السيجار وكتبت ونشرت حين لم تجرؤ امرأة أخرى على النشر، ومن مجرد عشيقة الشاعر دو موسيه أو عشيقة الموسيقى شوبان، وصاحبة "الصالون الأدبى" الذى استقطب أكبر المفكرين والفنانين المبدعين. ومن مجرد روائية "الكتب الريفية" التى تتغنى بحياة الريف، وتحولت إلى كاتبة روائية. كتبت روايتها هذه "فاديت الصغيرة" - وهى من أجمل رواياتها - فى غضون أربعة أيام، فلقبوها وقتها "بالكاتبة المتدفقة كالنهر"، وقالوا عن قلمها: "نهر جارف لا ينضب..."

حين عادت جورج صاند إلى قصرها الريفى وكتبت "فاديت الصغيرة"، بلورت فيها وفى شخصياتها كل فشلها السياسى، واستعادت شاعرية قصرها البعيد بعد طموحات المدينة والسياسة والثورة.

تصميم الغلاف: نسرين كشك

الإبداع القصصى